

المسلمون بين التحدي والمواجهة



مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي

بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق

مُقَدِّمَاتٌ

لِلنُّهُوضِ بِالعَمَلِ الدَّعَوِيِّ

المسلمون بين التحدّي والمواجهة
(٣)

مقدّمات للنهوض بالعمل الدعوي

بقلم
أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق



﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

[سورة فصلت: ٣٣]

الإهداء

إلى الشباب الغرّ الميامين الذين يسعون
لإعلاء كلمة الله في الأرض ونشر أعلام
الهداية في العالمين.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمةُ الطّبعةِ الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد..

فهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة «المسلمون بين التحدي والمواجهة» وقد خصّصناه لمعالجة بعض الجوانب الدعوية التي نرى أنها ما زالت بحاجة إلى العناية والشرح والتمحيص. وقد كان الأول من هذه السلسلة بعنوان: «نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي»، أما الثاني فكان عنوانه: «من أجل انطلاقة حضارية شاملة».

إن قضية الدعوة إلى الله تعالى ليست شأناً خاصاً لفئة محدودة من الناس ولكنها من القضايا المركزية لهذه الأمة؛ فنحن أمة رسالتها الأساسية في هذه الحياة هداية الخلق ونشر أعلام الحق والعدل والخير، وتعبيد الناس لقيوم السمٰوات والأرض. كما أن إصلاح المجتمعات الإسلامية وتخليصها من حالة الوهن والغثائية، من الهموم العامة لمعظم أبناء أمة الإسلام على اختلاف طبقاتهم وأوضاعهم.

وقد نشرت بحوث ودراسات وكتب كثيرة في قضايا الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ وهي على كثرتها وتنوعها لم تعط هذا الموضوع حقه من الدرس والبحث، وليس ذلك بسبب قصور تلك الدراسات، وإنما بسبب ضخامة الموضوع، وكونه الحقل العملي الذي بإمكانه أن يُفيد من التقدم العلمي في العلوم كافة؛ ومن ثم فإننا نعتقد أن ميادين القول فيه ستظل رحبة وفسيحة ما دام هناك ارتقاء معرفي على هذه الأرض.

إن كون كل مسلم يستطيع أن يكون (داعية) في ظرف ما وعلى مستوى من المستويات يوجب تنويع ألوان الخطاب بما ينمي الإحساس لدى جميع المسلمين بأهمية (الدعوة)، وبما يساعدهم على القيام بها بحسب أحوالهم وإمكاناتهم. وهذا يتطلب فيضاً من الكتب والرسائل ذات المستويات المتفاوتة والمناسبة للخاصة والعامة.

وأظن أن جعل الدعوة إلى الإسلام (ثقافة) لدى كل مسلم يتطلب تياراً متواصلاً من الحملات التعليمية والتثقيفية والإعلامية بكل الوسائل المتاحة من أجل توسيع قاعدة المفاهيم والمبادئ والآداب الدعوية المشتركة بغية أداء الأمانة وتبليغ الرسالة على أوسع مدى ممكن. وبما أننا نعيش في زمان صار فيه كل شيء معقَّداً فإننا أضحينا بحاجة ماسّة إلى الارتقاء بالخطاب الدعوي بما يكافئ لغة العصر التي تجمع بين الفلسفة والإحصاء والمعطيات التقنية والحضارية والتجريبية، والتي تتسم بالشمول والكلية. وإذا وصل الأمر بنا إلى هذا الحد فإننا نعتقد أن الساحة الدعوية ما زالت فقيرة في استخدام هذا اللون من الخطاب نظراً لأحادية الثقافة والانعزال المعرفي الذي ما زال يعاني منه كثير منا؛ مما أفقد كثيراً من كتاباتنا الجاذبية والجدية والتأثير. وهذا الكتاب ليس موجهاً للعامة، ولا للذين أهمتهم أنفسهم، وشغلتهم مصالحهم الخاصة، وإنما لأولئك الذين سيطر عليهم همّ البحث عن الطريق الأقصر والأسلوب الأنجع لنشر أنوار الإسلام في العالمين وإحالة قِيَمه ومُثُله إلى واقع كريم يتقيَّل الناس أفياءه، وينعمون بأمنه وسلامته وعافيته.

إن مستوى (المعرفة الدعوية) المتوفر الآن لا يكفي لاستمرار قوافل الهداية إلى غاياتها المنشودة؛ والدليل على ذلك النكسات والنكبات التي تصاب بها الجماعات والهيئات الإسلامية في كثير من بلاد الإسلام والعالم الخارجي؛ ومع أن جزءاً من ذلك شيء لا بد منه إلا أن بإمكان المعرفة الجيدة والخبرة المتراكمة أن توفرا علينا الكثير الكثير من الوقت والجهد والمال والدم والعناء، وأن تحققا الكثير الكثير من النجاحات والانتصارات الباهرة بعد توفيق الله ـ تعالى ـ وعونه.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أمزج بين الأفكار القريبة المألوفة والأفكار والتأملات التي يهتمُّ بها الخاصة من أجل تعميم الفائدة آملاً من الله ـ جل وعلا ـ أن يجعله لي ذخراً يوم الدين، وأن يجعله سهماً في خدمة دينه وإعلاء كلمته؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

أ. د. عبد الكريم بكّار

  

المقدمة الأولى

في فكر الداعية

١ ـ الفكر: طبيعته وأهميته.

٢ ـ شيء من قوانين الفكر.

٣ ـ بعض إصابات الفكر لدينا.

(١) الفكر: طبيعته وأهميته

صارت كلمة (الفكر) والتفكير والأفكار من الكلمات الشائعة جداً على ألسنة العامة والخاصة اليوم؛ وعند عودتنا إلى معاجم اللغة نجد أنها تعرف الفكر بأنه: «إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول».

ويقولون: فكّر في مشكلة: أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها[١].

ولعلنا نعرِّف التفكير بأنه: «إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء»[٢].

ومن خلال هذا التعريف ندرك أن الفكر ليس شيئاً مطابقاً للأحكام والمبادئ، ولا مطابقاً للثقافة أو العقل أو العلم، وإنما هو استخدام نشط لكل ذلك بغية الوصول إلى المزيد من الصور الذهنية عما يحيط بنا من أشياء وأحداث ومعطيات حاضرة وماضية وتوسيع مجال الرؤية لآفاق المستقبل.

وبناء على هذا فإن العالم غير المفكر، فقد يكون المرء عالماً، ولا يكون مفكراً، وقد يكون مفكراً ولا يكون عالماً، وذلك لأن الميدان الأساسي للعلم هو الإلمام بالجزئيات؛ أما ميدان الفكر فهو إبصار (الكليات) والاشتغال عليها؛ وقليل أولئك الذين يسمح لهم الاشتغال بالجزئيات بالتوجه إلى النظر الكلي، كما أن طبيعة الاشتغال بالقضايا الكبرى (تزهّد) المفكرين في الاهتمام بالمسائل الجزئية، حيث يرون أنها مندرجة في أنظمة أشمل تتحكم فيها.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: فكر.

(٢) انظر تعريفاً آخر في: الأزمة الفكرية المعاصرة: ٢٧.

ومع افتراق الطبيعتين إلا أن هناك خطوطاً عريضة تجمع بينهما أهمها: أن كلًا من المعطيات الفكرية العامة والجزئيات العلمية الصغيرة يميل إلى الظن والتخمين والبعد عن اليقين؛ وذلك بسبب أن الجزئيات هي مناط الاجتهاد؛ ونتائج الاجتهاد تكون في الغالب ظنية كما أن وفرة العناصر والمعطيات التي تساعد في تكوين الرؤى الكلية تجعلها بعيدة أيضاً عن الصلابة والجزم؛ لكن (الإحالات الثقافية) والخبرات المتراكمة تنقلها إلى حيز اليقين أو الرفض أو التعديل بعد مدة زمنية معينة.

لكن هذا لا يهوّن أبداً من شأن المعطيات الفكرية؛ فقد أثبتت التجربة التاريخية أنه (لا شيء يضيع)؛ فالفكرة مهما كانت، تترك انطباعاً معيناً سلبياً أو إيجابياً؛ فقد تشكك في مسلَّمة من المسلَّمات، وقد تعزز ظناً من الظنون، وقد تنبه إلى شيء منسيّ، وقد تنقذ أمة من كارثة محقَّقة!!.

وكثيراً ما يحدث أن تأتي الفكرة قبل أوانها أو في غير محيطها؛ فلا تحدث اضطراباً في الواقع العملي، وهي أيضاً لا تضيع لأنها ستشكل الخميرة التي سوف تنبت يوماً ما أفكاراً أو حلولاً حين تجد المناخ المناسب[١].

وهناك إلى جانب هذا سمة أخرى أساسية للأفكار.وهي أن الأفكار التي نستخدمها في حركتنا الاجتماعية تكون في العادة ملائمة للظروف والأحوال المحيطة بها، ومهمة الأفكار إحداث تغيير ناجح في تلك الظروف نحو الأفضل والأسمى، وهذا التغيير الذي يحدث يوجب علينا تغيير الأفكار التي نجحت، كما نغير الأفكار التي أخفقت، وذلك لأن تغيير الأفكار للظروف يوجدها في ظروف جديدة غير ملائمة لها، وهذا مشاهد في الأعمال الإصلاحية الكثيرة التي حدثت في العالم؛ فحين تُطرح أفكار وأساليب لتحقيق النظافة العامة ـ مثلاً ـ فإن تلك الأفكار تفقد وظيفتها وأهميتها حين تصبح النظافة عادة للناس، ويصبح الحث عليها غير ذي معنى. وحين تبلور

---

(١) كثير من أفكار ابن تيمية وابن خلدون جاء في غير أوانه وفي غير محيطه، وقد وجد الآن كثيراً مما افتقده، وأصبح يؤتي أكله أشكالاً وألواناً.

أفكار في ضرورة إرسال الأولاد إلى التعليم الجامعي، ثم تنجح تلك في تحقيق مقصدها يصبح الحديث عن تلك الضرورة غير ذي مقتضي. . . وهذا يعني أن كثيراً من الأفكار تنتهي صلاحيته ليس في حالة إخفاقه فقط وإنما في حالة نجاحه أيضاً. وهذا مغاير ـ بالطبع ـ لحقيقة المبادئ والقيم العليا التي تتأبى على التحقق الكامل، ويظل بينها وبين التمثل الواقعي هوة دائمة مما يصونها من الاستنفاد، ويجعل الحاجة إليها مستمرة. ويكمن مقتل النهضة الفكرية في كثير من الأحيان في التشبث بأفكار حققت غاياتها، وفقدت وظيفتها، والزهادة في مبادئ توجب طبيعتها الخاصة وجوب المحافظة عليها؛ لأنها تمثل محور الحياة الفكرية التي لا قوام لها بدونه.

أهمية الفكر:

صدَّ تأكيد كثير من مفكري المسلمين على أهمية الفكر كثيراً من الشيوخ والشباب عن الاهتمام بمناهج الفكر وقضاياه ظناً منهم أن ذلك الاهتمام سيكون على حساب العمل والتربية والأخلاق والسلوك. . . وسبب هذا الظن أننا حين نتبنى توجهاً معيناً في الإصلاح نلح عليه إلحاحاً يوهم الآخرين بأننا لا نرى سواه، وأننا نهمل ما عداه؛ ومن ثم فإنني أبادر إلى القول: إن استقامة الفكر ونقاءه ليس بديلاً عن التربية ولا الأخلاق ولا أعمال الخير ولا الحركة الدعوية، ولكنه الشرط الأساسي لصوابها ورشدها، فمهمة الفكر رسم مخطط الحركة وجعلها اقتصادية، بحيث تتكافأ نتائجها مع الجهد والوقت المبذول فيها، كما أنه يحيّد كل الوسائل والأساليب التي ثبت قصورها ويكثِّف الخبرات والتجارب المكتسبة في بعض المقولات والمحكّات النهائية، ويساعد على طرح البدائل والخيارات في كل حقل من حقول العمل. وهذا كله لا يتأتى عن غير طريق الفكر. ويمكننا إلى جانب هذا أن نستجلي مسوغات أخرى للاهتمام بالفكر في المفردات التالية:

١ ـ إن الحضارة الغربية ذات منظومات متكاملة في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولها تصورها الخاص في جميع شئون الحياة، وهي (الآخر) بالنسبة لنا، وملاحظاتنا على أنساقها المختلفة ستظل

محدودة الأهمية ما لم نبلور البديل الأصلح والأنفع والأكمل في تلك المجالات كافة من منظورنا الخاص المستقى من المنهج الرباني القويم. وتلك الحضارة تمثل محنة حقيقية لنا[1]، ولا سيما أنها الأجهر صوتاً والأكثر عتاداً وعدة. وإذا كنا نملك قوة الحق فإنهم يمتلكون حق القوة، ويطالبون بدفع استحقاقاتها. . . وبإمكاننا أن نكون محنة وتحدياً حقيقياً لهم في حالة واحدة، هي أن نستطيع تقديم رؤيتنا الكونية بشكل واضح، وأن نطرح بعض الحلول الجذرية المتميزة لبعض الاختناقات الحضارية التي يعاني منها بنو البشر اليوم. وهذا لا يتم إلا من خلال فيض من الخطط والدراسات والنماذج المتقَنة؛ وهذا كله سبيله الرؤية الفكرية الناضجة والشاملة.

٢ ـ من الممكن لكل الأنشطة الحضارية أن تمضي في سبيلها إلى حد معيَّن فالاقتصاد في أسرة والنشاط الزراعي في حقل ومساعدة ضعيف في مجتمع، كل ذلك من الأنشطة التي يتيسّر القيام بها دون الحاجة إلى عناء التفكير، لكن عندما يصل الأمر إلى تنشيط اقتصاد دولة أو التخطيط لمجتمع كبير أو حل أزمات حركة أو جماعة في ظروف حاسمة، فإن التفكير المركَّز والمعقد يكون هو الآلية التي ينبغي استخدامها.

وإني أعتقد أن معاناة الأمة من بعض المشكلات لمدد تصل إلى قرون كانت بسبب إهمالها للفكر والنقد والمتابعة والمراجعة باعتبارها مبادئ أساسية في التغيير والإصلاح والارتقاء.

إن من المؤسف حقاً أن بعض الإسلاميين ينعت الحديث عن الفكر بالحديث البارد؛ حتى إذا طرحت مشكلة وطلبت حلاً لها لم تجد إلا الوجوم أو الهروب!!.

٣ ـ إن العالم الإسلامي لا يعاني من نقص في الإمكانات ولا الوسائل فما هو متوفر لديه إن لم يكن أكثر مما عند كثيرين لم يكن أقل لكن مشكلته

(١) ما تصادمت حضارتان إلا كانت كل منهما محنة للأخرى.

تكمن في أن فاعلية وسائله ونجاعتها مرتكزة على الأساليب والطرق التي تستخدم تلك الوسائل؛ والأساليب تظل محدودة الكفاءة ما لم تستند إلى قاعدة فكرية صحيحة، ترسم خطة واضحة للعلاج والاستطباب من خلال تشخيص الداء وتعيين الأسلوب الأمثل ومقدار التداخل الجراحي المطلوب إلى جانب تحديد أولويات العلاج وتكاليفه وإفرازاته. وفي هذا المقام نجد أن الأراضي التي تكفي لإشباع قارة لا تشبع بلداً، وأن الطاقة البشرية الهائلة صارت عبئاً بدل أن تكون ميزة تماماً كجيش ضخم لم يلق التدريب، ولم يجد السلاح، ولا الخطة القتالية الناجعة فهو أكوام من الكتل البشرية المستهدَفة للعدو!.

إن قليلاً من الإمكانات والوسائل مع كثير من الفكر والتخطيط والفاعلية التنظيمية والحركية أعود على الأمة بالخير والنفع من أكداس الأشياء الضائعة والمهملة.

٤ ـ عصرنا هذا هو عصر الاكتشاف، وقد اكتشف الإنسان من الحتميات والسنن ما لم يكتشفه في أي زمن من الأزمنة ولكنه إلى جانب ذلك اكتشف من الفرص والخيارات الشيء الكثير، وإن كثيراً مما كان يُفرض فرضاً صار اليوم موضع خيار. وإن وجود حتميات وضغوط وخيارات كثيرة يُلزمنا باللجوء إلى التفكير الفعّال؛ حتى لا نصل إلى طرق مسدودة، وحتى لا نضيِّع فرصاً متاحة، إذ إن كل فرصة بحاجة إلى قرار. وصاحب ذلك ضعفُ وضمورُ ما كان يُستَخدم في الأصل بديلاً عن التفكير مثل العادات والتقاليد والمذاهب التي توفر في العادة استخدام العقل[1].

٥ ـ الاستقرار النسبي كان سيد الموقف في العصور الماضية، وبما أن الأشياء لا تتغير كثيراً فإن التكرار كان البديل الصالح عن التفكير، كما أن قلة قليلة من الصفوة كانت تملك اتخاذ القرارات، وكانت تقوم بالتفكير عن الباقين. وكان صنع القرارات الشخصية ميسوراً ومحدوداً لكن المجتمع اليوم

---

(١) انظر تعليم التفكير: ٢٨.

لا ينعم بالاستقرار بسبب معدل التغير الذي تغذيه (التكنولوجيا) والطموحات الاجتماعية[1]. مما يعني أن استخدام التفكير سيكون أكثر من قبل بكثير.

٦ ـ حينما تصاب أمة بدمار شديد أو زلزال ماحق فإنه يبقى لها بعد انهيار بنيانها شيئان: مبادئها السامية الكامنة في شخصيتها الاجتماعية، وأفكارها وخبراتها التاريخية والحضارية، وهي تستطيع من خلالهما استعادة كل ما فقدته عندما تتوفر إرادة تجاوز المحنة؛ فقد دمرت الحرب كل شيء في ألمانيا، ولم يبق لديها إلا مخزون الأفكار وعزيمة الانتصار، فتمكنت من إعادة بناء مصانعها على ضوء الشموع بعد اندحار الهتلرية[2]. وهكذا فإن أمة كأمتنا تستطيع بتوفيق الله أن تنجز الكثير، وتستعيد الكثير إذا ما استطاعت صياغة أفكارها من جديد، وتلمسَ سبلِ النجاة والفلاح.

وهكذا نستطيع القول بعد كل ما مضى: إن توسيع آفاق الفكر لدى المسلم سوف يؤدي إلى توسيع مجاله الحيوي، ويقلل من ضرورات حركته.



(١) السابق: ٢٨.

(٢) مشكلة الثقافة: ٦١.

(٢) شيء من قوانين الفكر

لا نقصد من وراء الحديث عن فكر الداعية شرح شيء من متن الفكر الإسلامي ولا هوامشه وحواشيه؛ إذ إن الساحة تعج بالكتب والرسائل التي تتحدث عن شتى القضايا والمسائل المتصلة بالفكر الإسلامي، وفيها خير كثير وعميم، لكننا نريد هنا أن نعرض إلى بعض المداخل والمحكات الفكرية ذات الأثر البيِّن في حركة الداعية وجهوده الإصلاحية.

ولا نقصد بالقوانين هنا الحتميات التي تمليها آلية التفكير لدينا، وإنما النتائج والمقولات العامة التي جنتها الإنسانية من وراء المعطيات التاريخية والحضارية والثقافية والعلمية. وإني لأرجو أن أكشف عن جديد ـ ولو بالنسبة لبعض القراء ـ، أو أن أشرح غامضاً، أو أن أجمع شتات متفرق، وذلك في المرتكزات التالية:

١ ـ المحن الكبرى تفرِّق ولا تجمع:

يرى كثير من الخيرين أن من شأن المصائب التي تحل بالمسلمين أن توحد صفوفهم، والصحيح أن المحن تجمع الناس في أوائلها، فإذا طال أمدها أدت إلى الفرقة، وصار كل واحد من أبناء الأمة يقول: اللهم نفسي نفسي.

وحين نُسف هيكل اليهود عام ٥٧٨م كثرت الخلافات المذهبية وكثرت المدارس وتشعب الجدل. وحين منيت بعض الجماعات الإسلامية بهزيمة كبرى ساد بينها التلاوم وتحولت إلى جماعات تتبع اجتهادات مختلفة.

٢ ـ كثير منا يذكر الماضي بصورة جيدة لكنه يمر على دروسه بسرعة غريبة:

لا يخفى أن علاقتنا بالماضي هي علاقة حفظ وتذكر، لا علاقة اعتبار

وتدبر؛ فالفتن والملاحم التي ميزت تاريخنا السياسي لم تنل منا ما تستحقه من التحليل والتأمل، وكنا نردها باستمرار إلى اتباع الهوى أو قلة التقوى أو دسائس الأعداء أو حدوث فتنة، وهكذا اختصرنا أحداثاً عظاماً في كلمات قليلة. وربما تملكتنا الدهشة من حصول ذلك في خير أمة أخرجت للناس، فصرنا إلى القول: إن ما ذكر من ذلك القبيل ليس بصحيح، وبذا نكون كمن لا ماضي له ولا تاريخ!!. ولعل ذلك يعود إلى أن من ضرائب التخلف فقد الحسّ والحدس التاريخي.

٣ ـ ليس في هذه الدنيا نصر نهائي، وسيظل فهم متطلبات الحركة الاجتماعية أمراً ملحاً:

إن النجاح في أية معركة أياً كان نوعها يضعنا في مواجهة مع معركة جديدة، قد تختلف في متطلباتها لكنها على أي حال تستدعي جهداً جديداً. وهكذا فإن دخول الإسلام في معترك الحياة وتوجيهه لأنشطتها المختلفة لا يعني نهاية المعركة، بل يعني بدايتها بداية جديدة متميزة[1] تستوجب ابتلاءات جديدة وتتطلب استجابات جديدة؛ وهكذا فلا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه. إن الحركة الاجتماعية عبارة عن حركة ترددية بين قيم المجتمع ومصالحه، وهذه الحركة تتطلب نوعاً من الرعاية والتوجيه والطرح والاستجابة بصورة دائمة ممن يجاهدون لبقاء المجتمع ضمن الإطار الشرعي والتوجيه الرباني.

٤ ـ الهُويَّة اكتشاف دائم:

ليست الهوية شيئاً يُستخرج من بطون الكتب، ولكنها عبارة عن اكتشاف دائم تنتجه الفاعلية الحضارية للأمة في كل زمان ومكان. واكتشاف السلف للهُويَّة الإسلامية مسطور في كتب التراث لكنه لم يدرأ عنا الاختلاف والشجار حول الحدود الثقافية لذاتيتنا؛ وذلك بسبب قدرة أذهاننا على تأويل بعض جوانب الهُويَّة والحذف منها والإضافة إليها. وحركة الفكر المشفوعة بحركة

---

(١) الوعي الذاتي: ٨٢.

اليد مما يبلور متن الهُويَّة، وينفي عنه الزوائد والملحقات. إن الصراع بين الحضارات من العوامل الأساسية المساعدة على كشف الهوية. وقد كان يظن أن الانغلاق يؤدي إلى المحافظة عليها، ثم أفادتنا الخبرة أن الانفتاح الواعي والمتكافئ على الثقافات الأخرى هو الذي يحافظ على الهوية من خلال حركة التبادل وقبول التحدي ومواجهته.

٥ ـ ليس من السهل تحديد تأثير العقائد في الأحداث، ولكن تأثير الأحداث في العقائد والأفكار يبدو ضخماً[١]:

إن الحدث قد يكون بدافع مبدأ أو معتقد، كما أنه قد يكون بدافع حقد أو انتقام أو منفعة، ومن ثم لا يصح عزو الأحداث إلى العقائد دائماً. لكن الذي لا شك فيه أن الأحداث حين تتوالى على وتيرة واحدة فإنها تؤثر في العقائد والأفكار؛ فالنجاح على أي صعيد يعزز من ثقة الأمة بمنطلقاتها الفكرية وأصولها النظرية، كما أن الانحطاط والتخلف يعود على تلك الأصول بأعظم الضرر، وهذا أحد الأسباب التي أدت إلى الشقاق بين الصفوة عندنا في هذه الأيام. وقد عبر بعض السلف عن هذا المعنى تعبيراً دقيقاً حين قال: «المعاصي بريد الكفر».

٦ ـ البحث عن مدى (عصرية) إنجازاتنا باستمرار خطأ فادح:

ليس كل ما في عصرنا خيراً ولا صواباً، وتناسخ الأفكار والمقاييس المتسارع يؤكد هذه الحقيقة؛ ومن ثم فإننا في قضايا كثيرة لا نلتفت إلى المعاصرة ومسايرة معطيات عصرنا؛ فالإسلام ليس موجة في (موضة) ولا شيئاً من هذا القبيل وإنه لقادر على الانتظار والانتصار[٢]. وهذا هو شأن المبادئ العليا تتأبى على التبعية والانصهار مهما ساءت الظروف. ونحن إذ نطوِّر وننمِّي نتحاكم إلى مبادئنا أولاً، وإلى مصالحنا ثانياً، ومحاولة إضفاء

---

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣٠١.

(٢) الإسلام كبديل: ٢٠٧.

المعاصرة على كل ما لدينا من منطلقات ذو ضرر بالغ ـ في المدى القريب والبعيد ـ على استحقاقنا الريادة، وعلى صفاء منظوماتنا وبنانا العميقة.

٧ ـ ثمة فرق بين طبيعة الأشياء ومنطقها:

إن السنن التي بثها الله ـ جلَّ وعلا ـ في الكون عبارة عن حدود وأنظمة تعطي الأشياء طبيعتها؛ ولا حيلة لنا في تغيير طبائع الأشياء؛ فطبيعة المجتمعات قائمة على (التبادل)، ولا مجتمع بدون تبادل، ومن طبيعة الدولة الحاجة إلى الشرعية والإنجاز إلى جانب القسر والإكراه، ولن توجد دولة يرضى الجميع عن جميع سياساتها، كما أن شرعية الدولة لا تغنيها عن إنجازاتها وهكذا... وطبيعة المال البحث عن النمو، كما أن طبيعة التجارة اقتحام النظم الثقافية كافة. أما منطق الأشياء فهو القوانين التي تحكم تطور الأشياء والنظم والحضارات، وهذه القوانين يمكن إيقافها أو تأجيل عملها إلى أمد معين ولكن بتكاليف باهظة؛ فالظلم يعطي قوة في البداية للظالم لكن منطقه يقود إلى الخراب والانهيار في النهاية. والجسم الفاره يتحمل الأمراض إلى أجل لكنه ينهار في آخر الأمر. والنظم تسير نحو التعقيد كلما تراكمت الخبرة. وسوء التدبير يؤدي إلى الإفلاس ولو بعد حين، وهكذا...

إن المقصود من تحديد طبيعة الأشياء ومعرفة منطق الأشياء هو الاقتصاد في استخدام الجهد الإصلاحي وتحديد مجالات الإرادة الحرَّة والبعد عن التَّكلُّف والاعتساف، ومحاولة ولوج البيوت من أبوابها.

٨ ـ استيعاب التراث شرط لاستيعاب العصر:

تولي الآخرين لقيادة العصر أوقع المعزولين عنها في محنة مع ماضيهم؛ فمنهم من رأى الاندماج في الحضارة، ومنهم من ذهب إلى التلفيق.. وكل ذلك لا يؤدي إلى فهم العصر، كما لا يؤهِّل للمشاركة في صناعته؛ والطريق الأقوم والأقصر لذلك هو استيعاب التراث بصورة (لا انتقائية) وإعمال المنهج الرباني ومتطلباته في الصور الذهنية التي نكوِّنها عنه، ثم الخلوص إلى حصر معطياته العامة نجودها ووهادها، جيِّدها ورديئها، وتكوين مرجعية حضارية

خاصة، قوامُها هديُ الإسلام، ووشيُها الخبرة الحضارية والتاريخية، ثم يتم التعامل مع هذا العصر من منظورها بثقة وانفتاح وفاعلية.

٩ ـ مثالية المؤرخين شوَّشت رؤيتنا لتراثنا:

درج كثير من المؤرخين على الإطناب في المناقب والمحاسن عند التراجم والحديث عن الدول والممالك، فأعطوا الانطباع لمن جاء بعدهم بأن السابقين كانوا جميعاً من السابقين بالخيرات، وليس فيهم مقتصد ولا ظالم لنفسه، وكانت عاقبة ذلك احتقار الخالفين لأنفسهم، وتصورهم أن أحوال السلف كانت استثناء في الخير والفضل، فحصل بذلك نوع من الشعور الباطني (غير المنظم) باستحالة تكرار تجربتنا الحضارية الفذة، فأساءوا إلى الأمة ودينها من حيث أرادوا الإحسان! ولو أنهم اتبعوا منهج المحدِّثين في الجرح والتعديل لكانوا أقرب إلى الإنصاف، ولساعدونا على فهم التداعيات المنطقية والسننية والتاريخية التي هبطت بالأمة من القمة إلى القاع.

١٠ ـ حين يصطدم فريقان يستخدم كل منهما أقصى ما لديه من قوة[١]:

هذه حقيقة أبدية، فالحرص على البقاء والنجاح وحماية المصالح يدفع كل واحد من المتخاصمين إلى أن يستخدم كل ما في حوزته من إمكانات وأسلحة، وأن يخرج كل ما في جعبته من ألوان التآمر والخديعة والاحتيال، كما أنه عند تهديد الوجود تتضاءل أو تنعدم مساحة المحرمات! هذا هو منطق الصدام في هذا العصر وكل عصر. وإذا علمنا هذا أدركنا أن اتهام الآخرين بالتآمر علينا أمر لا معنى له، وغير مفهوم.

وإذا كان انهيار الحضارات عبارة عن خراب داخلي فإن من الصحيح أيضاً أن الأمم الرشيدة تواجه التحديات الخارجية بالانكفاء نحو الداخل لحل مشكلاته وحقنه بالمناعة وأسباب القوة التي تمكنه من الصمود في وجه الخارج بكفاءة وفاعلية. إن التحديات الداخلية هي مشاكل الكبار، وإن

---

(١) المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل: ١٤.

الانكفاء نحو استثمار رأس المال الداخلي هو أيضاً حيلة الكبار!

١١ ـ لا تنبثق الإنسانية إلا من خلال الفعل الواعي:

كثير من جوانب الإنسانية لا يورث وراثة لكنه يُكتسب اكتساباً فالإنسان يكون عند مولده ناقص النضج، فلا تكشف إمكاناته ـ حتى وإن كانت مبرمجة على مستوى الجينات ـ إلا في بيئة ثقافية ومادية ملائمة ومقابل جهد متواصل. الإنسان من خلال اكتسابه الوعي يمتلك القدرة على تجاوز الدوافع الغريزية، ويستطيع أن يتجاوز من خلال نشاط العقل والفكر جمود الحتميات الجينية التي تحصر التصرفات المبرمجة في حدود ضيقة.

أما الحيوان فإنه ـ على مستويات متفاوتة ـ يظل يعيش ضمن مساحات (المثير ـ الاستجابة) فهو عبد لغرائزه، وغير قادر على القيام بنشاط يتجاوز تلك الغرائز. وقد أجرى بعض العلماء تجربة على أحد الضفادع حين وجدوا بعض الضفادع تتغذى بدودة حمراء، حيث لاحظوا النشوة التي يُحدثها منظر هذه الفريسة لدى الضفدع، فعمدوا إلى زجاج مسحوق مطلي باللون الأحمر، وأضافوا إليه طعماً مصطنعاً، وقدموه للحيوان المسكين، وانطلت الخدعة عليه، فانكب على التهام الزجاج؛ حتى دمي فمه، ولكنه استمر بإصرار غير قادر على الربط بين الألم ومصدره[١].

الإنسان لا يقع في هذا لكنه على مستوى الأعمال الحضارية الكبيرة يسلك السلوك نفسه حيث تشاهد الأمم مجتمعاتها تذوب بين يديها، ومشكلاتها تتفاقم، وهي عاجزة عن الربط بين الانهيار وأسبابه! لكن الإنسان المسلم قادر على تلافي ذلك إذا ما اعتصم بالمنهج، ووعى تجارب الحياة بحنكة ومهارة.

١٢ ـ في حالات التخلف تشتد النزعة إلى التماثل:

في حالات التقدم والإقبال يكون إدراك الناس لحدود ذاتيتهم الحضارية

---

(١) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة: ٣٠٤، ٣٠٥.

أفضل، ويكون الشعور بالمسئولية أعظم، وهذا وذاك يؤديان إلى الثقة بالنفس واستخدام الحرية المتاحة استخداماً مسؤولاً؛ وهذا ما نجده واضحاً في القرون الثلاثة الأولى حيث كان هناك مذاهب فقهية كثيرة ضمن إطار أهل السنة والجماعة، ولم يكن الناس يشعرون بأنها تشكل خطراً على التدين. وحين دخلت الأمة في نفق الجمود، ثم التراجع ساد خوف كبير من المجيء بقول جديد، وشعر الناس أن ما لديهم من الفقه كاف؛ مما أدى إلى انغلاق باب الاجتهاد - الذي لم يغلق بقرار ولا فتوى - واعتبار التجديد خروجاً على الألفة والجماعة وذريعة لتمييع أحكام الدين. ولا بد من القول إن التَّدهور يولِّد نوعاً من الانقسام في الوعي؛ مما يؤدي إلى تجديد غير منضبط واستخدام للحرية غير مسؤول. لكن دواء ذلك لا يكون أبداً في الخوف من كل جديد. إن الثراء لا يأتي في الفكر والطبيعة والثقافة من وراء التطابق، ولكن من خلال التنوع.

١٣ - لا يُحلُّ الإشكال بين العقل والنقل إلا من خلال الغلبة الحضارية:

لم يكن الناس يشعرون بأية مشكلة بين حكم العقل ومعطيات النص، حين كانت الإنجازات الحضارية متوالية، وكان الفارق بين الواقع والمثال محدوداً، وحين دخلت الأمة في أزمنة الركود والتأزم صارت في محنة متطاولة، ومن شأن المحن أن تسلط الوعي على المنظومات الثقافية والعقدية والفكرية المختلفة، وحين يتسلط الوعي على شيء فإنه ينظمه، ويرسم حدوده وأبعاده، وليس مستغرباً آنذاك أن ينتهي كثير من الناس إلى وجود مفارقات وتقاطعات بين مكونات ذواتهم ومناهجهم. ولا يوجد - في نظري - حل حاسم لهذه المشكلة إلا من خلال تحقيق شيء من الغلبة والتميز الحضاري؛ فهناك أمم كثيرة لا تعرف شيئاً عن هويتها ولا عن ذاتيتها، لكنها لم تدخل - إلى الآن - في أزمة (العلاقة بالتراث) بسبب الناتج الحضاري والشعور بالغلبة والتأنق. وحين تحدث الغلبة سيشعر الناس أن اندماجاً حقيقياً بين النقل والعقل صار حقيقة واقعة، بل إنهم لن يشعروا أن هناك عقلاً ونقلاً.

١٤ ـ من الشعور بالمسؤولية تُولَد الشخصية:

بإمكان الطاقات والخصائص الفذة أن تظل كامنة في الفرد حتى الممات دون أن تكتشف، وسبب عدم اكتشافها هو أنه لم تتح الفرصة لبروزها، وكثير من الآباء يتعامل مع ولده الشاب على أنه طفل، ويظل طفلاً بالفعل بالنسبة لأمور كثيرة. ومن ثم فإن الواجب أن نمنح حرية الحركة لمن تحت أيدينا، وأن ندربهم على تحمل المسؤوليات والمهمات مع ممارسة الرقابة ـ عن بعد ـ عليهم، ولا ريب أن هناك أفراداً وجماعات وشعوباً ليست أهلاً لتحمل المسؤوليات الخطيرة لكن ذلك ليس بسبب عيب خَلْقي ولا تشوه جنيني، ولكنه بسبب قصور اجتماعي وثقافي، وبسبب الضغوط الرهيبة التي تقتل الإبداع، وتبعث على السكون وإيثار السلامة حتى فيما لا خطر فيه أصلاً. والنتيجة هي وجود أنواع من التسيب والأخطاء الفادحة التي عليك أن تبحث عن المسؤول عنها، وقد صحت فينا المقولة السيارة: «مشاكلنا صنعها الجيل السابق وسوف يحلها الجيل اللاحق»!! أما نحن ففي مقاعد النظارة والمتفرجين!. إن من مصلحتنا أن نحمِّل المسؤوليات، ونسأل عن التبعات؛ فذاك هو البديل عن الهزال الشديد الذي طبعت به شخصية المسلم هذه الأيام.

١٥ ـ الرؤية تتشوَّه عند عزل الحالة الراهنة عن مساقها:

ماذا يستفيد من يجلس في غرفة لا يعرف في أي حي هي، ولا في أية مدينة، ولا في أية قارة؟ إن الشعور الذي سيسيطر عليه حينئذ هو شعور الضياع والخوف والكلالة والانحسار.. وكيف يرى جمال بساط مَنْ وضع أنفه عليه كما يفعل الطوبين؟ وكيف يرى مسار نهر من ينظر إليه عند مستواه؟ إن الذي يركب طائرة يتسع مجال رؤيته لأجزاء ومنحنيات عديدة من النهر، لكن رائد الفضاء يرى النهر من منبعه إلى مصبه في البحر[1].

إن الذين ينظرون منا إلى حالتنا الحاضرة دون الرجوع إلى الوراء،

---

(١) عودة الوفاق: ٢٣٣.

ودون البحث في الجذور ودون التخيل بأن هذه الحالة وليدة حالات سابقة وستلد حالات لاحقة. إن هؤلاء لا يصلحون لتشخيص أي معضلة فضلاً عن المساهمة في حلها! والقرآن الكريم أراد أن يوسع لدينا مجال النظر حتى لا تتشوه الرؤية، فأمرنا بالعودة إلى الوراء حين قال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[١].

إن فهم الماضي شرط لفهم الحاضر وتوقع المستقبل؛ وفهم الماضي لا يتم وفق معادلات رياضية، ولا مقدمات ونتائج منطقية ولكنه يحتاج قبل هذا أو ذاك إلى الشفافية، وقبل ذلك إلى الخيال. وقد كان نابليون يقول: «إن عيب مؤسساتنا خلوها من أي شيء يتوجه إلى الخيال. ولا يمكن حكم الإنسان إلا بالخيال. لولا الخيال لكان الإنسان بهيمة»[٢]!.

١٦ ـ الأوضاع الرديئة تكوّن عقيدة اجتماعية بعيدة عن الصحة والصفاء:

وظيفة العقائد تتعدى تكوين المجال النظري للإنسان إلى بناء الواقع المعاش على هديها ووفق متطلباتها. لكن العقائد لا تعمل في فراغ، وإنما في ظروف وأوضاع مواتية أو معاكسة. والناس في حركتهم اليومية، ومن خلال خبرتهم الحياتية يقيمون موازنات دائمة بين مبادئهم وعقائدهم وبين مصالحهم، وينتج عن هذه الموازنات شيء نسميه (العقيدة الاجتماعية) والعقيدة الاجتماعية أقرب إلى أن تكون انعكاساً للواقع العملي من أن تكون أفقاً نظرياً.

العقيدة الإسلامية تحرم الكذب لكن حين يكون المجتمع مريضاً، ويكون الصدق فيه مجلبة للأذى، وحين يكون الحصول على الضرورات المعيشية لا يتأتى إلا عن طريق الرشوة أو اللصوصية والنهب، فإن الحسَّ الاجتماعي يضعف تجاه هذه المحرمات، بل إن الأم تنهى ابنها عن صدق يسبب له الأذى، وتوصيه أن يكون [شاطراً وكَذَعاً]، أي متخففاً من القيود الأخلاقية التي تحول دون الحصول على المنافع!

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

(٢) تاريخ الفكر السياسي: ٣٦٧.

هذا كله يعني أن مدى تقارب أو تطابق العقيدة الاجتماعية مع القيم والمثل العليا يعد مقياساً دقيقاً لصحة المجتمع وصلاحه، ونجاعة الجهود الإصلاحية المبذولة فيه، كما أنه مقياسٌ لحيوية العقيدة والمثل العليا ومقدرتها على صياغة السلوك الاجتماعي.

١٧ ـ التخلف يضعنا ضمن معادلة: [الاندماج أو التحلل الذاتي]:

في ظل التواصل العالمي الذي وفرته ثورة الاتصال توفرت خيارات كثيرة للحركة ولا ريب، لكنْ حددت مسارات عامة صارمة لتلك الحركة. وصارت الشعوب والدول والمجتمعات المستهلكة للحضارة والتي تعيش على هامش العصر بين متحارجتين، هما الاندماج أو التهميش ثم التحلل الذاتي. والحقيقة أنه لا يعادل السوء الذي يأتي به التحلل والتهميش سوى السوء الذي يفرزه الاندماج في ثقافة أجنبية مغايرة. وقد يظن البعض أن اندماج ثقافة في ثقافة أخرى هو سبب الانهيار، لكن الصحيح أن الاندماج هو نتيجة الانهيار، وبإمكان أمة عالة في الإنتاج المادي، والأدبي على غيرها أن تمتنع على الاندماج لكنها ستدفع الثمن باهظاً، وهو آنذاك العيش خارج العصر وانقسام الوعي واهتراء أبنيتها الثقافية والاجتماعية!! وأمة ذات ثقافة كبرى متميزة كأمة الإسلام بإمكانها أن تكسر هذه المعادلة من خلال الكفاح والمشاركة في إنتاج قيم العصر وآلياته وفق نماذجها الخاصة ورؤيتها الكونية الشاملة بشرط أن تعرف قدر ما حباها الله إياه، وأن ترفع شعار العمل الدائب.

١٨ ـ دراسة تاريخ الأمة على أنه كتل ممزقة ضرر كبير:

تأثر كثير من كتابنا ومثقفينا بـ(المنهج التفكيكي) في دراسة تاريخ الإسلام وهذا المنهج ـ بطبعه ـ يعطي الفرصة للانتقاء وتسليط الضوء على حادثة دون غيرها، كما يعطي الفرصة لقطع الحوادث عن ظروفها ومساقاتها الخاصة؛ مما مكَّن الكثيرين من جعل التراث تكأة لتسويغ مذاهبهم الخاصة. ولم يكتفوا بالبتر والعزل لكنهم بعد قراءة ناقصة لسير الأحداث عمموا النتائج التي حصلوا عليها على ما يرغبون من جوانب التراث وقضاياه، فكانت

النتيجة اللعب بالتراث وتوظيفه لمآرب خاصة! والثمرة النهائية التي جنتها الأمة لم تكن معرفة الماضي، ولكن سيادة روح العدمية والتشاؤم والإحباط وكان المفروض أن تدرس الحوادث ضمن سياقاتها وظروفها، وعند تقويم مرحلة يتم عرض الجوانب الموجودة فيها على الصعد السياسية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ.

وقام فريق من حسني النية بالعمل نفسه، فانتزعوا بعض الصور المشرقة من ذلك الماضي، ثم عرضوها على أنها نماذج لعصور مزدهرة، وكانت النتيجة لعمل الفريقين انقساماً في الوعي وبلبلة في الفكر وتباعداً بين قطبي التنافي!

١٩ ـ صار المهم اليوم كيفية حدوث الأشياء، وليس أسباب حدوثها:

خطا الفكر البشري خطوات فساحاً على طريق التعامل مع الطبيعة والماهيات، ومن جملة ما خطاه في قضايا عديدة هو تجاوز السؤال عن الأسباب إلى التساؤل عن الكيفيات التي توصل إلى ولادة حدث ما؛ إذ لم يعد مهماً التساؤل عن الأسباب الداعية لأن يكون الناس أحراراً أو محفوظي الكرامة أو بعيدين عن الأخطار.. لكن السؤال الآن كيف يمكن إخراج إنسان من العبودية والإحساس بالمهانة إلى الكرامة والحرية...

وهذه الخطوة يجب أن نخطوها على طريق التمكين لهذا الدين في الأرض؛ حتى نصل إلى المحك النهائي، ونبدأ العمل الجاد؛ وذلك بالقول: كيف يصبح الإسلام عقيدة لأهل القرن الحادي والعشرين أو أكثرهم، وكيف يمكن تلافي انقسام مجتمعاتنا على أنفسها، وكيف يمكن تأمين حركة تبادل اجتماعي نشط دون حدوث تسيب أو فوضى، وكيف وكيف...؟؟

وإنه لمن المؤسف أن كثيراً من الدعاة وأهل الخير ما زالوا بعيدين عن ملامسة هذه الآفاق والشعور بأهميتها بسبب فقر الخيال أو العيش خارج الزمان!.

٢٠ ـ الإجمال في موضع التفصيل مضلل:

للإجمال مواضعه التي لا يحسن فيها غيره، كما أن للتفصيل مواضعه التي يكون الإجمال فيها مضللاً، وقد صرنا اليوم نرى ـ أكثر من أي وقت مضى ـ من يستخدم الإجمال من أجل ذر الرماد في العيون وتشويش الرؤية وتسويغ ألوان القصور...

فإذا قيل عندنا بطالة قال قائل: وعند الغرب بطالة. وإذا قيل عندنا فقر قيل في ضواحي (نيويورك) فقراء، فلماذا العجب؟ وهكذا...

ويجب أن نعلم أن هذه المقارنة لا معنى لها إذ لا يخلو مجتمع من فقراء أو فوضويين أو مجرمين أو عملاء.. لكن المهم هو التعاريف والنسب؛ فالعاطل عن العمل في عالمنا الإسلامي يستدين أو يتسوَّل أو يسرق، وفي أمريكا يتقاضى قرابة (٢٠٠٠) دولار في الشهر؛ أي أفضل من الدخل السنوي لعشرة مواطنين في دولة أفريقية! والفقير في بعض المجتمعات الغربية هو الذي لا يستطيع شراء سيارة للنزهات! وعندنا الفقير هو الذي لا يجد حذاءً ينتعله، أو رغيفاً يسد رمقه!

وهكذا... ومن ثم فقبل الحديث عن أيِّ شيء من هذا القبيل يجب تحديد المصطلحات، ثم بيان النسب، وإلا فالسكوت أولى.

٢١ ـ قليل من الناس يملك الشجاعة على مراجعة أفكاره:

إن النقد ملكة راقية جداً، والتقليد ملكة شائعة جداً، ولذلك نرى جمهور الناس يقبلون المبادئ كما تأتيهم على علاتها بمحض شيوعها، أو عن طريق التربية. ومن هنا اشتراك السواد الأعظم من كل أمة وفي كل زمن في حد وسط من التصورات والمعقولات؛ فأشبه بعضهم بعضاً شبهاً قوياً كشبه الماء بالماء[١].

ونقد الآخرين يظل أسهل من نقد النفس؛ لأن الإنسان حين ينقد نفسه

---

(١) سر تطور الأمم: ١٢٣.

يقوم بدور الحجر والنحّات في آن واحد! ولقلة ممارسة النقد والمراجعة لدينا فإن قليلاً من الأفكار لدينا يصمد إذا تناوله أي نقد سطحي. والغريب أن لدينا بعض المؤسسات والجماعات لا ترضى عن أي عمل أو فكر، وهي طول عمرها تنتقل من إخفاق إلى إخفاق دون أن يكون ذلك حافزاً لها نحو أية وقفة تأمل! إنها تملك مناعة خاصة ضد آلام التجربة!.

٢٢ ـ العمل الدعويُّ أنظمة مفتوحة، ومن ثم يصعب تقدير نتائجه:

تتفاعل مكونات الأنظمة المغلقة معزولةً عن البيئة المحيطة بها، على نحو ما تتفاعل عناصر كيميائية داخل قارورة. أما الأنظمة المفتوحة فهي مرتبطة بكثير من التحولات والتغيرات المستمرة التي تحدث في البيئات التي حولها[١].

وبما أن سيرورة البيئات خاضعة لمنطق غير المنطق الذي تتبعه الأنظمة المختلفة فإن النتائج التي ستحدث من وراء تطبيق الأنظمة المفتوحة تظل غائمة وظنيّة.

وبما أن البرامج الدعوية تستهدف تغيير البيئة المحيطة فإن النتائج المتوخاة منها متوقفة على استجابة البيئة والأوضاع التي تحكمها. ومن هنا فإن العجب لا ينقضي من بعض الجماعات التي وقَّتت (لنصرها النهائي!) ثلاث عشرة سنة، هي مدة المرحلة المكية! ولما انقضت العدة، ولم يتحقق لها ما تريد كررت العدة مرتين وثلاثاً، وما زالت... إن الموقف الصحيح في هذا الموضوع يكمن في تحديد أهداف بعيدة المدى وأخرى مرحلية في إطار رؤية شاملة، ثم مراجعة كل ذلك وفق منهجية محددة.

٢٣ ـ إن المهم هو التفوق على الذات:

بإمكان أكثر الناس عجزاً وأقلهم حيلة أن يجد من هو أضعف منه ليتغلب عليه ويقهره؛ لكن المهم دائماً هو التفوق على الذات، والشعور

(١) الاتصال والسلوك الإنساني: ١٢.

بالتحسن الدائم والارتقاء المطرد. . . ولا شيء يحول دون ذلك كالنرجسية والإعجاب بالنفس ونزع إنجازاتنا من طبيعتها الزمنية لنجعلها عملاً نهائياً؛ فنُقصي بذلك عنها بعدها الإنساني الحي والمرحلي، وندخلها في نفق الجمود ثم الاضمحلال. إن قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] حث خفي لنا بدوام الاستزادة من العلم والشعور بالنقص، وأننا لم نصل إلى النهاية وأن الأفق أمامنا ما زال ممتداً.

٢٤ ـ فقد الإطار المرجعي أربك العقل:

عندما أعلنت الحضارة الحديثة اتخاذ العلم ديناً، واستبدلت بملكوت السمٰوات ملكوت المعرفة والفكر والإبداع شعر الإنسان أنه فقد مركزه في الكون، وعاد أشبه بباقي أنواع الحيوان دون إيمان يهديه في عالم يسمو على مداركه، وصار البائس المسكين يدور حول نفسه في يأس، ويحبس الفكر في فقاعة، لا يجد سبيلاً إلى الفرار منها، الأمر الذي يذكرنا بالزنبور يتخبط بلا هدف على زجاج نافذة مغلقة[2].

في هذا الوقت بالذات يسعى أناس من بني جلدتنا إلى إطفاء الشعلة التي يبحث عنها العالم الضائع بتشويه الأصول وبذر الشكوك وخنق الورود المتفتحة والتعلق بأذيال التائهين كفراً بأنعم الله. . . ولسوف يدركون يوماً أنهم قاموا بأعظم جريمة في تاريخ البشرية حين منعوا شلالات الهداية من الوصول إلى مصابها الطبيعية!

٢٥ ـ يجب بث روح التفاؤل باستمرار:

إن الشعور بالإحباط وانسداد الآفاق لا يحتاج إلى تحريض ولا تنشيط؛ فهو يجتاح النفس البشرية بصورة آلية نتيجة سوء الأحوال والانكسارات اليومية التي تصادف المسلم هذه الأيام. .

---

(١) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٢) عودة الوفاق: ٣٦.

لكن الذي يحتاج إلى معالجة وتوجيه هو الشعور بالتفاؤل وتحسن الأوضاع؛ إذ إننا لن نكسب من وراء اليأس إلا انحسار الذات وخمود النشاط وارتباك الوعي... ومن المهم في الظروف الصعبة أن تستخرج الإيجابيات وخمائر الإصلاح والصلاح، أما تعداد السلبيات فهذا يستطيعه كل أحد. إن النقد ليس الكشف عن المعائب فحسب بل الكشف عن مساحات الخير والجمال أيضاً. إن جزءاً من انتصار الإسلام لن يكون بالجري وراء العالم لإصلاحه ولكن بعودة العالم إليه بعد انسداد السبل أمامه، وإن الوقت يعمل لصالح هذا الدين؛ وإن علينا أن نتعلم فضيلة الانتظار؛ والله غالب على أمره. وبهذه الركيزة نختم الحديث عن هذه المؤشرات التي أردنا منها رسم بعض الخطوط التي توجه حركة الفكر، وتثير المزيد من التساؤل حول وضوح أشد ننشده، ورشد أعظم نسعى إليه.



(٣) بعض إصابات الفكر لدينا

لا يتمارى اثنان في أن أمة الإسلام تعيش أزمة تختلف حدتها من بلد إلى آخر، وهذه الأزمة شاملة للمجالات الحياتية كافة، وإن كنا نرى أن بعض التقدم يحدث الآن في بعض الصعد، لكن (التخلف) عن الركب الحضاري وضعف الإنتاج الأدبي والمادي ظاهرة لا تخفى على أحد. وقد سلطنا الضوء في الجزء الأول من هذه السلسلة على ظاهرة التخلف بما يكوِّن صورة عامة لدى القارئ عن الحالة المنكورة التي تجتاح العالم الإسلامي. هذه الوضعية التي يعيش فيها المسلمون هي نتاج اضطراب فكري عميق عانى منه العالم الإسلامي منذ قرون عديدة.

والاضطراب ليس ناتجاً ـ بالتأكيد ـ عن تشوه خلقي أو قصور جنيني في ملكة التفكير لدينا، وإنما هو ناتج عن تشوه ثقافي وتربوي؛ فالثقافة التي تحبذ الاتكال والخمول والانطواء، وتتغاضى عن الفوضى والجهل والتسيب، والتربية التي يتلقاها الفرد بعيداً عن هدي الإسلام ودروس التجربة الحضارية، هما اللتان تطبعان الفكر بالخطل، وتوجهانه الوجهة العقيمة؛ وحين يصاب التفكير بالعطب تتجه آلة الحراك الاجتماعي وجهة منحرفة، وتصبح معرفة قوارب النجاة ومراشد الحق والصواب بعيدة عن التناول. ويزداد الفكر تأزماً كلما تأزم الواقع وانحبست الحركة الاجتماعية والثقافية دون الوصول إلى آفاقها النهائية؛ إذ كثيراً ما تتأزم الحياة الفكرية نتيجة تأزم الحياة العملية المادية؛ لتدور الأمة في حلقة مفرغة لا ترجو منها خلاصاً ولا فكاكاً!.

إذن ما سنسوقه من بعض الأمراض والأعراض التي ألمت بالفكر لدينا هو في جوهره تشوه ثقافي، لكن لا يستغني إصلاح الثقافة وترشيدها عن

العقل المبدع والفكر المستنير الذي يشخص مواضع الألم والإصابة، ثم يستخرج بطريقته الخاصة النماذج الصحية والصحيحة من بين المركوم الثقافي العليل.

ولعلنا نسوق في المفردات التالية بعض ما نظنه أزمة أو علة في حياتنا الفكرية على النحو الآتي:

١ ـ نمو في التفكير بشئون الفرد على حساب التفكير بشئون المجتمع:

لا يخفى على أحد أن (الجماعة) هي معقد ولاء المسلم أكثر من ولائه لدولة أو لوطن، وقد ظل أهل السنة والجماعة مشدودين على مدار التاريخ نحو التوحد وفكرة الأمة وإلى يوم الناس هذا؛ فلا يرضى شعب من الشعوب الإسلامية أن يطلق عليه لفظ (أمة) خوفاً من الانعزال عن المحيط الإسلامي الواسع. لكن علينا في مقابل هذا أن نقول إن الفقه المتعلق بشئون الفرد وحركته وحقوقه وواجباته ظل على مدار التاريخ أكثر نمواً ورحابة من الفقه الذي ينظم شئون المجتمع ـ الجماعة ـ، كما أن النشاط الفكري لدينا نحا المنحى نفسه مع قوة الإحساس بأهمية الجماعة وضرورة الالتحام بها وحل مشكلاتها. ولعل السبب في ذلك هو أن الوعي المدني لم يتم تنظيمه بشكل كاف مما جعل الولاء في نطاق الأحاسيس والمشاعر؛ والوعي المدني لا يُنظَّم عادة إلا من خلال (المؤسسات) المختلفة، وعلينا أن نعترف مرة أخرى أن تاريخنا بمقدار ما هو حافل بالأعمال والمآثر الفردية ـ ضامر في الأعمال الجماعية، ومن ثم فإن كثيراً مما يتوقف إنجازه على الإرادة الجمعية والحركة الاجتماعية ظل معطلاً أو ضئيلاً، وأكبر مثال على ذلك قضية (الفروض العينية) فقد فُصلت تفصيلاً تاماً على حين ظلت مسألة الفروض الكفائية عائمة، مع تصريح الفقهاء بأن الفرض الكفائي إذا لم يقم به أحد صار عينياً في حق القادرين عليه. وما تمت بلورته منها كان في قضايا محدودة مثل رد السلام وتجهيز الميت ودفنه وما شاكل ذلك مما يقوم به الناس في العادة دون الحاجة إلى إلزام. أما القضايا الكبرى مثل اكتفاء الأمة من الغذاء والكساء والسلاح والعمال المهرة والأطباء.... فظل تحقيقها متوقفاً عند حد

التوصيات بضرورة الكفاية فيها، وعلى المبادرات الفردية المحدودة التي لا يمكنها بحال من الأحوال أن تنهي مشكلة مجتمع ضخم.

وقريب من هذه القضية مسألة (أهل الحل والعقد) ـ فمع الحديث عنهم في بعض كتب الأحكام السلطانية وبيان أهميتهم في تكوين مؤسسة وسيطة تمنح للمجتمع نوعاً من الاستقرار والرشد والأمان من فتن الاحتراب الداخلي مع ذلك لا نلحظ لهم دوراً يذكر في تاريخنا الإسلامي المديد، وما ينسب إلى بعضهم من أعمال مباركة كان جزئياً ومحدوداً وقليل الفاعلية لأنه كان يتسم دائماً بالانطلاق من روح فردية؛ والحجر لا يستمد صلابته وعمله إلا من اجتماعه وإلا فهو قبضة رمل!.

وإننا نعتقد أن الفكر الدعوي والإصلاحي لم يحدث فيه تقدم كبير في هذا الصعيد ـ إلا إذا استثنينا أعمال البر والخدمات الاجتماعية ـ فما زالت هموم الجماعة مقدَّمة على هموم المجتمع الكبير، وما زال التفكير في انعكاسات الاقتصاد على التربية والسلوك الاجتماعي ـ مثلاً ـ وأثر البيئة في التفكير والمعتقد، ومدى أثر الرضا الاجتماعي في فاعلية الأفراد، ومدى انتشار الأمية في الالتزام، ما زال الاهتمام بكل ذلك هامشياً في المحيط الدعوي، وآية ذلك الدراسات والبحوث التي قام بها الدعاة في هذه المسائل الحيوية؛ فعلى حين لا نجد من البحوث فيها إلا الآحاد الأفذاذ تجد مئات الرسائل المتعلقة بالصوم أو الصلاة أو الحج؛ مما يتصل بعبادات المسلم وسلوكه الفردي.

وآية أخرى على ضمور التفكير الجماعي لدينا أن الدراسات التي تتناول أبنية المجتمعات الإسلامية التاريخية ومشكلاتها وأطوارها أيضاً محدودة أو معدومة، وما هو متوفر لدينا عنها عبارة عن نتف لا ينظمها ناظم فضلاً عن افتقارها للتوثيق؛ وأدى هذا كله إلى أن تكون خبرتنا بالحركة الاجتماعية التاريخية ضعيفة، وجعل أحكامنا عليها مبتَسرة أو متعسفة.

بل إن مما يدهش حقاً أن يكون هناك نوع من القطيعة بين الدعاة وبين العلوم الاجتماعية؛ فقد يقضي الواحد منا عمراً مديداً في الدعوة دون أن يقرأ

كتاباً واحداً في الاجتماع بحجة أن هذه العلوم غربية، ولا تخلو من دخل، مع أن سنن الله ـ تبارك وتعالى ـ في الاجتماع كسننه في الفيزياء والفلك، يجدها من يبحث عنها، ولا نستطيع أن نزعم أننا أكثر من القوم جدية في البحث عنها. وهذا كله مع أن عمل الدعوة كله عبارة عن تغيير المجتمع وتوجيهه الوجهة النافعة.

إن علينا أن نعلم جيداً أن الفرد ـ أياً كان مستواه ـ لا يستطيع أن يتجاوز كثيراً السقف الذي يحدده مجتمعه، وأن الكل يساوي الجزء، وأن الجزء يساوي الكل، وأن التركيز على إصلاح الأفراد دون الاهتمام بإصلاح المناخ لن يأتي بكبير فائدة.

٢ ـ نحن لا نفكر إلا عند وجود أزمة:

من طبيعة الفكر أنه لا يستطيع أن يسبق الواقع إلا على وجه الحدس والتخمين بل إنه في بعض الأحيان يكون عاجزاً عن ملاحقته[1]، وهو حين يحاول القبض عليه لا يفهمه إلا عبر (إشكالية). خاصة لا يُشترط أن تكون ذات كفاءة بالإلمام بالواقع، لكن مع هذا فإن المبادئ المنطقية وما ألَمَّ المرء به من ثقافة سننية، وما يجمعه حول الوقائع المحيطة به من معلومات، كل ذلك يساعده على أن يتلمس آفاق المستقبل بشيء من الوضوح، كما يمكِّنه من الوعي الحسن.

إن البطء هو قانون التغير، وإن أية حالة يكون بطؤها متناسباً طرداً مع حجمها؛ فشيخوخة جسم تحتاج إلى زمن أطول بكثير من تلف سن، وهكذا أحوال الرخاء والشدة والتقدم والتخلف تتكون ببطء شديد، وإن العالم الحق والمفكر الأصيل هو الذي يستطيع الإحساس بالأزمة ويتخيَّل بعض تداعياتها قبل أن تصبح كابوساً جاثماً على صدر الأمة.

---

(١) لو أننا نقلنا ساعة الحائط من الجدار الذي هي فيه إلى جدار آخر لوجدنا أن نظرنا يظل يتجه إلى مكانها القديم أياماً عدة.

إن عملية التفكير عملية شاقة جداً في الأصل، وإن المؤهَّلين للقيام بها قلائل دائماً، ويزيد الطين بلة عندنا قلة المعلومات التي تساعد الفكر على الحركة، ويؤدي ذلك كله إلى بطء عمليات التفكير لدينا، كما يؤدي إلى المجيء دائماً بعد الحدث وبعد فوات الأوان.

وحين تستحكم الأزمة، وتمس حياتنا بصورة مزعجة نتحرك لتطويقها، لكننا نجد أنفسنا في موقف غير بعيد عن موقف الطب في حالة التهام (السرطان) للدماغ، حيث يكون بين متحارجتين أيسرهما الموت المحقق، فإما أن يموت المريض بسبب السرطان وإما بسبب استئصال ما عطبه السرطان، وهكذا نلاحظ في حالات عديدة أننا بين خيارين أحلاهما مر؛ فإما أن تفجع الأمة بسبب الاستسلام للأزمة، وإما أن تُفجع بسبب محاولة الخلاص منها!!.

ويكون السؤال الذي يتردد على كل شفة ما العمل، وقد حصل ما حصل، ونحن أبناء الساعة... وهكذا نتصرف دائماً كمن لم يعرف أي شيء عن أيام الله وسننه الماضية في الأمم السالفة!.

٣ ـ التقزم الطوعي:

إذا قلنا: إن لدى العالم الإسلامي من المشكلات ما يشغله عن أن يفكر في أي شأن آخر لا نكون بعيدين عن الحقيقة، إلا أن هناك حقيقة أخرى ماثلة، هي أن بإمكان أي فكر ناضج أن يستثمر قليلاً من الحركة عن طريق توسيع المجال الحيوي بصورة مدهشة، بشرط أن توجد عزيمة مقاومة الانحسار. والذي يحاول أن يقف على بعض اهتماماتنا يجد أنها دائماً محدودة وجزئية، وقلما رأينا داعية يتكلم في شأن عالمي، أو يبحث في مسألة تؤرق العالم. وذلك لأن تربيتنا الفكرية كانت تركز دائماً على ما هو محلي أو إسلامي بعيداً عن الهموم العالمية، مع أن العقلية التي يصوغها المنهج القرآني لا يمكن أن تكون متقوقعة ولا حسيرة، وكيف يكون ذلك وقد حدثنا عن تاريخ الأمم المختلفة، وطلب منا أن نحمل كلمته للعالمين؟!

لكن واقع الحال يدل على أننا لسنا على مستوى الرسالة، وبدل أن نبادر للتأثير في الآخرين فإن جل أنشطتنا الإعلامية يتمحور حول اتهام الآخرين، أو دفع تهمة ألصقوها بنا، أو نشكو من ظلمهم، أو نتحدث عن حفرة في شارع قصرت البلدية في ردمها!

أما مسائل التلوث البيئي ونضوب الموارد الطبيعية وتجارة المخدرات وانتشار السلاح النووي وانتهاك حقوق الإنسان ونهب موارد الشعوب المستضعفة... فتلك أمور أكبر من أن يتحدث عنها أمثالنا، وتركنا الحديث عنها، وكسب العالمية من وراء الاهتمام بها للأمم المتحدة والعالم الغربي! يتاجر بها، بل ويفرض من خلال الاهتمام بها نوعاً من الوصاية العالمية. إن أوائل سورة (الروم) تدل أن المسلمين ما كانوا معزولين عن الأحداث العالمية، فقد استبشروا بإخبار القرآن عن انتصار الروم في بضع سنين مع أن الحرب بين فارس والروم لم يكن شأناً عالمياً كالشئون التي تحدثنا عنها. إن العالم الإسلامي ليس قزماً ولا ضئيلاً ولكن تربيته الفكرية القائمة على الانكماش والخوف على الهوية من الذوبان هي التي جعلته يتقلص كما يتقلص الكائن الحي عندما يداهمه الخطر!.

إن نظامنا العقدي هو أقوى من كل أنظمة الدنيا على ما فينا من ضعف في السياسة والاقتصاد، وإن لدينا من القيم والمناهج ما يمكننا من طرح رؤية متكاملة لإصلاح العالم، لكننا نحتاج إلى أن نغادر مرحلة الدفاع والانطواء إلى مرحلة بناء الخطوط المتقدمة وفتح المجالات الحيوية في أرض الآخرين من خلال المشاركة العالمية في هموم العالم وهواجسه...

٤ ـ الانفصال بين الفكر والمنطق العملي:

لا أحد يستطيع أن يزعم أن الأمة لا تمتلك أي أفكار إبداعية اليوم لكن يمكن القول: إن لدينا جُزُراً فكرية لا يربط بينها رابط؛ فالأفكار الإبداعية في مغرب العالم الإسلامي لا تصل إلى مشرقه، وهكذا أفكار المشرق، بل إن ضعف حركة النشر ووسائل الإعلام وإحجام الناس عن القراءة جعل انتشار

الفكرة في القطر الواحد محدوداً، ولم تكن النتيجة انحسار الأفكار وانكماشها فحسب، بل ترتب على ذلك أمر آخر هو عزلة المفكرين، والانفصال بين الفكر والعمل حتى صدقت مقول أحد المفكرين: «لدينا أفكار كثيرة لا تجد سبيلها إلى التطبيق، وأعمال كثيرة لم تُسبق بأي تفكير»!.

فالمفكرون لا يملكون ـ في الغالب ـ أي أداة لتنفيذ أفكارهم وإحالتها إلى شيء واقع معيش، بل لا يملكون الوسائل الناجعة لإيصال أفكارهم. والذين يغلب عليهم حسُّ العمل والحركة والدعوة ينظرون إلى مسائل الفكر والتخطيط على أنها من لهو الحديث وإضاعة العمر في كلام لا يقدم، ولا يؤخر! ومما هو ملاحظ أن جماعات عديدة لها أنشطة محمودة في مجالات الدعوة، لكن لا تملك من بين الألوف من أتباعها مفكراً أو منظراً واحداً على مستوى مرموق، وهي تعتقد أن أمورها على ما يرام، كما أن بعض الجماعات لا تسمح لأتباعها بالاستنارة الفكرية خوفاً من أن يُخدش ولاؤه لها وخوفاً من تشوش جهاز الاستقبال لديه. أما عزلة المفكرين ـ أو كثير منهم على الأقل ـ فهي لا تحتاج إلى تدليل.

والنتيجة التي حصلنا عليها هي ضمور الفكر وانسداد آفاق العمل أمام ذوي المنطق العملي.

والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل في فراغ، فهو حتى ينتج يحتاج إلى ثقافة، وحتى يجود بأطروحاته يحتاج إلى واقع (يستدرجه)، وحينما يبتعد عن الواقع فقد يحلِّق ويجمح لكنه يطرح أفكاراً غير عملية ويأتي بتقسيمات وفروض تحوي معرفة (شكلية).

أما الحركة فإنها عند حدود معينة تحتاج إلى الفكر والخيال وطرح البدائل المتعددة، ولا سيما في أجواء التنافس وفي أزمان التعقيد. وهذا ليس في مجال الدعوة فقط وإنما في مجال التعليم والصناعة. . . فالدول التي لا تنفق على البحث لا تستطيع تطوير منتجاتها ولا دخول حلبات المنافسة الدولية.

وليس لدينا حل لهذه المعضلة إلا بإنشاء (وحدات فكرية) داخل المؤسسات الحكومية والجماعات والأحزاب والهيئات الخيرية.. تكون مهمتها إنتاج الأفكار المبدعة التي يتم تجريبها في الميادين العملية داخل تلك المؤسسات... ثم تعديلها عن طريق (التغذية المرتدة) فنكون بذلك قد أقمنا علاقة جدلية مفيدة للفكر والعمل معاً. وليس هذا بالأمر السهل لأن كثيرين منا لم يصلوا بعد إلى قناعة جيدة بحاجة الدعوات إلى الفكر الثاقب المستفيد من التجارب العالمية.

٥ ـ الغرق في الجزئيات:

العلم ميدانه بحث الجزئيات، فحين نقرأ في كتاب في علم الفقه أو أصوله أو في التاريخ أو الجغرافيا... فإنا نقف على مجموعة من المعلومات المترابطة في ذلك العلم، وهي بطبيعة الحال مفصولة بعضها عن بعض بحكم التنظيم الشكلي.

أما الفكر فميدانه ـ كما ذكرنا ـ هو الكليات والمعطيات المستخلصة من علوم شتى؛ وهناك في عالمنا الإسلامي ألوف المدارس التي تدرس العلوم الشرعية والعربية المتعددة لكن لا يوجد مدرسة واحدة تعلِّم التفكير القويم، بل لا يوجد مادة واحدة لتعليم أصول التفكير إلا إذا استثنينا مادة (المنطق) المقررة في بعض المدارس، وهي مادة ما زالت تدرس المنطق اليوناني (الشكلي) الذي يكرس كمال الشكل في التفكير على مقدار ما يضيع من فاعلية التفكير ونوعية مطارحاته.

هذا الإهمال لـ(علم التفكير) جعل الاهتمام كله يتجه نحو العلوم المختلفة على حساب الرؤية العامة للتاريخ والواقع والمستقبل... وبما أن حالة التخلف لا تسمح في العادة بأفكار أو حلول جذرية فإن اشتغالنا بالعلوم المختلفة اتجه إلى الاشتغال والتحقيق في قضايا فرعية جداً في الصلاة والزكاة والحج وتراجم الأشخاص وتحقيق المخطوطات التي لا تمثل أية إضافة إلى ما هو منشور، ومع أننا لا نهوِّن من شأن الاشتغال بأية قضية فرعية مهما

كانت إلا أننا نرى أن السفينة حينما يهددنا خطر الغرق لا يكون المطلوب الأول هو طلاؤها أو تجديد أثاثها وإنما إنقاذها والوصول بها إلى بر الأمان، ولسنا نقول ما قلناه من باب إلقاء القول على عواهنه؛ فعند النظر في حال العمل الإسلامي نجد أن الأماني واسعة على حين أن الأهداف غامضة، ونجد أن المبادئ بارزة على حين أن البرامج غائبة، ونجد أن منهجية التعامل مع القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الملحَّة غائمة أو مفقودة. والسبب في كل ذلك أن هذه المفقودات لا تقرأ في كتاب أو في علم من العلوم وإنما هي خلاصة النضج الفكري والثقافة الموسوعية المزجية. والذي يدل على اهتمام جماعة أو مؤسسة بقضية ما هو إنتاجها الثقافي الذي يعالج تلك القضية، ويكشف عن مشكلاتها، ويحاول إضاءتها وتقوية البصيرة بها. وحينئذ نجد أن الكتب التي تتولى المعالجات للقضايا الكلية ما زالت محدودة ومتدنية في مستواها، مع أن لدينا كثيراً من الشباب الذين يمكن توجيههم وتدريبهم للقيام ببحوث ودراسات حول القضايا الكبرى.

٦ ـ الافتتان بـ(الكمّ):

في حديث القصعة سأل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ النبي ﷺ عن أسباب تداعي الأمم: «أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟» وجاء الجواب: «أنتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل». فقد أوضح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن مشكلة المسلمين حين تتكالب عليهم الأمم لتتقاسم خيراتهم ليست في قلة الأعداد، أي ليست في (الكم) وإنما في (الكيف) لذا قال: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل». فالغثاء قد يغطي وجه الماء، ويظهر حضوره في كل مساحة منه، لكنه يفقد الترابط، ويفقد الوزن، ومن ثم فإنه عاجز عن تقرير مصيره، وإنما يقرره الماء ذو التيار المتدفق!

وحين نستعرض القرآن الكريم نجد أنه لا يذكر الكثرة ـ في معظم الأحيان ـ إلا في سياق الذم؛ فأكثر الناس لا يؤمنون، ولا يشكرون، ولا يعلمون، ولا يعقلون، وهم يجهلون...

وأثنى ـ سبحانه ـ على (الكيف) في بعض المواضع حين جعله سبباً لتفوق المسلم على غيره في معترك الحرب إذ قال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾[1]. فالصبر عند المسلم هو تميز على الكافر في (الكيف) لا في (الكم).

وذكر سبحانه وتعالى أن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة في العدد بسبب تميز نوعيتها، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. ولو أننا نظرنا في تاريخ الفتوحات لوجدنا أن معظم المعارك التي انتصر فيها المسلمون لم تشهد زيادة في عدد أو عدة، وإنما هو الإيمان والصبر وحب الشهادة وطاعة القادة وحسن النظام.... وهذا كله يعود إلى النوع.

والدول التي تقود العالم في الصُعُد السياسية، والتي تُغرق العالم بإنتاجها الصناعي والزراعي ليست هي الأكثر عدداً، كما أن الجامعات ذات الشهرة العريقة والمستوى العلمي الرفيع ليست هي الجامعات المكتظة بالطلاب. ونجد هذا واضحاً جداً في العلاقة اليوم بين أمريكا الآخذة في طريق التدهور واليابان الصاعدة؛ فالأراضي الأمريكية المخصصة لإنتاج السلع الزراعية التي تصدر إلى اليابان تزيد على مجموع مساحة اليابان! وفي المقابل فإن اليابان ـ التي يساوي عدد سكانها نصف عدد سكان أمريكا ـ تصدر لأمريكا أكثر من ثلث التقنيات الراقية الضرورية لتطوير الأسلحة الأمريكية، وسوف يكون من العسير على أمريكا أن تجد طريقاً آخر[3].

والميزان التجاري يميل لصالح اليابان ـ الفقيرة في الموارد الطبيعية ـ بأكثر من ٥٥ مليار دولار. وإن طلاب جامعة (كمبردج) يبلغ عددهم أحد عشر ألف طالب فقط مع أنها من أعرق الجامعات في العالم، وهم أقل من عدد طلاب كلية في جامعة من جامعاتنا.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٣) آفاق المستقبل: ٩٨.

لو نظرنا في أوضاعنا الحالية لوجدنا أن حديثنا باستمرار عن الكم، وأن (وعينا) مفتون به، على حين لا تلقى النوعية أي اهتمام يذكر، وهذا الأمر ليس قاصراً على الدعاة، أو على قطاع بعينه، وإنما هو مما عمَّت به البلوى؛ فالدول الإسلامية لم تدخل عالم التصنيع لا بشكل قوي ولا متوسط، كما أنه لا توجد دولة واحدة ولجت مجال الصناعات الدقيقة [الإلكترونيات] ولا نظم المعلومات ولا بحوث هندسة الجينات... من كل ما هو محدود الحجم عالي النوعية وغالي الثمن!

كما أن في العالم الإسلامي مئات الجامعات، ولا تكاد تجد منها ما هو على مستوى عالمي، بسبب ضعف إمكاناتها التي لا تتناسب أبداً مع عدد طلابها. كما أن الرسائل العلمية والبحوث (الأكاديمية) تتسم لدينا بتضخم عجيب؛ حيث يبلغ بعضها الألف من الصفحات أو أكثر؛ لكن الجديد لا يتجاوز مئة! وحين تقوَّم الدول والشعوب والجماعات فإنها تُقوَّم من خلال عدد السكان واتساع المساحات والإمكانات الكامنة بقطع النظر عن السوية والنوعية لكل ذلك...

وهكذا فقد انطبع في الحسِّ الإسلامي أن كل ما هو كبير جميل مع أن منطق العصر يتجه نحو القيمة الحقيقية والفاعلية والقدرة على التوظيف الحقيقي للإمكانات... إن وقفة مراجعة مطولة حول هذا الموضوع يجب أن تشغل تفكيرنا؛ لعلنا نعيد الأمور إلى نصابها.

٧ ـ لا نستطيع حماية أفكارنا في ظروف متدهورة:

هذه قضية مهمة في عالم الأفكار، وهي على أهميتها لم تلق منا العناية الكافية بسبب عدم استيعابنا لآلية تمكّن الأفكار ونموها وضمورها وتدهورها؛ ونحن ليس لدينا أدنى ريب في أن المرجعية الفكرية التي أكرمنا الله ـ جل وعلا ـ بها كافية لأن تمدنا بالأفكار النيرة التي تمكننا من البناء والمراجعة والتصحيح؛ والصحوة التي تشهدها الأمة مع ما يصاحبها من إعادة فهم الماضي وصياغته دليل على ما نقول.

لكن علينا أن ندرك من وجه آخر الجانب البشري في فهم الأفكار والتعامل معها؛ إذ إن هناك اليوم رغبة جامحة لدى كثير من المسلمين في إحداث نوع من الاندماج مع الحضارة الحديثة وإنتاج قيمها واستهلاكها إلى جانب منتجاتها، وإزاء هذه الرغبة فإن المصلحين يقومون من جانبهم باجتهادات إصلاحية تحت ضغوط من كل جانب، وهذا يؤدي في الحقيقة إلى نوع من التلفيق الذي لا يحل إشكالاتنا مع الحضارة الحديثة إلا حلاً مظهرياً تطمينياً أكثر من أي شيء آخر، أو يؤدي إلى الجور على أصولنا ومنطلقاتنا الأساسية وتشويهها، وكلا الأمرين ضرر وخطر!.

ويحدث أن يدير كثير من الدعاة ظهورهم لرغبة الشعوب الإسلامية تلك في التحديث، وتكون النتيجة أيضاً سيئة حيث يعيش المسلم أزمة داخلية عميقة بسبب فقده للإحساس بفاعلية النظم والمبادئ الإسلامية في تنظيم حياته اليومية وآليات ثقافته المعيشية. والنتيجة هي ارتباط شكلي بالمبادئ والأفكار الإسلامية الجوهرية.

وعندما ننظر في واقع الأمة اليوم نجد أن عند بعض دعاتنا ومصلحينا نوعاً من الشعور الغامض تجاه هذه المسألة، كما أن عند آخرين منا نوعاً من الإهمال التام لهذا الأمر.

ولست أرى من سبيل للمحافظة على الهُوية الإسلامية وعلى الفكر الإسلامي سوى تحقيق تقدم حضاري حثيث يتمثل بصورة جوهرية في النقلة الصناعية ضمن إطار إسلامي وفاعلية روحية حية؛ حتى يشعر المسلم بالتأنق والتميز، وحتى يستعيد احترامه لنفسه واحترام الآخرين أيضاً.

والخلاصة: أن التأكيد على عظمة العقيدة والفكر والمبادئ الإسلامية لن يأتي بطائل - إن لم يوجد إحباطاً - ما لم نعرف كيف نحسِّن من وضع الأمة الأخلاقي والإنساني والمادي، وعلينا أن نعلم أن الفكرة إذا آن أوانها صار من العسير تأخيرها أو تناسيها، وبالتالي فإن تجاهل تشوق المسلمين إلى أن يعيشوا عصرهم سيكون بمثابة دافع لهم للابتعاد عن دينهم؛ إن الفتنة

ليست شيئاً سوى عدم القدرة على التمييز، وإن سوء الأحوال أكبرُ غشاوة تشوِّش رؤية البصيرة، وتؤدي إلى ضلال الأحكام.

٨ ـ خطورة التشوهات الجنينية:

الإمكانات العقلية التي وهبنا الله ـ تعالى ـ إياها أشبه ما تكون بـ(طاحون)، والثقافة ـ بأوسع ما تحمله من معنى ـ هي الحبوب التي ندخلها إلى تلك الطاحون، وهي المادة التي يشكلها العقل، بطريقته الخاصة. لكن لا ينبغي أن يظن أن (الثقافة) هشة العلاقة بآلة التفكير؛ لأن (التركيب العقلي) الذي هو ناتج عمل الإمكانات الذهنية في الثقافة، يدل على مدى متانة العلاقة الجدلية القائمة بين آلة التفكير وبين المدخلات الثقافية التي توسع آفاق عملها، وتمدها بالمادة التي ستبدع في تشكيلها.

والمشكلة هنا أننا في بعض الأحيان نقتنع بطريقة معينة في الدعوة أو التغيير، أو نستخدم منهجية معينة في فهم التاريخ وصياغته، ومن شدة ولعنا بذلك ومحاولتنا إثبات صحة اختيارنا ننسى أن ما تم توصُّلنا إليه لا يعدو أن يكون (خياراً) من خيارات عديدة أو ترجيحاً شخصياً لأسلوب رأينا أنه الأنسب لعملنا وحركتنا؛ ومن ثم فإنه يتشكل لدينا من خلال العمليات العقلية المكثَّفة وفق منهج فردي ورؤية واحدة، تركيب عقلي خاص يلوِّن رؤيتنا للأشياء بلونه، بل يتحكم بطريقة امتصاصنا للثقافة، فلا نتفاعل إلا مع الألوان والمقولات الفكرية والعلمية والتاريخية التي تعزز من طبيعة ذلك التركيب، ويصبح وضعنا كمن يلبس نظارة خضراء، يرى كل شيء أخضر، ونكون بذلك قد فرضنا على أنفسنا عزلة رهيبة عن الآخرين، كما أننا سوف نصاب بمنح القطع لما هو ظني؛ مما يؤدي إلى التعصب المقيت وإماتة أية أرضية للتفاهم المشترك مع كل من لم يتكون تركيبه العقلي على نحو ما تكوَّن التركيب العقلي لدينا. والفكر الإسلامي يعاني من هذه المشكلة أشد المعاناة؛ على نحو ما نشاهد عند الذين يركزون على التربية ـ مثلاً ـ باعتبارها أسلوباً في الإصلاح؛ فهم يرون أن كل الأساليب الأخرى غير ذات جدوى! ونجد

مثل ذلك عند الذين يرون الإصلاح الفكري الطريق الأهم للنهوض بالأمة، فإن ذلك يسيطر عليهم سيطرة عجيبة تجعلهم ينظرون للأعمال الدعوية والتربوية والاقتصادية على أنها غير ذات فائدة، لأن ما تعالجه من خلل لا يعدو أن يكون أعراضاً للمرض وليس المرض نفسه؛ ناسين العلاقات الحميمة التي تربط بين جوانب الحياة كافة والمؤثرات التي تتبادلها عبر تلك العلاقات والارتباطات.

وقد كان النابهون من فقهائنا يقولون: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب» إدراكاً منهم لطبيعة المنهجية الاجتهادية التي أفرزت اختياراتهم المذهبية. لكن التشوه الجنيني الذي أصاب بعض الأفراد وبعض الجماعات، جعلها غير قادرة على إدراك مثل هذا، وأضعف ـ بالتالي ـ الأمل في قدرتها على إصلاح تركيبها العقلي من جديد، ولم يبق هناك من أمل في التغيير إلا في آلام التجارب المريرة التي إن لم تقصم أفادت في منح فهم جديد!

٩ ـ المنهج الرباني لا النماذج التاريخية:

إن سلطان التاريخ على الإنسان قد لا يعدله سلطان آخر؛ فهو لا يقص علينا حكايات السابقين فحسب؛ بل إنه أحد المكونات الأساسية لوعينا بأنفسنا، وأحد المعايير الأساسية في تحديد أشياء كثيرة في هذه الحياة. وحين تفقد أية أمة من الأمم مرجعية عقدية وفكرية مطلقة (لا بشرية) فإنها تسمح للتاريخ أن يكون العامل الرئيسي في توجيه تطورها الذاتي.

ونحن اليوم الأمة الوحيدة ـ بحمد الله ـ التي تستطيع أن تتحرّر من هيمنة التاريخ ـ ولو بشكل غير كامل ـ حيث إن الثوابت التي لدينا ليست من صناعة التاريخ، ومن ثم فإننا نحتكم إليها ليس في توجيه الحركة الاجتماعية المعاصرة فحسب، وإنما في نقد التاريخ نفسه وفي تأويله وصياغته وفهمه.

إن التاريخ (هذا العلم المستحيل) لا يقيم بنيانه بمعزل عنا، ولا يستطيع أن يستقلّ بنفسه حيث إن قيمته الحقيقية لا تكمن في أحداثه وقضاياه وإنما

في الأهمية التي نضفيها نحن عليه، ومن ثم نجد أن حادثة ما بالنسبة لشخص أو أمة تشكل منعطفاً مصيرياً على حين تكون شيئاً تافهاً وعديم الفائدة بالنسبة لأمة أو لشخص آخر، بل إن الأمة الواحدة تنظر إلى حادثة معينة في مرحلة زمنية نظرة مغايرة لنظرتها لها في مرحلة أخرى بحسب تراكم خبرتها التاريخية ونضوج وعيها والتحديات التي تواجهها.

إن من العجيب حقاً أن التاريخ الذي يسهم في تكوين الوعي ودفع الحركة الاجتماعية والتحولات الحضارية يظل قابلاً لتغيير مقولاته وفروضه على يد الوعي الذي قام هو بتكوينه! فنحن نقرأ تاريخنا، ونعيد كتابته كلما حدثت نقلات نوعية في تشكيل وعينا.

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الإصابات الفكرية لدينا ـ فيما أزعم ـ الاتكاء الكبير على التاريخ في الأعمال الإصلاحية، وفي تفسير النصوص وبلورة المنهج، بل صار بالنسبة إلى بعض مفكرينا بمثابة الجدار الذي يمشي إلى جانبه الكفيف، ويستعين به على تحسس الطريق!

لا يخفى أننا منذ حوالي نصف قرن قمنا باستخراج النماذج التاريخية الناصعة في جميع المجالات لنستعين بها على دفع الاستلاب وصد الهجوم الذي كان يهدد ثقافتنا الإسلامية بل كينونتنا المعنوية كلها، وقد استطعنا بحمد الله النجاح في ذلك إلى حد بعيد. وما دمنا قد تجاوزنا تلك المرحلة فإننا بدأنا نشعر بتغير بعض المواقف تجاه ما كنا نفاخر به في يوم من الأيام؛ وذلك بسبب نوع من التغير الذي طرأ على مركَّبنا الثقافي والعقلي؛ فقد كنا ـ مثلاً ـ نباهي بقول هارون الرشيد: «أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك»؛ حيث إن ذلك كان دليلاً على اتساع تخوم الإمبراطورية الإسلامية. وهذا ما زال استشهاداً واستدلالاً في محله؛ لكنه نبت إلى جانب ذلك فسيلة من فهم إضافي لتلك المقولة؛ حيث نستشف اليوم شيئاً من عدم العدل بين الأقاليم والمناطق؛ حيث كانت تنعم بغداد بأرغد عيش بسبب جباية الأموال ونقلها إليها، على حين أن البؤس كان يخيم على بلدان كثيرة. وكنا معجبين بما كان عليه العُمَران ـ رضوان الله عليهما ـ من عدل وحدب على الرعية،

وذلك حق لا مرية فيه، ثم صار فينا من يقول ماذا لو خلا تاريخ الإسلام من هذين الرجلين؟! وكان ذلك لوناً من الشعور بالإحباط تجاه التاريخ السياسي لهذه الأمة الذي كان يميل إلى أن يكون رمادياً وهكذا. . .

إذن موقف الوعي من التاريخ ـ ومن غيره ـ ليس ثابتاً، ومن ثم فإن المبالغة في الاستناد إلى الحوادث التاريخية قد تسيء إلى عصمة المنهج الرباني، وتحملنا على نوع من القسر له من أجل تكييفه مع الوقائع التاريخية. وفضلاً عن ذلك فإن (الدين الحق) جاء ليسع الإنسان على اتساع أمداء الزمان والمكان، والتطبيقات التاريخية له هي لون من ألوان عطائه، وليست هي كل عطائه، فالنماذج إنتاج له وليست محددة لكينونته، وإنما الذي يحدد كينونته مقاصده العامة وأحكامه القطعية، وما يمكن أن نستنبطه مما يوافق هذه أو تلك. ثم إن بعض الفتاوى وبعض الإجراءات والتنظيمات تمت تحت مطارق الضرورة ولتحقيق خير الخيرين ودفع شرّ الشرين، كما في نحو انعقاد الإمامة ولو بمبايعة اثنين قياساً على عقد النكاح، ولا ريب أن ذلك قياس مع الفارق الشاسع لكن هاجس (الفتنة) سيطر على حسِّ الفقهاء، واستولى على أذهانهم ـ بسبب انعدام أو ضعف المؤسسات الوسيطة ـ مما دفع كثيراً من الفقهاء إلى إجراء ذلك القياس الواهي. ونحو من ذلك التشديد في شروط المجتهد فإنه كان ـ في جزء منه ـ رد فعل على ما حدث من تسيب الفتوى ومحاولة بعضهم استخدامها لمصالح خاصة أو لخدمة بعض الجهات وهكذا. . . والالتصاق بالمنهج هو الذي يعصم من أن تصبح السوابق التاريخية مصدراً للتشريع[1].

ولعلنا بعد هذا وذاك نقول: إن التوظيف الواسع للتاريخ قد يؤدي بالجماعات والمؤسسات الدعوية إلى الشرذمة والانقسام؛ لأنه يتم ـ في كثير من الأحيان ـ للهروب من الاجتهاد، ولتسويغ التقليد وللركون إلى بديل

---

(١) لا نعد الإجماع في جملة السوابق التاريخية لأنه لا ينعقد إلا بناء على وجود أدلة قوية.

جاهز؛ وأيضاً فإن التاريخ ـ بطبعه ـ يقبل الجدل حول ثبوت الواقعة وتفسيرها وموقف العلماء السابقين منها، والأسباب والظروف التي أدت إليها، وأحاطت بها، وهذا كله يجعل من التاريخ والحوادث التاريخية محاور للجدل والنزاع. ولا ينبغي أن يفهم من هذا غض الطرف عن الواقعات التاريخية وترك الاستئناس بها؛ فذلك غير ممكن ولا مفيد، لكن المقصود هو أن نركز جهودنا الأساسية على الأدلة الشرعية المعتبرة، ونحاول التعمق في تمحيصها وفهمها، وأن نعطي أهمية أكبر لمقاصد الشريعة، وفقهها حيث نلاحظ أن السابقين لم يثروا البحوث في (فقه القضايا العامة)، وهو فقه مقاصد نظراً لقلة النصوص فيها. أما التاريخ فهو نتائج تفاعل المنهج الرباني ـ عبر اجتهادات البشر ـ مع الواقع الإسلامي الفائت، وهو لهذا كسب بشري لا يلزمنا إلا بعد حصوله على تأشيرة قبول من الشريعة الغراء بوجه من الوجوه المعتبرة.

وبالإمكان أن نقول إن أعظم ما يمكن أن نستفيده من التاريخ على مستوى (الفكر) هو أن يساعدنا في تكوين (التفكير الاجتماعي)، وذلك من خلال النقد والمقابلة ووزن قيمة الأدلة وربط السبب بالنتيجة والتعليل بالحوادث وإرجاعها إلى دوافعها الأصلية ورؤية الحالة الراهنة على أنها نتيجة لعملية تطور تمت في زمن غابر[1]. وهذا كله حين يعمم بصورة كافية يوجد نوعاً من التوحُّد في مبادئ التفكير ومستوياته وحدوده الفنيَّة. وهناك إصابات فكرية لم نشأ الحديث عنها لأن هناك كتابات كثيرة تغطيها من نحو الفكر الجبري والتقليدي والتآمري، كما أننا عالجنا بعضاً منها في الجزء الأول من هذه السلسلة وفي كتابنا (فصول في التفكير الموضوعي). ونسأل الله إحساناً وتوفيقاً.



---

(١) انظر مقدمة في التاريخ للتربية: ٦٥.

المقدّمة الثانية

في ثقافة الدّاعية

١ ـ ثقافة الداعية.

٢ ـ مفاهيم أساسية في بنية الثقافة.

٣ ـ محاور أساسية في ثقافة عصرنا.

٤ ـ في الرأي العام.

٥ ـ ثقافة الإقلاع.

(١) ثقافة الداعية

قد نطلق كلمة (ثقافة) ونريد منها: «مجموع العناصر والمؤثرات التي تطبع سلوك الفرد وتوجهه بطريقة لاشعورية».

والثقافة وفق هذا التعريف عبارة عن نتاج لعلاقة الفرد بالمجال الروحي والاجتماعي الذي ينمي فيه وجوده العقلي والنفسي. ومن العناصر الأساسية التي تكون الثقافة العقائد والأخلاق والفنون والمنطق العملي والصناعة والعادات والتقاليد والأفكار.

وبهذا التعريف، فكل إنسان يعيش في مجتمع مطبوع بثقافة ذلك المجتمع، وبهذا الاعتبار أيضاً، فإنه لا يخلو أي مجتمع من ثقافة.

ونطلق كلمة (ثقافة) ونريد بها: مجموعة المعارف المتوفرة لدى فرد أو (مجتمع)، فنقول: ثقافة فلان ضحلة وثقافة فلان ممتازة، والمجتمع الفلاني ضحل الثقافة أو عالي الثقافة.

والمثقف الحق بهذا الاعتبار من يملك رؤية نقدية وإصلاحية خاصة ووعياً خاصاً بمجتمعه والعالم من حوله.

وحين نتحدث عن ثقافة الداعية نريد منها المعنى الثاني: أي مجموعة المعارف التي ينبغي أن تتوفر لدى الداعية.

أهمية الثقافة في تكوين الداعية:

في عصرنا هذا غدا كل شيء معقَّداً ومتشابكاً، وصارت القنوات الثقافية والإعلامية أكثر من أن تحصر، وصار الذين يقومون بتشكيل الرأي العام

ينتمون إلى ملل ونحل ومذاهب شتى وهم يستخدمون طرقاً بارعة وأخّاذة، وهذا كله جعل أصوات الدعاة غارقة في ضجيج إعلامي لم يسبق له مثيل؛ مما جعل المنافسة على إقناع الآخرين شديدة للغاية، وفي هذا الجو المحموم سوف يتفوق من يفهم روح العصر وثقافته، ويمتلك إلى جانب ذلك الأسلوب الأمثل والوسيلة الناجعة في إقناع الآخرين وتوجيه الرأي لديهم.

كل هذا جعل حجم الزاد الثقافي المطلوب ونوعيته مختلفين اختلافاً بيّناً عما كان مطلوباً في السابق لإنجاح مهمة الداعية، ويمكن القول اليوم: إن نوعية ثقافة الداعية وقدرتها على استيعاب مشكلات العصر وتطلعات أبنائه هي المفصل الرئيس في حجم تأثير الداعية في المدعوين وكسبهم لصالح القضايا المهتم بها.

هذه الثقافة هي التي ستكشف عن الإمكانات الإبداعية الكامنة في الداعية؛ إذ تمثل المجال الحيوي الذي تنمو فيه المواهب والعبقريات، كما تمثل الأساليب والأدوات الفاعلة التي يرتكز عليها في أعماله الجليلة.

ولا يستطيع الدعاة إحداث تغيير أصيل ـ وليس احتجاجياً ـ في مجتمعاتهم إلا إذا أثبتوا تفوقاً ذهنياً وأدبياً وثقافياً على القوى الثقافية المنافسة، والتي يمتلك أفرادها ـ في معظم الأحوال ـ وسائل وتقنيات ليست في حوزة الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ مما يجعل تفوقهم الثقافي هو نقطة التعادل بين الفريقين.

إن أهمية الثقافة في حياة الدعاة تنبع من التأثير البالغ الذي تتركه (الصفوة) في سلوك المجتمعات واختياراتها ومسارات حياتها كافة؛ حيث إن تأثير قادة الرأي كثيراً ما يكون أبلغ أثراً من تأثير الأنظمة والقوانين، حيث يعتمد تأثير الثقافة على جاذبيتها الخاصة، على حين تستمد القوانين هيبتها من شيء من الهيمنة وشيء من الضرورة الاجتماعية، وشتان ما بين هذا وذاك.

إن مشكلة كثير من الدعاة تكمن في استهلاك الحركة اليومية لثقافتهم ومعلوماتهم؛ مما يحجم من تأثيرهم في الآخرين، ويدفعهم إلى الملل والسأم

من مقولات مجترَّة ذهبت جدتها، وفقدت إبداعها. إن التغير الثقافي المتسارع وتراكم المعلومات الخيالي جعل تقزيم أي مثقف أمراً سهلاً وميسوراً بشرط أن يكفَّ لمدة عن النمو المناسب والتفاعل الحي مع معطيات الثقافة المتجددة.

والسبب في هذا أن (المنطق العملي) مسيطر على كثير من الدعاة إلى حد التورم المَرَضي، ظانين أن في كل حركة بركة، مهما تكن نوعيتها؛ مع أن جوهر التقدم الحضاري يعتمد يوماً بعد يوم على (الأشياء الدقيقة) وليس على الأشياء الكثيرة ولا الكبيرة، أي على الكيف وليس على الكم. فداعية واحد من نوعية عالية قد يحول بين جيل كامل وبين التدهور والانحراف، وداعية واحد قد يسد على المسلمين ثغرة لا تسدها المئات بل الألوف من الدعاة الذين تم تكوينهم وإعدادهم على طريقة عمل (قدور الضغط)!.

هذا يقودنا إلى نقطة أخيرة وهامة، هي حاجتنا إلى الصبر والأناة والإتقان في تكوين الخلفية الثقافية أو ما كان يسمى قديماً بـ(الأهلية)، هذه الخلفية تحتاج إلى قراءة موسوعية مزجية في آن واحد على طريقة عمل النحلة التي تطير المسافات الشاسعة في سبيل الوقوع على أكبر عدد من أنواع الزهور، ومن ثم فإنها تخرج للناس شراباً فريداً ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ﴾. ومما يذكرون في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلام أنه سلخ من عمره قريباً من أربعين سنة، وهو يعمل، ويجوِّد في إعداد كتابه (الغريب المصنف). وأمضى (أرنولد توينبي) المؤرخ الإنجليزي نحواً من هذه العقود في إعداد كتابه «دراسة التاريخ». وحدثني أحد[1] الدعاة في (ماليزيا) أنه قرأ نحواً من مئتي كتاب حول الثقافة الصينية حتى يكوِّن خلفية تمكِّنه من دعوة الصينيين إلى الإسلام بنجاح. ويذكرون أن (الإلياذة) كتبت في ثلاثين سنة، ويذكر (جارثيا ماركيز) قاصُّ أمريكا الجنوبية الأول أنه كتب قصته (مائة عام من العزلة) في ستة عشر عاماً. ولقد ذكر أن (جوستان فلوبير) ت سنة ١٨٨٠م قرأ ألفي كتاب من

---

(١) هو الأستاذ فضل الله يلموت الموظف في الجامعة الإسلامية، في كوالالمبور.

المكتبة الوطنية بباريس لكي يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية لأحد أعماله الروائية[1].

إن المهمة التي ندبنا أنفسنا لها تستحق المصابرة والعناء والبذل الذي لا يعرف الكلل ما دام المقصود رضوان الله ـ تعالى ـ وتبليغ كلمته.



(١) مجلة البيان العدد: ٢٩ ص٥٦ من مقال للدكتور مصطفى السيد.

(٢) مفاهيم أساسية في بنية الثقافة وانتشارها وتغيرها

يتشبع المرء بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وتتحول المفاهيم الثقافية إلى عادات ومسلَّمات يخضع لها الفرد دون كثير نقاش، وكثير منها يظل خارج منطقة الوعي؛ فلا يوجه إليها أي نقد أو تقويم. وإن غاية مطمع الدعاة والمصلحين هو جعل الإسلام بأحكامه وأخلاقه وآدابه ثقافة للناس يتفاعلون معه ويمتثلون له على أنه جزء من كينونتهم ومزاجهم وهواجسهم وآمالهم، وإن كثيراً من ذلك حاصل اليوم بحمد الله لدى كثير من الشباب الصالح الذي ربط مصيره ـ بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ـ بمصير الإسلام؛ فهو يعيش له ويعيش همومه وآلامه، ويفرح لظهوره واتساع سلطانه. . .

لكن العمل الثقافي والدعوي يستمد معايير نجاحه من قدرته على الاتساع الدائم والوصول إلى عقول وقلوب جديدة، وهذا يحتاج إلى جهاد مستمر لا يعرف الكلل ولا الملل. وبإمكان بعض الأفكار والمفاهيم أن تساعدنا في تسهيل الانتشار الثقافي المأمول من خلال التعرف على شيء من طبيعة الثقافة، والتعرف على بعض الخبرات والمعلومات المستفادة في حقول امتدادات الثقافات، والمقاومة والمشكلات التي تواجهها؛ ولعلنا نلخص ما نرمي إلى الحديث عنه في نقاط محددة؛ حتى لا يطول بنا الحديث، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: في البنية الثقافية:

أ ـ الثقافة ضمانة أساسية لاستمرار الأمة:

إن الثقافة من أكثر الجوانب الاجتماعية تجريداً وأقلها ملموسية، حيث

توجه السلوك بطريقة غير مرئية أو محددة بشكل واضح، ومن ثم فإنها تشكل الدائرة الأكثر ليونة في النسق الاجتماعي، وهي لهذا السبب تستمر لفترة طويلة، وتستعصي على محاولات السيطرة من أية جهة كانت داخلية أو خارجية؛ فمن السهل على المستعمر أن يغتصب أرض فلاح، أو أن يهدم جامعة، لكنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من التراتبية الاجتماعية أو رموز التواصل الأهلي[1].

ومن جهة ثانية فإن الأفكار التي لا يمكن تحويلها إلى سلوك، أو لا يسمح لها بأن تصبح كذلك تظل قليلة النفع إن كانت خيرة، وقليلة الخطر إن كانت شريرة؛ مما يعني أن المحك النهائي لنفوذ الأفكار هو قدرتها على الدخول إلى الرموز الثقافية للشعب وصيرورتها جزءاً منها. وهذا وذاك يدفعان بنا إلى أمرين:

الأول: هو ضرورة إدخال الإصلاحات المطلوبة على الثقافة الشعبية بحيث تصبح موافقة للهدي الرباني، وذلك بإزالة البدع وأنواع الجنوح التي تراكمت عليها عبر عصور التقهقر والغفلة، إلى جانب تقوية الصالح منها من كل ما يدل على المشاركة والتضامن الاجتماعي في الأفراح والأتراح والمناسبات المتعددة، وإرساء تقاليد وعادات جديدة في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ومساعدة الضعيف...

الثاني: يتمثل في محاصرة الأفكار الفاسدة والمنحرفة وإلجائها إلى أضيق السبل، وعدم إفساح المجال لها لتأخذ سبيلها إلى الحياة اليومية؛ ومن هنا جاءت النصوص العديدة التي تحث على ضرورة بقاء (الشارع) في بلاد المسلمين نظيفاً من المخالفات والموبقات، حتى لا تتسلل المنكرات إلى الثقافة الشعبية، وتصبح من النماذج التي تنشأ عليها الأجيال.

لكن هذا لا يجوز أن يدفعنا إلى الظن بأن التماسك والنقاء الثقافي يمكن أن يستمر بجهود معزولة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية للأمة،

---

(١) انظر الوعي الذاتي: ٩٦.

وإنما الصحيح أن ذلك يجب أن يكون من جملة ما ينبغي عمله على صعد الحياة كافة.

ب ـ الثقافة كلٌ معقَّد متكامل:

تبدو الثقافة عشوائية بعيدة عن التنظيم والترابط، وهذا يتبدى لنا بسبب ما ذكرناه من كون الثقافة النسق اللين والخفي الذي يعسر التعبير عنه. لكن الدراسات والتجارب في (الأنثروبولوجيا) الثقافية أثبتت أن ثقافة المجتمع في واقعها الشكلي والحركي هي كل معقد تترابط أجزاؤه وتتكامل إلى مدى لا يسمح بفهم أي منها بمعزل عن الأجزاء الأخرى[١].

فالسلوك الاقتصادي للإنسان لا ينبغي أن يُفسر على أساس المصالح والمنافع والرغبة في جني الثروة، وإنما هو سلوك خاضع لكل الأنساق الثقافية السائدة من مثل معتقد الإنسان وحرصه على التقدير، ومدى الصلات والارتباطات القرابية، إلى جانب شدة خضوع الفرد للجماعة وشدة خضوع الجماعة لمبادئها، كما يخضع للأنظمة والقوانين السائدة، وبعد هذا وذاك إلى الخلفية المبرمجة في ذاكرته عن الرخاء والقحط والفُرَص والمحن....

وهكذا السلوك السياسي والاجتماعي والأخلاقي، كل ذلك لا يعتمد في حركته على مشخصاته ومقوماته الخاصة، وإنما أيضاً على معطيات وأحكام باقي الأنساق الأخرى.

وبناء على هذا فإن أي تغيير يتم إدخاله على أي نسق من أنساق الثقافة ينعكس عل الأنساق الأخرى بحسب طبيعته من الصلاح والفساد، فالأحوال الاقتصادية السيئة ـ مثلاً ـ ستترك لا محالة أثرها في التربية والأخلاق والعمل والصلات بين الناس، وإمكانات التحرك والتعلم ومسألة الوقت والفراغ... إلخ.

ومن جهة أخرى فإن الثقافة حين يصاب أحد أنساقها بالعطب فإنها تقوم

---

(١) مفاهيم علم الاجتماع الثقافي: ٩٦.

بالاعتماد على الأنساق الأخرى؛ كي تحفظ توازنها، ففي حالات الكوارث والزلازل تعتمد على الجانب الأخلاقي والعقدي ورموز المعروف والإحسان المعتمدة لديها. وحين يحجر على جزء من أجزاء الثقافة الرئيسة، أو تضبط بضوابط خارجة عن ذاتيتها فإن الثقافة تصاب آنذاك بما يمكن أن يسمى بـ(الحرون) الثقافي، وذلك إظهاراً لتضامنها مع الجزء المحظور واحتجاجاً على التعسف الذي يمارس ضدها.

والذي نستفيده من وراء هذا المفهوم هو ضرورة فهم القصور والخلل في أي جانب من جوانب الحياة ومدى انعكاسه على الجوانب الأخرى؛ كما أن من الضروري لأي عمل إصلاحي ودعوي أن يأخذ في حسبانه ضرورة الرؤية الإصلاحية الشاملة لكل أنساق الثقافة؛ حتى تصل الأمة إلى العافية المرجوة.

جـ- تتكيس الثقافة كما يتكيس الكائن الحي:

يتمثل (التكيس) بالنسبة للكائن الحي في تقليل أو وقف علاقاته مع بيئة غير مواتية مع احتمال إعادتها عندما تتحسن الظروف. وذلك هو حال الإنسان اليائس من مجتمعه والمحاط بالظروف السيئة، فإنه ينفض يديه من كل مشكلات العالم، ويلجأ إلى بيته يحصنه، كما يرفض الالتزام أو المشاركة في شيء. البذور عندما تعجز عن الهروب في الفضاء تبتدع (استراتيجية) تتيح لها التحرر من قيود البيئة بـ(التشرنق) في وسط محمي والإبقاء على المبادلات الخارجية عند أدنى حد ممكن. ويُعد ذلك في الواقع هرباً من الزمن. إن البذرة يمكنها على هذا النحو أن تنتظر سنين بل قروناً إلى أن تحين ظروف مواتية للإنبات[1].

هذا الوضع ينطبق على (الثقافة) فهي حين تتعرض إلى تهديدات خطيرة تعجز عن مقاومتها، أو تعجز عن فهمها واستيعابها، تقوم بالتكيس والانكماش على نفسها إلى أن تمر العاصفة، أو تتمكن من إعادة ترميز الأحداث الجديدة والاستعداد للتعامل معها.

---

(١) انظر عودة الوفاق: ١٥٣.

هذه الحالة وإن كانت رمزاً للقدرة على الاستمرار إلا أنها في الوقت نفسه دليل على سوء الأحوال؛ وحين دخل المسلمون في عصور الجمود والتقهقر انكمشت لديهم ملكات الإبداع والمبادرة والاجتهاد والثقة بالنفس والمغامرة والإقدام، وساد فيهم حب التقليد والخوف من كل جديد، إلى جانب الشك والسلبية والرضا بما يقيم الأود، والبقاء على الحد الأدنى من الحياة.. وكان ذلك كله تعبيراً عن (تكيس) ثقافتنا وتعرضها للتدهور والضمور.

وحين جاءت الموجة الحضارية الجديدة الكاسحة كنا مخيرين بين أمرين، أحلاهما مر؛ فإما أن ننفتح ونقبل بالاندماج في حضارة غريبة عنا، وإما أن ننكمش إلى أن تجدَّ ظروف أفضل، وفي المسلمين من أخذ بالخيار الأول، فضاعوا، وفيهم من اختار الانتظار والانغلاق، فجمدوا، وتطاول عليهم الأمد، فازدادوا عجزاً عن الفهم والاستيعاب والتكيف. وقد آن الأوان للعودة إلى ذاتيتنا؛ لنستخرج خير ما فيها؛ فنطوره وننميه، ونواجه به العالم كله بثقة واطمئنان.

إن شيئاً من تحسن الأحوال سوف يخفف من سلبية كثير من المسلمين، وقد بدأنا نشعر بذلك بعد أن امتصصنا الصدمة، وبهت بريق الحداثة الخادع، وبعد أن اكتشفنا شيئاً من جوهرنا المخبوء.

د ـ التبادل يحمي الثقافة من الذبول:

البنية الثقافية تسعى بطبعها إلى شيء من الثبوت؛ حتى تتمكن من البقاء قاسماً مشتركاً يقوي من النسيج الاجتماعي، ويصوغ في الوقت نفسه المعايير الاجتماعية الخفية واللامكتوبة؛ لكن الثقافة لا تستطيع أن تثبت في أجواء سريعة التغير؛ لأن ذلك سيجعلها تبدو متخلفة وغير عملية؛ ومن ثم فإنها تسعى إلى أن تجمع بين الثبات والتغير والتقليد والتجديد، والانفتاح والانغلاق في آن واحد، أي أنها تحدث نوعاً من التوازن الذاتي؛ كي تتمكن من القيام بوظائفها، والمحافظة على زخمها. وحتى تمتلك الثقافة القدرة على إحداث ذلك التوازن فإنها بحاجة إلى أن ندعمها من خلال توفير أطر

للمناقشة والحوار والنقد، والنقد المضاد؛ إلى جانب أطر للتجديد والتبادل الثقافي مع الثقافات الأخرى. في بعض الأحيان تتجلى عظمة الثقافة وحيويتها في قدرتها على العطاء والتأثير في الثقافات الأخرى؛ لكن هذا ليس سوى وجه واحد للمسألة، والوجه الثاني يتمثل في قدرة الثقافة على امتصاص النافع والجديد من الثقافات الأخرى حتى لا تتعرض إلى التأسن الداخلي. وحيوية الجسم تقاس بقدرته على بذل الجهد وقدرته على امتصاص الغذاء، والتفاعل مع الدواء، في آن واحد، كذلك الثقافة تقاس حيويتها وعظمتها.

وإن مما شرطه عصر الاتصال الكوني أن الثقافة لا تستطيع أن تحافظ على هويتها وخصوصيتها إلا من خلال عمليات التبادل النشط الذي تقوم به؛ وذلك التبادل بالنسبة للثقافة أشبه ما يكون بالحركة بالنسبة للعضلة؛ فقوتها وفتوتها مرهونتان بمدى الحركة التي تقوم بها، وليس التبادل الثقافي ضرورياً لبقاء الثقافة حية نشطة فحسب، وإنما هو ضروري لامتصاص التوترات الاجتماعية والسياسية التي يوجدها اشتمال المجتمع على رؤى وطموحات ورغبات متفاوتة. ومن ثم فإن الانغلاق والتقليد هو الذي يعصف بالتضامن الاجتماعي وليس الاجتهاد والانفتاح، كما قد يُتوهم.

من خلال التبادل تكتشف الثقافة الأجزاء الخاملة والمعطوبة فيها، والتي صارت عبئاً عليها، فتتخلص منها، كما أنها تكتشف ما هي بحاجة إليه للإبقاء على بريقها وجاذبيتها؛ فتطرح من خلال التبادل والتفاعل الثقافي والاجتماعي كثيراً من الأفكار والعادات والسلوكات التي لم تعد تتفق مع نسقها العام وبنيتها العميقة؛ كما أنها تكتسب مفاهيم ورموزاً جديدة هي بأمسّ الحاجة إليها.

فعلى سبيل المثال كان الناس قبل انتشار الوظائف وحياة المدن الدقيقة والمعقدة - يتزاورون دون مواعيد سابقة، وكان من المألوف أن يجلس الضيف أياماً عديدة دون أن يكون من اللائق سؤاله عن حاجته، أو إظهار شيء من البرم من طول إقامته، لكن الناس في المدن قد تخلصوا من هذا بشكل قاطع؛ فازدحام الواجبات ما عاد يسمح بالجلوس أياماً في مواجهة

إنسان آخر، وكذلك طبيعة الارتباط الوظيفي، كما أن أكثر مساكن المدن لم تعد مهيئة لاستقبال الضيوف أياماً؛ وهكذا وفَّقت ثقافة المدن بين مختلف متطلبات انسجامها الضروري وتخلصت من كل ما يعكره؛ لكن الناس في البادية والعديد من القرى لم يستوعبوا بعدُ التنظيمات الثقافية الجديدة؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يبدون التذمر من هذا الذي وقع، ويتصرفون كما لو أن شيئاً من ذلك لم يحدث فيسببون الحرج لإخوانهم، ويظهرون أمامهم في الوقت نفسه بمظهر الذي يعيش في غير زمانه. لكن التبادل الثقافي الحر والمفتوح سوف يوحد ثقافة القرية والبادية مع ثقافة المدينة، ويجعل كل واحد من سكانها يبدو لائقاً في نظر الآخر.

هـ ـ عجز الثقافة عن تلبية حاجات المجتمع:

ذكرنا أن الثقافة كلّ معقد وأن هناك ترابطاً حميماً بين أنساقها المختلفة، ونظراً لأن العلاقة بين الواقع الاجتماعي، وبين الثقافة علاقة جدلية، تعطي الثقافة من خلالها، وتأخذ، فإن انعكاسات الواقع على الأنساق الثقافية متفاوتة؛ ومن ثم فقد يتقدم أحد الأنساق على حين يظل نسق آخر جامداً أو متخلفاً؛ فقد تقدمت التقنية والأساليب الصناعية والمستويات المعرفية عامة في العالم كله تقدماً باهراً لكن التقدم على الصعيد الاجتماعي والسياسي كان محدوداً جداً، وهذا واضح إلى حد بعيد في دول ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي. وحدوث تقدم في أحد الأنساق حين يكون سريعاً أو يُراد له أن يكون معزولاً، يؤدي إلى تفكك الثقافة وعجزها عن جعل نفسها مصدراً للرضا الاجتماعي وحافزاً على العمل المنتج.

إن المشكلات التي يمكن أن تؤدي إلى تفكيك الثقافة، وبالتالي تخلفها عديدة يمكن أن نذكر منها مشكلتين:

أ ـ افتتان الصفوة بثقافة أجنبية حيث يسعى بعض المثقفين ـ باعتبارهم الممثلين لثقافة الأمة أمام الثقافات الأخرى ـ إلى نقل أفكار وأنماط ثقافية أجنبية يرونها ضرورية للنهوض بثقافتنا، والناس ينظرون إلى النخبة عادة نظرة ارتياب، كما أن كل ثقافة تملك حساسيات ورموزاً داخلية تؤمن لها نوعاً من

الحصانة من كل أجنبي على نحو ما يصنع الجسم ضد الأجسام الغريبة؛ ومن ثم فإن الثقافة الشعبية ترفض الجديد الوافد ـ ولو مؤقتاً ـ لكن النخبة يصرون على فرض ما أعجبوا به من مفردات ثقافية أجنبية؛ مما يؤدي إلى نوع من الانقسام داخل الثقافة وانشغالها بحرب داخلية توهن الجميع.

ولطالما جفل الوعي الإسلامي من ثقافات الإلحاد والعري والإباحية وتحقير الذات وتعظيم الكفر والقوانين العلمانية المختلفة...

ب ـ التناقضات الثقافية الداخلية، وينبغي أن يقال أولاً: إن كل ثقافة من الثقافات تشتمل على عدد من التناقضات والتوترات، وهي ليست ظواهر مَرَضية إذ إن السكون موت بطيء، والتوتر الثقافي دليل على حيوية الثقافة وأهليتها للنمو والعطاء؛ لكن الذي يحدث أن التخلف الحضاري حين يكون واسعاً يؤدي إلى زجِّ الثقافة في تناقضات يصعب عليها تجاوزها وحلها، على نحو ما نجده الآن من القطعية الثقافية بين الماضي والحاضر والذات والآخر والمبادئ والمصالح...

بعبارة أخرى تواجه الثقافة تناقضات حادة غير مؤطرة، وتفقد أية أرضية مشتركة أو مدخل توفيقي، وكيف يمكن إيجاد أرضية مشتركة بين الإيمان والكفر وبين من يرى الماضي عطاءً زاهراً وبين من يراه سُبَّةً وعاراً...

وهذه التناقضات يزداد خطرها حين تكون الثقافة فاقدة للفاعلية التنظيمية التي هي أداتها الرئيسة في دمج عناصرها الثقافية وصبغها بصبغة واحدة. والفاعلية التنظيمية تتولد من وعي الثقافة بنفسها، وبمشكلاتها وطاقاتها، كما تتولد من المغامرة الحضارية التي تخوضها، ومدى ما يمكن أن تحققه فيها من نجاح.

وهذا كله لا يتأتى إلا من خلال سير الأمة في طريق النهوض الحضاري، ومن خلال التبادل الثقافي الواعي.

ثانياً: الانتشار الثقافي:

أ ـ الأزمات تسهل عمليات النقل الثقافي:

حين تصاب أمة من الأمم بأزمة، أو تمر بأحوال طارئة فإن ذلك

ينعكس على ثقافتها، ولا سيما في حالات استمرارها فترات طويلة، ويصبح وضع الثقافة أشبه بوضع الجسم العليل الواهن في انخفاض مناعته وضعف مقاومته للفيروسات والأجسام الغريبة. إن وجود أزمات كبرى كأزمات الشقاق الاجتماعي أو التخلف الحضاري أو الركوع أمام مستعمر دخيل، تزرع في نفوس أفراد الأمة الإحساس بوجود قصور ما وأن أخطاء كبرى ارتكبت. وصحيح أن كثيراً من الناس يتجهون إلى نقد المواقف أو يركزون على أثر قصور أو انحراف بعض الأشخاص لكن الصحيح أيضاً أن المفكرين ومثقفي النخبة سوف يتجهون بالنقد واللوم إلى (الثقافة) السائدة التي تسببت في حصول أو استمرار الأزمات، وهذا يضعضع من مكانة الثقافة في نفوس أفراد المجتمع، كما أن استمرار الأزمة يوقع الثقافة نفسها في ارتباك، ويجعل حساسيتها تجاه الوافدات الأجنبية ضعيفة؛ وأيضاً فإن الناس يحاولون التماس حلول لمشكلاتهم؛ فيتلفتون إلى كل صوب واتجاه؛ لعلهم يجدون الأفكار والنظم والأشياء التي تساعدهم في تحسين الأحوال.

وحين يصاب نسق أو مجال من مجالات الثقافة بانحباس أو نوع من العطب، فإن الثقافة تأذن له بأن يجدد ذاته، ويوجد حلوله من خارجها حتى وإن كانت تلك الحلول غير متناسبة مع مزاجها العام وتوازناتها العميقة. فالأمريكان لا يجدون أدنى حاجة إلى الثقافات الأخرى في مجالات الفنون وأفكار الإنتاج ومراسم الطعام واللقاء... لأن بلادهم لا تعاني من أزمة في هذه القضايا؛ لكننا في مجالات العقائد حيث العدميةُ والحاجةُ الماسة إلى صلابة اليقين نجد انتشاراً واسعاً للمذاهب والعقائد الدينية التي لا يعدو أكثرها أن يكون ضروباً من الخرافة والشعوذة.

ولا نجد في المقابل من المسلمين من يعتنق اليهودية أو النصرانية ـ إلا إذا استثنينا الفقراء والجهلة الذين يستغلون من قبل المبشرين ـ لأن المسلمين يحسون بنقاء عقيدتهم وصدقها وصلاحها.. لكن في مجالات النظم والقوانين واللباس وعادات الطعام... نجد العكس حيث إن التخلف العام الذي تعيشه الأمة يدفع إلى تقليد الآخرين والاستعارة منهم.

وهذا كله يعني أننا سنظل نشكو من الغزو الثقافي ما لم نحقق نوعاً من النقلة الحضارية الصناعية المناسبة.

ب ـ العناصر الثقافية الظاهرة تنتقل أولاً:

بما أن الثقافة تحاول باستمرار أن توجد نوعاً من التوازن الداخلي بين عناصرها المختلفة، فإن كل ما نراه من العادات والتقاليد والمصنوعات والأفكار والرموز. . . يخضع لفاعلية تنظيمية خفية تحقق نوعاً من التناغم بينها، وهي إلى جانب ذلك ترتكز على مفاهيم ومعان غير مرئية تمثل في مجموعها النَّفْس الأولية للثقافة. وحين تبدأ أمة أو مجتمع باستعارة بعض العناصر والأنماط الثقافية من مجتمع آخر فإنها في البداية لا تستطيع أن تلمس ما تحت السطح من تلك الثقافة حيث إنه يكتسب خصوصية فريدة، ويعسر نقله إلا بعد مدة طويلة، ومن خلال شروط خاصة عديدة؛ ولذا فإن الأمم تستعير من بعضها في البداية ما يمكن تصنيفه تحت (الفولكلور)، وما هو من قبيل الصناعات والآلات والأثاث، وما شابه ذلك، ثم لا تفتأ هذه المستوردات أن توجد لها في الثقافة المستعيرة مجالها الروحي والفكري الخاص الذي يدخل في صراع مع المجالات الروحية الأصيلة في الثقافة والشخصية الاجتماعية. والتطبيقات على هذا المفهوم أكثر من أن تحصى؛ فقد قلد كثير من دول العالم الثالث الغرب في التقاليد السياسية والحزبية؛ فنقلوا أشكالاً ومباني ظاهرية لكن روح الممارسة ظلت في بلادها!

وذهب كثير من أبنائنا إلى الغرب، ونقلوا أفكاراً وفنوناً، وتلقوا تدريباً فنياً وصناعياً عالياً لكن لم يستطيعوا أن ينقلوا روح الشغف بالعلم ولا روح الصبر عليه ومعاناته؛ لأن ذلك لا يتم نقله بسهولة؛ وفي بعض الأحيان يكون مستحيلًا!. واستوردنا السيارات وفيها (أحزمة الأمان) لكننا لم نستخدم تلك الأحزمة ـ إلا ما ندر ـ لأن فلسفة التوقي من الأخطار الموجودة عندهم لم نعرفها، وربما ننكرها.

وهكذا يمكن القول إن روح الثقافة وماء حياتها شيء لا ينقل، وإنما علينا أن نبدعه نحن من خلال فاعليتنا ورموزنا الخاصة.

جـ ـ الطبقات الدنيا تسارع إلى نقل العناصر المادية[1]:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من مثقفين وعامة، والمثقفون درجات والعامة أيضاً درجات، وقد تبين أن الطبقات الدنيا في المجتمع ممن حظهم من الفكر والعلم محدود تسارع إلى نقل وقبول العناصر المادية من الثقافات الأخرى، كالسلع والمنتوجات والأزياء والكلمات السوقية، وما شابه ذلك مما يبدو مبتوت الصلة بالعقائد والأفكار، ومما يبدو كذلك نافعاً وممتعاً وجميلاً. . .

أما الطبقات العليا ـ ولا سيما أهل الثقافة العليا ـ فإنهم عادة يتقبلون الأفكار والفنون وبعض التقاليد الدالة على السمو والرقي، ولا يبدون ولعاً بالسلع والمنتجات كما تفعل الشرائح الدنيا. والسبب في هذا أن (الثقافة الشعبية) هي من الليونة والغموض في وضع يجعل اختراقها عن طريق الفكر صعباً، ومن ثم فإن اختراقها عن طريق (التبادل التجاري) هو الطريق الأسهل والأقصر. أما الثقافة العليا فإنها تكونت بطريقة واعية ومنطقية وتراكمية؛ مما يجعل اختراقها سهلاً بنفس الطريقة التي تكونت بها، أي عن طريق الإشعاع الفكري والرمزي.

وهذا ما يفسر لنا بوضوح استخدام منتجات الحضارة بكثافة هائلة، على حين أن الأفكار التي تبني الحضارة ما زالت لدينا محدودة؛ وذلك بسبب قلة المثقفين والمفكرين الأصلاء في ديار الإسلام إذا ما قيسوا إلى العامة وأشباههم وإلى المفتونين بثقافة الغرب وأفكاره.

ثالثاً: في التغير الثقافي:

أ ـ الثقافات في تغير مستمر:

لا تعرف الثقافات الجمود؛ إذ ليس من المألوف أن يكبر الإنسان، ويجد نفسه يعيش في عين الجو الثقافي الذي ولد فيه؛ حيث إن العناصر الثقافية المختلفة عبارة عن أنظمة مفتوحة تتأثر بالتغيرات البيئية، كما أنها تتأثر

---

(١) مفاهيم علم الاجتماع الثقافي: ١٦٤.

بالوافدات الأجنبية، وما تمليه ضرورات الحياة من صنوف التكيف التي لا حد لها؛ لكن ربما كانت بعض المجتمعات تطور ثقافتها بصورة أسرع مما هو موجود لدى مجتمعات أخرى؛ ويساق عادة المجتمع الأمريكي نموذجاً على التغير السريع، لكن لا توجد ثقافة لا تتغير.

وبالتجدد تتمكن الثقافة من جلب النافع والتخلص من القديم الذي فقد وظيفته، أو بات غير مفيد؛ فكل المجتمعات تقريباً طرأ على ثقافتها في التعامل مع (الوقت) ـ مثلاً ـ تغير واسع بحسب تعقد مصالحها ودرجة تقدمها الصناعي، كما أن كل الثقافات قد حدث فيها تغير في مسائل (التضامن الاجتماعي) وفي مجال (العلاقة بالأشياء) حيث خفت درجة التلاحم والتآزر بين الناس، كما أن علاقتهم بالمنتجات صارت علاقة استهلاك، وليست علاقة حفظ وصيانة. إن التغير الثقافي يظل محكوماً في سيرورته وشدته بمدى تقبل العقل الجمعي وتمثله له وتكيفه معه[1]. ويمكن القول إن من العوامل المؤثرة في شدة التغير الثقافي عاملين:

الأول: هو ضيق المجتمع واتساعه؛ فالتغير في المدن الكبرى أسرع منه في الهجر والقرى؛ حيث تكون الرقابة الاجتماعية أشد، ويكون الحرص على السمعة أكثر؛ مما يجعل أفكار التغير الثقافي لا تجد مجالات تحققها في سلوك الناس. والثاني: هو مدى التنوع في النماذج والعناصر الثقافية الأساسية، حيث إن المجتمعات التي لا يعتنق أبناؤها إلا ديناً واحداً ـ مثلاً ـ أقل سرعة في تغيرها الثقافي من تلك التي تعيش فيها ديانات متعددة؛ إذ يستلزم عيشها مع بعضها كثيراً من ألوان التكيف. والتغير الثقافي تغير محايد لا يحمل أي معنى معياري؛ فقد يكون نحو الأفضل، وقد يكون نحو الأسوأ.

بقي أن نقول: إن سرعة التغير الثقافي تجعل تكاملَ الثقافة أمراً نسبياً، كما أن سيطرة الناس عليها تصبح محدودة، وهذا ربما أدى إلى نوع من

---

(١) انظر السابق: ١٠٧ وما بعدها.

التمزق الاجتماعي؛ حيث يصبح إحساس الناس بهيمنة الثقافة وبثها للتلاحم ضعيفاً؛ وهذا ما تعاني منه الدول المتقدمة.

ب ـ الشباب يتقبل التغير الثقافي أكثر من كبار السن:

كل تغير ثقافي يلقى نوعاً من المقاومة في بداية الأمر؛ فالثقافة حتى تؤدي وظائفها تسعى إلى نوع من الثبوت والاستقرار؛ وقد أثبتت الخبرة التاريخية والدراسات الحديثة أن الشباب يتقبلون التغير الثقافي والجديد من الأفكار والعادات أكثر من المتقدمين في السن؛ فقد كان أكثر الذين قبلوا دعوة النبي ﷺ شباباً، كما أن أكثر الذين تفاعلوا مع الصحوة الإسلامية المعاصرة هم أيضاً من الشباب. ويمكن أن نعيد هذه الظاهرة إلى أربعة عوامل:

١ ـ لا يكون التكوين الثقافي لدى الشباب مكتملاً مهما حصَّلوا من العلم؛ لأن بعض عناصر الثقافة لا تتم السيطرة عليه واستيعابه إلا من خلال شيء من نضج التربية الحياتية؛ وهذا يعني أن المسلَّمات الثقافية لدى الشباب ليست حادة ولا مكتملة؛ فهي لم تأخذ أبعادها النهائية؛ ومن ثم فإن الجديد يُستوعب لدى الشباب على أنه إضافة لما لديهم، وليس نسخاً أو تغييراً لما عندهم.

٢ ـ يتحلى الشباب بالمرونة الذهنية بسبب حداثة السن؛ فالإنسان تتصلب آلية التفكير والاستيعاب والتكيف لديه على نحوٍ يحاكي تصلب الجهاز الحركي عنده؛ ومن ثم فإنه كما يكتسب عادات صارمة في الأكل والمشي والكلام... يكتسب أيضاً عادات صارمة في الفهم والتمثل والاقتناع؛ مما يصعب معه قبول الجديد.

٣ ـ عند تقدم السن يصيب النفس البشرية نوع من السآمة والتكلس، كما أن الانفعال والتفاعل مع الجديد تنخفض درجته إلى حد بعيد، وكذلك التطلع إلى المستقبل يخف أو ينتهي بسبب الإحساس بأن ما بقي من العمر لم يعد كافياً للقيام بأية مشاريع. يضاف إلى هذا أن ضعف السمع والبصر لدى

الطاعن في السن يؤدي إلى عزلته عن المحيط والتبادل معه.

٤ ـ ليس للشاب ـ في العادة ـ مصالح ومنافع مرتبطة بالأوضاع القائمة، فهو ما زال هش الارتباط بالحياة كلها؛ ومن ثم فإنه لا يرى في الجديد خطراً على ما استحوذ عليه من نفوذ أو متاع ضئيل. أما كبار السن فشأنهم مختلف؛ ومن ثم فإن بعضهم لا يرفض الجديد للحفاظ على مكاسبه من الوضع الراهن فحسب، وإنما هو على استعداد لارتكاب جريمة إذا اقتضى الأمر؛ فمجاله الخاص مرسوم بعناية، والعدوان عليه من أي جهة أو فكرة يقتضي الرد بصورة حاسمة.

ومن هنا فإن تركيز الدعاة والمصلحين على الشباب عمل منطقي وعلمي، فهم رمز المستقبل وأمل التجديد.

جـ ـ عوامل التغير الثقافي عديدة ومعقدة:

هناك حقيقة ليست موضع جدل، وهي أن الحتمية الثقافية أقل صرامة من الحتمية الجينية، ومن ثم فإن تفسير الظواهر الثقافية والتنبؤ بسيرورتها وتطورها يظل صعباً وقاصراً؛ إذ إن كثيراً من العوامل المؤثرة في التغير الثقافي هي أيضاً متغيرة ومتشابكة مع بعضها بعضاً، ويمكن أن نلحظ من تعقيد عوامل التغير ومظاهره ما يلي:

١ ـ لا يفسر تغير ما إلا في ضوء تغير آخر؛ فانتشار الجريمة في مجتمع لا يكون بسبب وجود نزعة عدوانية فحسب، فالنزعة موجودة من قديم لكنها لم تؤد إلى فشو الجرائم؛ إذن قد يكون هناك قصور اجتماعي أو ظلم أو تفكك أسري أو انهيار اقتصادي... أدى إلى أن تنشط النزعة إلى العدوان، ولذا فإن علينا أن نبحث عن أكثر من عامل واحد.

٢ ـ استجابة الشعوب للتحدي وتطويرها لثقافتها لا يقع نتيجة وجود خطر معين فالحافز الواحد يلقى استجابات عديدة؛ فاليابانيون يعللون النشاط المنقطع النظير في أداء أعمالهم بالخوف من الجوع؛ لأنهم إن لم يعملوا بهذه

الطريقة فلن يجدوا الطعام! . وهذا قد يكون صحيحاً. لكن في المقابل هناك شعوب أفريقية وآسيوية طحنها الجوع، وخطف الموت بسببه مئات الألوف من أبنائها دون أن تتحرك للعمل بعشر الهمة التي يتحرك بها الشعب الياباني. ومن ثم فإن الإجابة على التحدي لا تحددها طبيعة التحدي، وإنما الظروف التي يعيش فيها من توجّه إليهم التحدي.

٣ ـ يتخذ التغير الثقافي شكلاً خادعاً في أحيان كثيرة حيث يبدأ التغير بشكل خفي من خلال التغير في المضامين والمعاني وبقاء الأشكال الثقافية خاوية من أي مضمون. ويمكن القول: إن أكثر حالات التغير الثقافي تكون بهذه الصورة؛ فالرقابة الاجتماعية تنصبُّ دائماً على الشكل، مما يجعل المضامين حرة في حركتها؛ ولذا فإن النمط الثقافي حين يفقد وظيفته أو القدرة على الإقناع بنفسه يظل محافظاً لمدة طويلة على وجوده، كما تحافظ الشجرة اليابسة على قوامها مع أن الحياة قد غادرتها!

وتكون المرحلة التالية التخلي عن ذلك الشكل الذي يتحول إلى عبء؛ فكثير من أشكال التواصل الاجتماعي وزيارة الأرحام والأقرباء صار اليوم غير ذي معنى، كما أن كثيراً من ألفاظ السؤال عن الحال وعرض الخدمات على الآخرين لا يملك أي رصيد داخلي، أو ينم عن استعداد للبذل والتضحية، وهذا هو البداية لوقوع القطيعة الاجتماعية.

وهذا كله يعني أن من واجب الدعاة أن يفكروا ملياً في الأساليب والوسائل التي تساعد على بعث الروح من جديد في أنماط كثيرة من ثقافتنا فقدت معناها وحرارتها ووظيفتها بعد أن تسلط عليها الوعي، وكشف خداعها! .



(٣) محاور أساسية في ثقافة عصرنا

لا نريد أن نؤكد على الثقافة الشرعية للداعية؛ إذ إن ذلك شيء بدهي؛ حيث إنها تشكل العمود الفقري لمعلومات الداعية؛ فهي التي تشرَّبها منذ نعومة أظفاره؛ وهي التي ما زال يعاود فيها النظر لأنها جوهر ما يدعو إليه؛ ولأنها تشكل (المرجعية) العامة له في دعوته وتأصيله للجديد وموقفه من الألوان الثقافية الأخرى.

ونحن نعتقد أن الكتابات التي نشرت حول ثقافة الداعية الشرعية كافية في التنبيه على أهميتها، كما أنها تقدم قسطاً جيداً منها لمن يبتغي بناء أو تكميل خلفية ثقافية شرعية؛ لكن القصور الذي نلمسه في ثقافة كثير من الدعاة اليوم يعود إلى مدى المعرفة بالمحاور الثقافية التي تشكل ثقافة العصر الذي نعيشه، وهي محاور أملاها الفكر الغربي وزخم الحضارة الغربية الفلسفي والاجتماعي والاقتصادي؛ لأن الغرب هو الذي يقود العالم اليوم، ومن ثم فإنه استطاع أن يجعل من كثير من مفاصل ثقافته (المرآة) التي على جميع الأمم أن ترى صورتها فيها! ومهما كانت درجة خلافنا مع روح تلك الثقافة وطبيعتها، فإن التعرف على المحاور الأساسية فيها يظل أمراً حيوياً جداً؛ حيث إن ذلك سوف يساعدنا على تأسيس خطاب حي وفاعل يعرف مصادر الوعي الحديث وجوانب أفراحه وأحزانه، كما يعرف المداخل للتأثير فيه وتغييره. وهذه المحاور تمثل العمود الفقري للثقافة الغربية، وهي موجودة بصورة أقل أهمية وانتشاراً في الثقافات الأخرى. ولعلنا نلخِّص أهم تلك المحاور في الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ النسبية:

الشائع المقنن في النسبية هو نظرية (أنشتاين) في الفيزياء الرياضية، وهذه النظرية لم تكن هي السبب في شيوع النسبية في العقائد والأخلاق ومعايير الصواب والخطأ والحق والباطل، وإنما جاءت لتكمل ما كان من قبل أو لتزيده تعميماً عل المجالات المعرفية المختلفة؛ وإنما السبب هو فقد الإطار المرجعي (غير البشري) الذي يضع حدوداً فاصلة بين المتقابلات والمتضادات ونتيجة أيضاً «لتراكم وجهات النظر وتضاربها بحيث استوت جميعها أمام العقل، لا فرق بين حق وباطل وصواب وخطأ، وقد بدأت النسبية تسري في الوعي الأوربي حتى أصبحت جزءاً من نسيجه، نسبية الحقيقة وتغيرها ضد إطلاقها وثباتها، كل شيء متغير وكل شيء نسبي». ووجد الوعي الأوربي في مصدره اليوناني ما يؤكد له نسبيته عند (هرقليطس)، ثم عبر عن ذلك (هيجل) في أن «التغير هو المطلق الوحيد وأن المطلق الوحيد هو التغير..»[١].

ويمكن القول أيضاً: إن إلغاء فكرة (الإلّه) وشطبها من الوعي الأوربي كما هو الشأن عند (نيتشه) وغيره، أدى إلى جعل الإنسان مقياساً لكل شيء فالكون كله مرهون بالنظريات العلمية ذات الفكر والتطور المتتابع، وتلك النظريات اجتهادية أيضاً، والصواب والخطأ فيها نسبي أيضاً. وفي هذا يقول (جيمس بيرك): «فإذا كانت هذه هي الحال فإننا نستطيع القول: إن جميع الأفكار في كل الأزمان أفكار سليمة على قدم المساواة، ولا توجد حقيقة ميتافيزيقية تتصف بأنها فوق عادية ونهائية ومطلقة، كما لا يوجد اتجاه خاص للأحداث. والكون ـ في نهاية الأمر ـ هو ما نقوله نحن عنه. وعندما تتغير النظريات يتغير معها الكون. أي أن الحقيقة نسبية»[٢].

ويرى (بيرك) أن الغربيين استفادوا من النسبية في تحييد الأفكار

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٦٢٨.

(٢) عندما تغير العالم: ٤٣٣.

المتطرفة بكل أنواعها، كما تحفز النسبية أيضاً على جعل الحكم على الأشياء يتم من خلال الوعي بطبيعة سياق قيم الأحكام ذاتها[١]. وإذا كان هذا لا يخلو من شيء من الصحة فإن مشكلة النسبية أنها قد تؤدي إلى ترهل القيم والمعايير، وقد تؤدي إلى شعور بالجوع إلى شيء من صلابة اليقين؛ لأن العقل البشري يصعب عليه أن يعمل بدون إطار مرجعي يمنحه شيئاً من الثوابت والأسس الصارمة. وقد اخترقت نظرية النسبية الثقافة العربية الإسلامية لدى كثير من المثقفين وأنصاف المثقفين، وصرنا نسمع تعبير (الإسلام الشمولي) تتردد في كتب وصحف ومجلات تصدر في ديار الإسلام، وهي لا تذكر إلا في سياق الذم لأن الشمولية واليقين لا يتناسبان مع فكرة (النسبية).

وهذا مع أن الدعاة يفرقون بشكل جيد بين الأحكام القطعية المستمدة من أدلتها اليقينية في الثبوت والدلالة، وبين الأحكام الاجتهادية التي لا تخلو من كسب بشري، وهي بالتالي قابلة للصواب والخطأ. وعلى كل حال فإن انتشار نظرية النسبية بهذا الشكل الهائل يعد تحدياً ليس باليسير في وجه نشر الأفكار والمبادئ الإسلامية التي تتمحور حول ضرورة إسلام الوجه لله في الأمر كله وفق منهجية إسلامية محددة.

٢ ـ التطور:

مع منتصف القرن التاسع عشر تغيرت النظرة إلى الكون؛ فوفقاً للنظرية الكونية المرتكزة إلى كتاب دارون «أصل الأنواع» كان الكون ديناميكياً ومتطوراً يحتوي على كائنات عضوية حية قادرة على التغير من صورة إلى أخرى. وكان رأي بعض العلماء الذين يمثلون المدرسة «الداروينية» مثل العالم الألماني «إيرنست هايكل» أن صورة الحياة العضوية قد تطورت من مواد غير عضوية منذ الأزمنة القديمة من تاريخ الكرة الأرضية[٢]. لم تكن نظرية (دارون) هي البداية في إخراج الوعي الأوربي من أطر النظرة الكونية

---

(١) السابق. . . .

(٢) عندما تغير العالم: ٣٩٧.

إلى إطار النظر المتحول المتطور للكون كله، وإنما كانت البداية الحقيقية لذلك ما تمخَّض عنه الصراع بين العلم والكنيسة من ضرورة تنظيم شئون الإنسان بعيداً عن الدين وعن الغيب بصورة عامة، وتكثف مفهوم التحرر العقلي في تخليص الناس من سلطة الكنيسة وكل المعيقات الذاتية وأشكال القمع الروحي الداخلية التي ارتبطت بها. وصار البديل عن فكرة (الخالق) و(المخلوق) هو كشف وصياغة القوانين التي تحكم كل ظاهرة. وقد حدد (مونتسيكو) ت عام ١٧٥٥م منذ بداية القرن الثامن عشر معنى القوانين باعتبارها العلاقات الضرورية المستمدة من طبيعة الأشياء. وكان هذا عبارة عن إيجاد مستند جديد للعقل غير مستند الغيب والدين. وهذا النظر الجديد فجَّر في الغرب كل أطر المعرفة القديمة وكل مفاهيمها، وهكذا بدأ الإنسان يفقد مكانته باعتباره مركزاً للعالم، كما فقدت الأرض مكانتها باعتبارها مركزاً للكون[١]. وإذا كانت نظرية دارون ليست فاتحة النزعة التطورية لدى الغرب لكنها كانت الضربة الأقسى والمباشرة لإنسانية الإنسان وكانت عبارة ـ كما عبر بعضهم ـ عن محرِّض لعملية «إعادة حيونة». وتركز في حسّ الناس هناك انعدام الفواصل بين الإنسان والحيوان، فالكل أنواع في مغامرة الحياة الكبرى! وأخذ الناس يعوِّضون عن فقدان (مركزهم الروحي) بالعودة إلى حيوانيتهم وسط جو من الصخب والابتهاج، وارتفع شأن الجسد، وأصبح العمل على استمراره عملاً مجزياً، وراجت سوق الصور العارية، وزاد استهلاك الأطعمة، وكل ما يؤدي إلى رفاهية الجسد وصحته[٢].

وإذا كان المسلمون لم ينفعلوا بنظرية دارون حول أصل الإنسان نظراً لعقيدتنا الصارمة في هذا إلا أنهم فتنوا بنظريات التطور في المجال الحضاري الصناعي خاصة، وصار (الثبوت) يدعى جموداً ورجعية، وأصابنا داء الملل

---

(١) الوعي الذاتي: ٢٦ وما بعدها.

(٢) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة: ٣٤، ٣٥. ومن الجدير بالذكر أن دارون أدرك عواقب نظرياته فأبدى بعض المخاوف من نتائجها في كتاب له بعنوان «نسل الإنسان والانتقاء الجنسي» والذي أصدره عام ١٨٧١م.

من كل شيء يصحبنا حتى الأثاث والمتاع الذي بذلنا فيه باهظ الأثمان، وانفتحت شهية لا تعرف الإرواء نحو الجديد مهما يكن نفعه والحاجة إليه!

وهكذا ونتيجة لتعميم نظرية دارون صارت (الأصولية) تفهم ـ عند بعضهم ـ على أنها عالم ما قبل دارون؛ إذ تعني الرفض القاطع لمفهوم التطور حيث تحرص على أن تكون مفاهيمها مطابقة لذاتها وسط بنية في تحول مستمر[1].

ما سبق يحتاج من الدعاة إلى نوع من التفهم والاستيعاب والفرز لما لا يقبل الجمود عما لا يقبل التطوير؛ حتى نبقي على الثوابت والركائز الأساسية مهما كان العصر الذي نعيش فيه، وحتى لا نجمِّد ما ينبغي أن يستمر في التغير والتطور في الأساليب والوسائل والفروع؛ وكل ذلك حتى لا نعيش خارج العصر، ولا نفقد روحه. و«إذا لم يكن للمرء روح عصره ـ كما قال فولتير ـ كان له كل أسباب شقائه».

٣ ـ عصر التعددية:

بانهيار الإطار المرجعي (الدين) الذي يهب الإنسان التصورات الكلية عن الحياة والكون والدنيا والآخرة صار الوعي الأوربي (يتيماً)، ووجد نفسه بين متحارجتين هما الاستعداد لقبول أية وجهة نظر وأي اجتهاد أياً كان مصدره، ومهما تكن معقوليته ومنطقيته، وبين الخضوع لرأي أو مذهب أو فكر واحد يملى على الناس، دون أن يكون من يمليه متميزاً عن الآخرين بأي شيء، وكان الأسلم تجاه هذه الحالة الحرجة هو اختيار التعددية؛ ولما كانت وجهات النظر كلها معقولة؛ إذ إنها جميعاً ترد الكل إلى أحد أجزائه، وليس لأحد الأجزاء فضل على الجزء الآخر تساوت المذاهب، وأصبحت كلها على نفس الدرجة من الصواب والخطأ؛ فقد تكافأت الأدلة ـ كما يقول القدماء ـ وغاب الترجيح؛ فتحولت التعددية إلى مذهب، كما هو الشأن عند وليم جيمس في «عالم

---

(١) السابق: ١٥٢.

متعدد»، وأصبح الخلاف حول الحقيقة هو الحقيقة ذاتها؛ فتأصلت التعددية دون أن يكفر أحد أحداً، وتعددت وجهات النظر دون تحويل إحداها للأخرى. وصار الغرب يزهو بأن حضارته وحدها هي حضارة التعدد والاختلاف. وصارت التعددية أيضاً قوام الحياة السياسية ودعامة الحرية والمساواة[١].

أسهمت حركة الاتصالات الواسعة النطاق والارتحال في الزمان والمكان الذي يعيشه أبناء عصرنا في نشر التعددية؛ حيث أتاحت لكل واحد أن يرى ويسمع ما لا يحصى من الأفكار والآراء والمذاهب ووجهات النظر، كما صار كل إنسان يقوِّم نفسه بالقياس إلى الآخرين[٢]. وهذا كله يؤهل الأذهان والمشاعر إلى قبول ما يصدر عن غيره من أفكار ومواقف.

غزت أفكار التعددية العالم الإسلامي، وصارت هذه الكلمة ذات بريق وجاذبية خاصة لدى النخبة المثقفة، وصار هناك اتهام واسع النطاق لكل المتدينين بأنهم أحاديو التفكير، ويرفضون الآخر، ويضيقون ذرعاً بالرأي الآخر إلى ما هنالك من تهم معلَّبة وجاهزة لكل من يقف موقفاً غير مريح..

وإذا علمنا أن سيادة التعددية كانت نتيجة فقد الإطار المرجعي أدركنا أنها حالة غربية محضة لا يمكن لها ـ بصورتها المعهودة عندهم ـ أن تزدهر في العالم الإسلامي لا لشيء إلا لأنه يؤمن بمبادئ وقيم وأحكام إيماناً قطعياً لا يسمح باختلاط الحق بالباطل وجعلهما في مرتبة واحدة من الصدق والقبول. والتعددية بعد هذا شيء غامض ففرنسا التي تعتبر نفسها عاصمة الثقافة العالمية ـ القائمة على التنوع طبعاً ـ ضاقت ذرعاً بفتيات يغطين شعورهن، وقامت بفصلهن من المدارس..

ومن جهة أخرى فإن قانون التعددية لم يخرج إلى قيد الحياة إلا على أنقاض قانون (الهُوية) وقد بدأت شعوب عديدة تتساءل: من نحن وما هي واجباتنا وحقوقنا وما حدود وجودنا القومي والإنساني... وهذا كله عندما

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٦٢٧.

(٢) عودة الوفاق: ٣١.

يتبلور سيضغط على التعددية، ويضعها من جديد ضمن دائرة الوعي ليعيد النظر في صلاحيتها من جديد.

لا ينبغي أن يفهم من هذا أن التعددية شر خالص؛ فهي على كل حال خير من علمانية تفرض فرضاً على شعوب مسلمة. ثم إن الشريعة الغراء أباحت التعددية ضمن الثوابت والأصول والأحكام القطعية، ومن ثم نشأت لدينا مذاهب فقهية عديدة وما زال فينا من يجتهد في أمور كثيرة، والتعددية التي نؤمن بها هي تعددية «التنوع في إطار الوحدة» وهذا مبدأ كوني.

وعلى كل حال فإن البصيرة بمذاهب الحضارة وقضاياها الكلية أمر ضروري لكل من يريد أن يكون فاعلاً في هذا العصر مؤثراً في توجهاته.

٤ ـ الاستهلاك العظيم:

لم يحدث في التاريخ أن نجح مجتمع بشري في تأمين حاجات الناس وكمالياتهم كما نجحت مجتمعات عالمنا المعاصر؛ فالفتوحات العلمية والتقنية والاستغلالية لموارد البر والبحر وغداً الجو، مكّنت الإنسان من توفير سلع وخدمات لو ذكرت للناس قبل نصف قرن من الآن لظنوها ضرباً من الوهم والخيال.

ونتيجة للإفلاس الروحي الذي لم يسبق له مثيل أيضاً؛ فقد قام الناس بإحلال الشهوات وأصناف المتع محل السعادة القلبية والإشراق الروحي، فبمجرد شعور الإنسان أنه قد تيتم تحوَّل إلى مستهلك وغدا رفع مستوى المعيشة هدف الحياة، كما غدا التقدم الاقتصادي كبير أصنام العصر، ومنذ قرون أخذ مفهوم «التقدم» يتطابق تدريجياً مع النمو الاقتصادي على حين أن ما كانت تبشر به الديموقراطيات الغربية هو العدالة الاجتماعية وتعميم السعادة على الجميع، وذلك في منظور الغرب لا يتحقق إلا من خلال التوسع الاقتصادي[١]. وهكذا تم اختزال (التقدم العام) وهو بالطبع مادي وروحي إلى النمو الاقتصادي وحده. وكان هذا يعني تمحور أنشطة الحياة كلها حول

---

(١) عودة الوفاق: ٤٤.

هدف أعظم نهائي، هو: مزيد من العمل من أجل مزيد من الإنتاج من أجل مزيد من الاستهلاك من أجل المزيد من السعادة.

لم يكن الاندفاع نحو الاستهلاك العظيم ناجماً عن التعويض عن انهيار المركز الروحي للإنسان الغربي فحسب، بل كان إلى جانب ذلك نتيجة الرغبة في استمرار وتيرة النمو التي تخضع لها اقتصاديات البلدان المتقدمة تقنياً من أجل إيجاد احتياجات جديدة وتنشيط الرغبة في تلبيتها باستخدام الدعاية وفتح أسواق تصدير جديدة وخفض مدة بقاء السلع[1].

ويلخص أهمية الدعاية في الأعمال التجارية قول أحدهم: «لو كان لي عشرة دولارات لاتجرت بواحد منها وأنفقت الباقي في الدعاية»! وتذكر بعض الأرقام أن أمريكا أنفقت في العام المنصرم ٨٤ مليار دولار في الدعاية والإعلان عن السلع والخدمات، وهذا الرقم يكفي لإطعام عشرة شعوب من الشعوب التي تتضور جوعاً! ويؤسفني القول: إن فن الدعاية لدينا يسير باتجاه النمط الغربي، مع أن الدعاية تؤثر على الادخار الوطني في وقت نحن بأمسّ الحاجة فيه إلى رؤوس أموال من أجل إيجاد فرص عمل لملايين العاطلين عن العمل لدينا.

إن المذهبية الرأسمالية هي المسؤولة عن الآلية التي أشرنا إليها، وقد انتقلت عدواها إلى باقي الأمم والشعوب، وصار الحديث عن الاقتصاد والربح والاستثمار وأسعار الأسهم ـ أكثر الأحاديث جاذبية وسيطرة على العقول والمجالس. كان شعار الحركة الدولية عند الغرب هو: الاقتصاد في خدمة السياسة، لكن الشعار اليوم هو: السياسة في خدمة الاقتصاد، تجاوباً مع المركز المرموق الذي احتلته المنفعة المادية اليوم. وقد كان الناس على مدار التاريخ ينتجون ما يحتاجون إلى استهلاكه لإبقاء مسيرة الحياة مستمرة، لكن الذي أحدثته الفلسفة الرأسمالية وذيولها وملحقاتها هو الرغبة في الاستهلاك من أجل الإنتاج! وهذا أدى إلى المسارعة في نضوب الموارد

---

(١) السابق: ٥٦.

المعدنية والطاقة غير المتجددة، كما أدى إلى تلويث الماء والهواء وتسخين حرارة الأرض؛ مما ينذر بأوخم العواقب، ولو قدر لسكان الهند والصين أن يسلكوا المسلك الاستهلاكي الذي يسلكه الغرب ـ ولا سيما أمريكا ـ لاختنق العالم في عشر سنوات!. لقد انتشرت الأمراض بسبب التلوث، وهناك بعض الأرقام المخيفة حقاً؛ فأمراض السرطان المتنوعة يعود ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ منها إلى تلوث البيئة، كما أن نسبة ارتفاعها في حدود ٣٪ في السنة[١].

وسوف يطرح العالم قريباً في كل سنة من المخلفات ما يكفي لطمر عاصمة مهما كانت كبيرة بأكوام من الفضلات سماكتها ١٠٠متر[٢].

يقول أحد علماء البيئة المحترمين في الغرب: «إن المواطن الأمريكي يدمر حالياً في المتوسط مائة ضعف لما يدمره المواطن الهندي من موارده الطبيعية. ومن المرجح أنه إذا حققت بقية العالم من النمو ما حققه الغرب فسيكون في ذلك فناء الإيكولوجيا العالمية إلى غير رجعة»[٣].

إن مسؤولية حماية البيئة وترك الأرض صالحة لعيش الإنسان مسؤولية إسلامية؛ فما دام الله تعالى جعلنا خلفاء في الأرض، وطلب منا إعمارها فإن علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لحفظها وصيانتها. والمؤسف أنه لا يوجد شعب مسلم يستطيع أن يدعي اليوم أنه من المنخرطين في برامج للمحافظة على البيئة، بل إن نمط الاستهلاك والتخريب الغربي للحياة الطبيعية صار مهوى الأفئدة للملايين من المسلمين!!.

إن التعاليم الربانية في الاقتصاد والقناعة والحصانة أمام غزو الشهوات، هي وحدها القادرة اليوم على تغيير الإنسان، وهذا التغيير هو السبيل الوحيد لتغيير نمط الاستهلاك المهلك[٤]، لكن المبادئ لا تعمل في فراغ، وإن علينا أن نوفر الشروط والأدوات لجعلها فاعلة، وذلك جزء من ابتلاء الله ـ تعالى ـ لعباده.

---

(١) السابق: ٧٤، ٨٦.

(٢) آفاق المستقبل: ١٦٦.

(٣) عودة الوفاق: ٦٣.

(٤) هناك قاعدة يمكن تطبيقها في العديد من المجالات، هي: «ما يُستهلك يُهلك».

٥ ـ عصر الحس والمادة:

نتيجة للصراع المرير بين الكنيسة والمجتمع المتفتح صارت القطيعة مع الماضي شرطاً أساسياً في الوعي الأوربي لإحداث أي تقدم، وكانت القطيعة انتقائية إذ إن صلة الأوربيين بالرموز اليونانية لم تندرس، وإنما تبلورت وكانت فكرة (الشهيد) المخلِّص المسيحية هي الرمز الملهم لكثير من الأعمال الأدبية، وذات أثر أيضاً في توجيه الحركة الاجتماعية، لكن بعد حلول العلمانية بصورة نهائية حلت في الوعي الأوربي صورة (البطل الوثني) الذي يغزو وينهب وينفق ويهب... وكان لا بد من إيجاد نظرية متكاملة تبلور وتفسر علاقات الإنسان مع كل ما حوله؛ ولم يكن من الممكن أن تعتمد أية نظرية متوقعة إلا على المحسوسات والماديات لتكون مخزن الوعي؛ لأن أية صلة بعالم الغيب سوف توقع الوعي الأوربي في ارتباك، وسوف تخدش وجه العلمانية التي تدعي الاكتفاء الذاتي على مستوى الرموز والقيم والأفكار والمفاهيم. وانتهى كل ما قيل حول «الروح» في القديم من آراء، وما سُوِّد من ألوف الصفحات؛ لأن التعامل مع غير المحسوس لا يخضع لمناهج البحث العلمي، ومن ثمَّ فإن الروح صار يطلق عليها اسم الوعي أو العقل وما كان يدعى من الوجود الروحي وأبعاده المختلفة فهو إما غير موجود بالمرة أو هو ـ في أحسن الأحوال ـ وظيفة الخلايا المعقدة التركيب والعمل. وإن كل عمليات تحليل المعلومات وتركيبها وأشكال التعرف والسلوك ـ يبنيه الدماغ بنفسه، ولا شيء آخر يُدعى العقل المجهول؛ فالعقل والدماغ شيء واحد! ويعتقد كثير من العلماء المعاصرين أن حل مشكلة غموض العقل يمكن أن يتم في يوم ما في الدماغ الفيزيائي (الصناعي) من خلال تعقيدات الآلة والتي تستطيع تحويل الطاقة الكهربائية إلى أعداد لا نهائية من السلوك البشري[١]. وعلى حين كان (هيجل) يعتقد أن الحركة الجدلية للأفكار هي الأساس نفسه للعالم الواقعي، حيث الفكرة سابقة للعالم الذي هو عملية

(١) انظر النظرية الروحية: ٤٧.

تحقيق الأفكار ـ ذهب (ماركس) وأتباعه إلى أن العالم يسبق الأفكار التي تأخذ نماذجه، وليس العكس؛ فحركة الفكر انعكاس لحركة الواقع المنقولة إلى دماغ الإنسان[1]. وهكذا فالعقل نشاط دماغي يعمل في نطاق المادة. هذه الوضعية الفكرية المادية اخترقت عالمنا الإسلامي من أدناه إلى أقصاه. وقد كان وقعها على المثقفين أكبر من وقعها على العامة؛ فتضاءلت لدينا مساحة الاهتمامات الروحية، واتسعت مجالات العمل العقلي على حساب الوجدان وانطلاق الروح، وصار تحليلنا للأحداث والوقائع يرتكز على المعطيات المادية والحسية أكثر من اعتماده على إدراك آثار الانحسار المعنوي والانحراف السلوكي... إن هذا كله جعل آراء المفكرين عبارة عن تنظير وتخطيط عقلي جاف يفتقد (طاقة الفعل) التي لا تولد في مجال العقل والفكر وإنما في مضارب الروح، وإن من واجبنا أن نعيد الاعتبار لنقاء السريرة وأعمال القلوب واستقامة السيرة حتى نتمكن من إحداث التوازن المطلوب بين العقل والقلب.

٦ ـ النفعية:

فقد الغرب المرجعية العقدية بقطيعته الكاملة مع الدين ـ أي دين ـ وحاول الغربيون تغطية الواقع العملي لهم عن طريق فيض من المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والتي تمنحها شيئاً من المشروعية والتنظيم المعرفي، وهذه المذاهب على مالها من أثر في ثراء المعرفة إلا أن كثرتها وتقاطعها تؤدي في النهاية إلى البلبلة وإلى نوع من «اللاأدرية» وخير حل آنذاك هو اللجوء إلى امتحان الأفكار عن طريق فائدتها ونفعها ما دام لا وجود لسبيل آخر للحكم عليها. ولم يكن هذا وحده هو السبب في سيادة مذهب النفعية واجتياحه لكل المذاهب الغربية الأخرى، فهناك الشعور بالرفاهية والتفوق العلمي والاقتصادي؛ فهو يدفع بطريقة خفية إلى تبني الأفكار التي تزيد في سلطانه، ولا شيء كتحكيم الثمار والنتائج أعود بالنفع على المنتصرين من الاحتكام إليها.

---

(١) علم اجتماع السياسة: ٢٥٣، ٢٥٤.

وقد كان الوعي الإنجليزي سباقاً إلى العمل على أساس المنفعة؛ وإذا كان (بنتهام) ت١٨٣٢م هو مؤسس المذهب النفعي فإنه في الحقيقة لم يَعْدُ أن أعطى للأيدلوجية مذهباً ونهجاً في إنكلترا المهتمة بالفعالية والرفاه أكثر من اهتمامها بالتأملات الفلسفية. إن أسطورة النحلات (١٧٢٣) هي الوثيقة الرمزية لهذه المنفعية. الأسطورة تقول: هناك خلية صارت فيها النحلات فاضلات زاهدات متقشفات محسنات، إنها الكارثة!

الاستنتاج:

إن عيوب الأفراد هي نعمة للمجتمع، فأنانية كلٍ هي شرط في ازدحام الجميع[١].

وكان (وليم بالي) ت١٨٠٥م وهو أيضاً إنجليزي قد أسس نظرية (التشهيل) أي تسهيل العمل، وبالتالي أرسى بعض قواعد المذهب النفعي في الأخلاق؛ فصحة الفعل مرهونة بما يحققه من أخلاق[٢].

وقد وضعت البشريةُ تحت إمرة سيدين مطلقين: الألم واللذة. ويصدر الحكم الخلقي على الأفعال بناء على الإقلال من الألم والزيادة في اللذة. وتم بعد ذلك توسيع مفهومي اللذة والألم إلى مفهومي النفع والضرر. وارتكز في مذهب «النفعية» أن المصلحة أساس الخير، والواجب تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر قدر من الناس[٣].

وبما أن أمريكا بنت أوربا ـ ولا سيما بريطانيا ـ فإن مذهباً لا يختلف كثيراً عن المذهب النفعي نشأ فيها يدعى[٤] «البرجماتية»، ومؤسّسه هو: (تشارلس بيرس) ت١٩١٤م، وفيه أن الأفكار الصحيحة هي ما تثبته الفحوص الدقيقة والبحث الرصين. ويقول (وليم جيمس): إن كل الخلافات

---

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣٢٦.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب: ٣٠١.

(٣) السابق: ٣٩٩ وما بعدها.

(٤) السابق: ٤٣٨ وما بعدها.

الميتافيزيقية يمكن أن تحل أو تقل أهميتها عن طريق النتائج العملية المترتبة عليها. والأفكار مجرد (شيكات) لا بد أن تكون لها قيمة مصرفية!.

على الصعيد العملي أنتجت (النفعية) عدداً من السياسات التي يمارسها قادة الغرب في حركتهم اليومية ـ ولا سيما ـ خارج بلادهم ومن أهم تلك السياسيات:

أ ـ سياسة الفتح السلمي:

إذا كان بإمكانك أن تصل إلى كل أهدافك دون أن تراق قطرة دم من دماء جندي من جنودك، فذاك دليل براعتك ونجاحك. وإذا كان بإمكان أن تصيد بشباك من حرير فلا تستخدم غيرها. وقد أكدت هذه السياسة نتائج الحربين العالميتين المدمرة إلى جانب ما لمسه المستعمر الغربي من أن الدول التي نالت استقلالها صارت شعوبها أكثر تعلقاً به وحاجة إليه من أيام الاستعمار، فالسياحة لأبنائها في بلاده والآلات تستورد من عنده، والطلاب يبتعثون إلى جامعاته! إذا كان بإمكان الآخرين أن يأتوا إليك ليحققوا لك كل ما تصبو إليه فلماذا تذهب إليهم؟!

ولا ريب أن التفوق الحضاري الغربي هو الذي أملى هذه السياسة تجاه العالم الثالث المستضعَف فاستقرار الأحوال فيه وشعوره بشيء من الحرية يتيح له شيئاً من النمو والتقدم الذي يوفر إمكانية جيدة للنهب!

إذا كان بإمكانك أن تذبح بقرة سمينة، فلماذا تذبحها عجفاء؟!

ب ـ سياسة الأمر الواقع:

إن النفعية و«البرجماتية» تدفعان دفعاً إلى الالتصاق بالواقع إدراكاً وإصلاحاً واستثماراً ومجالاً للفعل.. وكان مما أفرزته النفعية إلى جانب التفوق الكبير الذي أحرزه الغرب سياسة (الأمر الواقع). وهذه السياسة تقوم على العمل الدائب المتدرج المتخفي على إيجاد واقع معين ومحاولة تثبيته بكل وسيلة ممكنة، ومعطيات (مرور الزمن) تخدم هذه السياسة حيث يصبح المتضررون من واقع سيئ مشلولي الحركة بعد ترسخه وحاجته إلى جهود

كبرى كي يتغير، وهم لا يستطيعون بذل تلك الجهود لأن الواقع السيئ نفسه يحول دون التمكن من الأعمال الكبيرة! وهكذا يدور الضعفاء المغدور بهم في حلقة مفرغة لا يعرفون للخروج منها فكاكاً.

هذه السياسة يمارسها الغرب ضد شعوب العالم النامي جهاراً نهاراً؛ فهو ما يزال يحاول الإبقاء على عين الظروف السيئة التي خلفها وراءه عند مغادرته لها من خلال زرع القلاقل والفتن ونهب الخيرات وفتح الأسواق لمنتجاته عن طريق الابتزاز. . . . ولعل (اليهود) خير من يمارس هذه السياسة بنجاح؛ فقد أصموا آذانهم عن كل القرارات الدولية إلى أن أوجدوا واقعاً لا يمكن معه تنفيذ تلك القرارات؛ فأين يذهب مئات الألوف من المهاجرين اليهود، وماذا يمكن عمله لترسانة نووية هائلة، وكيف يستطيع مئات الألوف من أهل فلسطين الاستغناء عن العمل لديهم، ولا يوجد أي بديل يلوح في الأفق. . .؟

إن الجملة التي يقولها أصحاب هذه السياسة للمغدور بهم هي: «صح النوم»!!.

جـ ـ سياسة التذرع:

لا بد للنفعيين أن يضفوا (العقلانية) والمشروعية والانسجام على أعمالهم، ومن ثم فإنه لا يجوز خدش القيم الأساسية التي ينالون على أساسها أصوات الناخبين، ويستمدون شرعية سلطتهم منها. وهذا يعني أن تحقيق المصالح لا بد أن يستند إلى تلك القيم ولو بطريقة ملفوفة، ومن ثم فإن الحل في هذه الحالة هو إيجاد المسوغات والذرائع التي تستند إلى القيم المستهلكة في الداخل، وتساعد في الوقت نفسه على تحقيق المصالح والغايات المستهدفة. وقد عبر (هتلر) يوماً عن هذا حين قال: إذا أردت أن تضرب أصحاب عقيدة مناوئة فعليك أن تضربهم باستمرار، لكن حتى تضربهم باستمرار فلا بد لك من مبرر. فالمطلوب إذاً هو (صناعة المبرر) وتتخذ تلك الصناعة أشكالاً عديدة من خلاف على حدود أو إحداث حرب أهلية أو تلفيق تهمة إرهابية أو تخريبية أو حماية مصالح مهمة أو مجال حيوي

أساسي... وهكذا يتدخل النفعيون في شئون البلد الضحية من خلال مسوغات مشروعة ومفهومة لدى شعوبهم ولدى المجتمع الدولي.

إن النفعية والواقعية تمثلان تحدياً كبيراً لنا ليس على مستوى السلوك المتسلط الذي يعاملنا به الغرب فحسب، ولكن على مستوى العمل الدعوي أيضاً؛ حيث إن من شعارات الواقعية والنفعية «دعونا نلمس»، ومن ثم فإن واقع المسلمين الحالي يمثل صداً كبيراً عن سبيل الله، ويقف عقبة كؤوداً أمام نشر دعوتهم ورسالتهم؛ فالدعاوي المذهبية في العالم بالصلاح والإصلاح كثيرة، ومن ثم فإن ما يُحرم منها من الواقع العملي المشرق لا يجد سبيله إلى أذهان الشعوب الغربية.

ثم إن علينا أن نحل مشكلاتنا الداخلية، ونقوي من نسيجنا الاجتماعي؛ حتى لا نعطي الذريعة للتدخل في شؤوننا الخاصة.

ولا بد من القول بعد هذا وذاك: إن منطق (أرسطو) العقيم الذي يقوم على الصدق الشكلي، وعلى بحث القضايا في الذهن لا في الواقع ـ ما زال ـ يسيطر على أذهان كثير من طلاب العلم الشرعي من خلال دراستهم لكتب التراث المشوبة بذلك المنطق؛ مما يجعلهم بحاجة إلى شيء من الاهتمام بفهم الواقع وتقديره؛ فقد كان من أسباب انتكاساتنا الحضارية الانفصال بين العلوم والواقع المعاش مما حرمها من النضوج والرشاد، وحرمه من الإصلاح والتقويم!.

٧ ـ مشروعية الاختراق الثقافي المتبادل:

تسببت حركة الاتصالات العالمية الضخمة في كسر كل الأقفال، وإزالة كل الحواجز بين البلدان والشعوب؛ مما أحدث تواصلاً وتمازجاً ثقافياً لم يسبق له نظير من قبل، وجعل الثقافات المتباينة أمام بعضها وجهاً لوجه، ترى كل واحدة منها مزاياها وعيوبها في وجه الأخرى؛ مما جعل (الآخر) أنجع وسيلة لفهم الذات وتقويمها.

ومن مظاهر الإقرار بمشروعية ذلك الاختراق المراكز الثقافية والصحف والمجلات الدولية والكتب الكثيرة التي تترجم، وتنقل من لغة إلى لغة أخرى وشبكات الاتصالات وأجهزة البث المختلفة...

وهذه المشروعية هي بعض ما تمليه القوة من شروط واستحقاقات، والتي يجب سدادها دون تأخير.

وحينما تلتقي ثقافتان متباينتان، فإن كل واحدة منهما تشكل محنة للأخرى وتدخلها في نوع من أنواع الاختبار؛ لكن المشكلة في هذا اللقاء الضخم الذي يتم اليوم أنه لقاء شكلي، فالثقافة الغربية تدخل ـ من خلال وسائلها ـ كل بيت وجامعة ومزرعة. . . . ، وهي مع ذلك تملك فتنة الغَلَبَة وجاذبية التفوق والنجاح في ميادين كثيرة، على حين أن الثقافة الإسلامية ـ على ما تملكه من مبادئ سامية وعناصر ممتازة ـ لا تجد الوسائل التي تمكنها من الظهور أمام الغرب، بل إنها لا تملك الوسائل الكافية لرد التهم عن نفسها، حيث تستهدف من أكثر من جهة وفي أكثر من صعيد. ويضاف إلى هذا إخفاق أكثر الشعوب الإسلامية في تحقيق إنجازات رائدة تدعم الموقف العالمي للثقافة الإسلامية. وبالتالي فإن ثقافتنا لا تشكل تحدياً للثقافة الغربية، ولا تحوجها إلى شيء من المراجعة إلا إذا استثنينا بعض الحالات الفردية. ولا نتوقع أن يحدث تغيير على هذا الصعيد ما لم تتحقق النقلة الحضارية النوعية للشعوب الإسلامية أو بعضها على الأقل.

لكن الذي أود أن أشير إليه أن كثيرين منا ما زالوا مشغولين بالحديث عن الغزو الثقافي الغربي والتآمر الدولي الرهيب علينا وعلى ثقافتنا، دون أن يدفع ذلك إلى أية خطوة إيجابية أو الوصول إلى محك نهائي في هذا الموضوع. علينا أن نسأل أنفسنا لماذا لا نقوم نحن بالتآمر على أحد، ونظل نهجس دائماً بالعدوان والتآمر الخارجي؟!

ربما جاء الجواب: لأننا ضعاف. وعلينا أن نقول بعد هذا: لماذا نحن ضعاف؟ ثم نقول: ما أسباب الضعف، ثم ما الوسائل لتلافيه أو تحجيمه؟ وعلينا أن نطوي بعد ذلك هذه الصفحة لنبرهن عملياً أن خير رد على الغزو هو العمل المتواصل لإحداث نوع من التكافؤ، وآنذاك فإننا لن نشعر بحاجة إلى الشكوى من أحد؛ حيث نستطيع أن نخترق، ونغزو ونكسب أرضاً جديدة لرسالتنا وثقافتنا.

٨ ـ عبادة التقدم:

مما ترسخ في الوعي الأوربي أن الإنسان حصاد ما يعرفه، وما يتقنه وبالتالي ما يملكه، ومن هنا اندفع الغرب في الاكتشاف والتصنيع إلى أقصى حد ممكن، مما أنتج تعاظم الملكية وإيجاد مجتمعات الوفرة والخدمات والجامعات ومراكز البحث العلمي... وصار التقدم نحو الأفضل والبحث في الكيفيات والوسائل التي تحقق ذلك الهاجس اليومي لعالم الغرب كله، ولكل من تواصل معه من شعوب الأطراف.

هناك في الأصل فرق بين التطور والتقدم: «ففكرة التطور مستندة إلى نظرية علمية محققة ولو نسبياً، أي إلى فرضية إجرائية علمية مدعَّمة. أما فكرة التقدم فهي فكرة أخلاقية وأيدلوجية محضة. فالتطور يمس الأشياء والموضوع بشكل عام في استقلاله عن الذات. أما التقدم فيتعلق مباشرة بالذات وبالمعايير الأخلاقية الاجتماعية»[١]. التطور قد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً، والبنية الجسدية في سن الكهولة تستمر في تطورها نحو الشيخوخة ثم الموت.. لكن التقدم هو تطور دائماً نحو الأفضل، لكن المشكلة في العالم الغربي أنه ليس لديه أي ضمان للفصل بين التقدم والتطور، فالحركة الاجتماعية والعلمية والإنتاجية ماضية في سبيلها لتوجد الأخلاق والعقائد الأوربية، وهذا طبيعي؛ إذ في ظل فقد المرجعية العليا لذلك يكون من المستحيل وضع حدود أي معايير تمنح الثبات لأي شيء؛ ولا سيما في ظل حركة تغير سريع يعجز المخ البشري عن ملاحقة الآثار التي يخلِّفها وراءه. ثم إن القصور البشري لا يمكِن أبداً من رؤية الحقائق الكبرى دفعة واحدة مما يجعل الإنسان منهمكاً دائماً في تجارب: (الصواب والخطأ)، فرحٌ بإنجاز ثم ندم عليه وخوف منه. وحين يتجه مجتمع أو شعب إلى إعطاء التقدم الأولوية المطلقة، فإنه يقوم بإيجاد الأسباب التي تخدمها، كما يقوم بتحطيم كل الحواجز والأفكار والعقائد بل والمعلومات ـ أحياناً ـ

---

(١) الوعي الذاتي: ٢٩.

التي تعرقل سبل تحقيقها، وهذا ما حصل في الغرب واستشرى بفعل العدوى في باقي أنحاء المعمورة؛ فالتقدم يقتضي إزالة الحواجز والمعوقات أمام حركة الناس وحركة الأفكار والبضائع، ومن ثم ساد بشكل قوي شعار: «دعه يمر، دعه يعمل»، وصار من المسؤوليات الأساسية للدولة فتح الأسواق الخارجية وإيجاد فرص العمل الداخلية من أجل تحقيق ذلك. الاتصالات السريعة من أجل اختصار الزمن، وهي مثل (الوجبات السريعة)، مثل الدقة في المواعيد، مثل الفاعلية القصوى، مثل الاقتصاد في الجهد ترمي جميعاً إلى هدف واحد: هو إنجاز أكبر قدر ممكن من الأشياء والأعمال في أقل وقت ممكن.

في سبيل التقدم الذي هو أولوية مطلقة تصبح الراحة من أجل العمل، ويصبح إشباع الغرائز بأية وسيلة كانت أمراً مشروعاً ما دام يؤدي إلى فراغ البال من أجل مزيد من الإنتاج! الربا يصبح عمود الاقتصاد العالمي ما دام يسهل عمليات الاستثمار - أو هكذا يظن - وإنشاء الشركات العملاقة. لا مانع في سبيل التقدم من أن تترك المرأة أسرتها وحصنها الحصين - بيتها - وتنخرط في الوظائف والمهن، وينبغي عليها أن تتحمل الضغوط الرهيبة التي لا تتحملها جملتها العصبية، كما أن عليها أن تتكيف مع كل ما تتعرض له من مضايقات وإيذاءات من الجنس الآخر؛ فكل ذلك يحتمل في سبيل التقدم! تفكك العلاقات الأسرية وتفاعل المشكلات البيتية بسبب عمل المرأة أو سفر الزوج لسنوات عدة - قد تكون متتابعة - كل ذلك سائغ ومقبول وعلى الإنسان أن يتحمل....

التقدم يستلزم السحب من الرصيد الحيوي والبيئي من أجل حركة التصنيع، وما تستلزمه من الاستهلاك، وعلى الناس أن يقبلوا بذلك ولو أدى ذلك إلى الاختناق أو تصاعد أمراض السرطان والحساسية، ففقه الأولويات جعل التقدم في المرتبة الأولى، وأباح بالتالي التضحية بكل أشياء المراتب الأخرى!

إلى جانب هذا وذاك على الناس أن يتوافقوا مع حركة التاريخ والامتثال للمعايير الأخلاقية والاجتماعية التي تفرزها، وإلا فقسوة العيش والعجز عن

الفهم، والاتهام بالعيش خارج العصر، بل بالهمجية هي المنغصات التي تنتظرك.

في غيبة الهداية الربانية يصعب على الناس أن يدركوا المساحات الفاصلة بينهم وبين حتفهم الحضاري الذي يحثون الخطى نحوه من خلال الهوس والولع بالإنتاج العظيم والشيء الجديد!!

استلزم التقدم معايير جديدة لـ(اللياقة) الاجتماعية هي: الفاعلية والدقة والثراء وسرعة الفهم والانتقال بالوسائل الحديثة، وكبت الرغبات والقدرة على التضحية والقدرة على الإنجاز السريع والإيجابية والقدرة على التكيف... كما استلزم انزواء معايير وأخلاق أخرى وتهميشها مثل الطيبة واستقامة السلوك ونظافة السريرة واللطف والتدين ـ بشكل عام ـ وهكذا باختصار (الكدع) مكان (ابن الحلال) و(النجاح) موضع (الفلاح)! هذا هو واقع العالم من حولنا، وقد وضعت ثورة الاتصالات الرهيبة والمتنامية العالم في وجه بعضه بعضاً، وقامت سوق الموازنات والمقارنات، وانتهى أكثر الناس في الأقطار والشعوب النامية والمكافحة من أجل البقاء إلى الإعجاب، بل الافتتان بالتقدم الغربي، كما فتن الغرب بالتقدم الياباني، واختصر في حسِّ شعوبنا ذلك التقدم المتعدد الجوانب إلى التقدم الاقتصادي؛ فصار الحديث عن الرفاهية والتنمية والتمتع بثمار التقنية الحديثة هو الحديث المسيطر على المجالس والمنتديات بل والمواعظ!.

لولا التواصل الكوني لكان في إمكان كل أمة أن تضع معايير تقدمها، وأن ترتب أولويات نموها وحركتها العامة، لكن هذا ليس ممكناً اليوم في ظل الأوضاع الحالية. وتجاهل تطلعات الشعوب المبنية على ما رأته لدى الآخرين لن يكون ممكناً ولا حكيماً؛ وتقليد الغرب واتباع طريقته ووتيرته في النمو والتقدم ستكون مرة؛ إذ إن من غير الممكن نقل حالة حضارية ناتجة عن تطور بنى فكرية وعقائدية وبيئية مختلفة إلى ديار المسلمين، وتعسف ذلك لن يؤدي إلى النمو والتحضر، ولكن سيفكك البنيات الموجودة لدينا، ويحدث انقساماً في الوعي دون أن يتمكن من إيجاد بنيات جديدة أو وعي جديد.

والإعراض عن كل ما في العصر يجعلنا نصاب بكل شروره دون أن نجني شيئاً من ثماره.

فلم يبقَ لدينا سوى تحقيق الانطلاقة الذاتية المتوازنة التي تنسجم مع أهدافنا وطاقاتنا ومبادئنا، انطلاقة تتم وفق أولوياتنا وحاجاتنا، تحافظ على البيئة، ولا تستهلك الإنسان في طلب المتاع واللهو، ولا تستهدف العلو ولا الفساد في الأرض، وتكف المسلم عن الحاجة والتطلع لما في أيدي الآخرين، وتساعدنا في نشر رسالة الإسلام؛ وهذا لن يتم بدون الفكر والجهد الصادق والإخلاص العميق؛ ولله عاقبة الأمور.

٩ ـ جدلية التحدي والاستجابة:

من المفاهيم الكبرى التي سادت في عصرنا هذا العلاقات الجدلية بين الإنسان وما حوله من نبات وحيوان وجماد، وأصبح هناك بإزاء قوانين الفعل قوانين رد الفعل. ولم تعد التحديات والصعوبات محناً وشقاء. بل أصبحت نعماً ربما يؤدي فقدانها إلى الترهل والموت والاندثار...

إن إدراك العلاقات (الخطية) لا يحتاج إلى قدرات ذهنية عالية، ولا إلى ثقافة معقدة ولا إلى خبرات راقية؛ إذ إن الربط بين الأسباب والنتائج فيها يتم بصورة مباشرة وسهلة، وهل هناك أسهل من الربط بين الماء والري أو بين النور والإبصار؟ لكن إدراك العلاقات الجدلية هو الذي يحتاج إلى كل ذلك حيث تسهم في الظاهرة الواحدة حزمة من الأسباب الظاهرة والخفية، ولا ندري في أحيان كثيرة نسبة تأثير كل سبب، كما لا نستطيع التفرقة بين الأفعال الصادرة بسبب المبادرة والأفعال الصادرة رداً على تحدٍ معين إلا في أحوال معينة. فليس من السهل ـ مثلاً ـ إدراك الحافز الذي يحدثه الفقر أو المرض في حركة الإنسان على وجه الدقة؛ كنا في الماضي ننشد الراحة، ونتخيل باستمتاع السعادةَ التي تحيط برجل من وراء تأمين كل ما تتوق إليه نفسه من غير جهد ولا كد، غير مدركين لما لذلك من أثر في إيجاد نفسية الاسترخاء والإهمال، وإيقاف ممارسة الوظائف الحيوية، والحرمان من نعمة الحركة والرياضة البدنية مما يعجل بالشيخوخة المبكرة!.

خبرة الإنسان علمته أن فقد المثير مشكلة، وصار من الباحثين من يرى

أن جزءاً كبيراً من تخلف أفريقيا يعود إلى عدم وجود تحديات تدفع إلى العمل، فالماء والغذاء موجود ـ ولا سيما في الماضي ـ واعتدال المناخ لا يُحتاج معه إلى التدفئة، وتوفُّر الغابات سهولة منقطعة النظير لبناء المساكن والعشش والأكواخ. وهذا كله جعل الإنسان الأفريقي يشعر أن لا شيء يدعو إلى العجلة ولا إلى الكد والنصب ما دام الحد الأدنى من الحياة متوفراً!

العلاقات الجدلية تقتضي دائماً التنافس والتعاون، فحين تصطدم فكرة بفكرة أخرى يتولد عنهما فكرة ثالثة هي أعلى منهما مستوى حيث تكون قد تجاوزتهما معاً، وصارت خلاصة لأجمل وأبدع ما فيهما. علاقات التنافس والتعاون هذه تتم في نطاق توازنات مستمرة لا غنى للحياة عنها، ومنها تولدت مفاهيم كثيرة في القرن الماضي منها: التكيف والصراع من أجل الحياة والتوتر والمقاومة والمجابهة والأزمة واستيعاب وجهة نظر الآخر والكمون والتجاوز والهروب والاختبار والتنازل. . . .

واستطاع (توينبي) المؤرخ الإنجليزي المشهور أن يستثمر المعارف الجدلية التي تحصلت لدى البشرية في تفسير نشوء وتحلل الحضارات، وجعل نشوء كثير منها بسبب تحديات واجهتها، كما جعل فقد المثير وسهولة الحياة مع فساد الصفوة أسباباً مهمة في تحللها وانهيارها.

وأدرك (توينبي) أن التحدي الشديد يكون عقيماً حيث يوجد لدى الناس نفسية العجز والإحباط، ومن ثم فإنه بلور فكرة (الوسط الذهبي) ذاك الذي يتحدى لكنه لا يعجز، فهو فوق إمكانات الناس في اللحظة التي يكتشفونه فيها لكنه ليس فوق إمكاناتٍ أعيد تحريكها وتنظيمها واستثمارها بشكل جيد[1]. (فكرة الوسط الذهبي) هذه صارت اليوم عماداً مهماً من عُمُد التنمية الحديثة، إذ صار من مهمات الدولة الحديثة أن تقوم بتوفير تجهيزات البنية الأساسية من طرق موانئ ومطارات وكهرباء ومستشفيات ومدارس (مما يوفر

(١) انظر مختصر دراسة التاريخ ١ : ٢٣٢ وما بعدها.

الحد المقبول من التجهيزات المساعدة للفرد على استثمار طاقاته وأمواله، وهذه كلها مع توفير الأمن تشكل الوسط الذهبي للإنتاج وترتب على هذا الواجب على الدولة واجب على المواطن، وهو محاولة الاستفادة من هذه المرافق بكفاءة، لأنه إن لم يفعل ذلك كان عليه أن يدفع الثمن، فالمدرسة تفتحها الدولة، وعليك أن تدخلها لكن الثمن الذي ستدفعه إن لم تدخلها سيكون باهظاً، إنه عدم الأهلية للقيام بأي نشاط فعال في مجتمع متعلم!. وأكثر مشكلات الإنتاج حدة في الدول المتخلفة هو سوء الوسط الذي يتحرك فيه المنتجون.

لم تكن جدلية التحدي والاستجابة الكشف البشري الكبير على المستوى التقني والمادي فقط، وإنما في المجال الفلسفي أيضاً، والذي هو الأساس في الحركة المادية، وخذ مثالاً واحداً تحولت فيه نظرة الإنسان المادي ـ بشكل رئيسي ـ من الاعتقاد بأنه شيء طبيعي إلى اعتباره تحدياً كبيراً، مما أسس عدداً من الاستجابات الكبرى، وذلك هو (الموت)؛ فقد كان الموت في المفهوم القديم استسلاماً لله ـ تعالى ـ وتسليم الروح إلى بارئها، وهو أمر منتظر، وفي بعض الأحيان محبَّب. وهو مناسبة لتحقيق التضامن والتعاون والمودة بين أبناء الجماعة، وفرصة لإظهار الشجاعة والمروءة والصبر وقوة الإيمان والعزيمة. إن الموت أحد أسس ومبادئ الحياة ذاتها؛ فهو يساوي بين البشر، فلا أحد أفضل وأقوى من الآخر، ولا تفيد ثروة أحد في وقف موته ومثوله بين يدي خالقه. وما دام كل إنسان فانياً، فكل شيء مادي دنيوي يفقد قيمته المطلقة، ويصبح ذا قيمة نسبية. ويصبح على الإنسان أن يعمل لدينه ودنياه معاً. يصبح الموت إذن باختصار عامل تنظيم للأخلاق الاجتماعية، وكي يصبح كذلك لا بد من قبوله واستيعابه بدون كبر أو غضاضة.

أما اليوم فقد صار الموت بالنسبة للإنسان الحديث نقصاً مطلقاً وعطباً للمادة وقتلاً لقدرة لا تعوض. وهو هاجس يومي يحاربه الإنسان الحديث في كل يوم وساعة حتى أصبح الطب والتأمينات على الحياة شغل الناس الشاغل.

صارت الحضارة الحديثة تسعى إلى أن تجعل من تحدي (الموت) وإخضاعه حافزها إلى التفوق المادي والعسكري. إذن ليس السعي لتأكيد الذات وتحقيق السيطرة والتفوق بما هي قيم سائدة في المجتمع الحديث إلا لمقاومة الشعور بخطر الموت، وبالخوف منه[1]. وإذا كان هذا الموقف الرئيس لكل علماني فإننا نلمس أن إشعاعات هذا الأمر قد عمت العالم كله بدرجات متفاوتة فقد تهمّش حيز الآخرة في الحسِّ إلى حد بعيد، ولم يصبح هو الآمر اللاشعوري للحركة الاجتماعية في عالم الإسلام، وذلك بسبب تأثره بالفلسفة الغربية وبسبب ضغوط الحياة المادية الحديثة. مع أن المسلم ـ على المستوى النظري ـ ما زال يعتقد أن الموت نهاية مرحلة، وليس فناءً كما هو عند الآخرين. إن كل تحد من التحديات يسبب مشكلة لكنه في الوقت نفسه يمنح فرصة لكن بشرط أن تكون في الموقع الصحيح. الموقع الصحيح يعني إدراك التحديات بحجمها الطبيعي دون تضخيم؛ فنيأس، ودون تهوين فنسترخي. والوضع الصحيح يعني أيضاً أن نوفر الحد المقبول من الوسط المنتج الذي يساعدنا على الاستجابة الحية، وذلك يحتاج إلى الأمن والاستقرار والتضامن والالتزام وشيء من الرخاء وكثير من الفاعلية.

١٠ ـ العدمية والتشاؤم:

يمكن القول: إن الإنسان أعطى نفسه أكثر من قدره الحقيقي؛ فهو ـ لا شك ـ مكرم ومخلوق متميز، وعلى حين يفنى أكثر المخلوقات يوم القيامة فإنه مخلَّد في نعيم أو شقاء دائمين. ومع ذلك فهو كائن حي يجري عليه كل ما يجري على الكائن الحي من الأعراض وأطوار الخلق، وصحيح أن الله ـ تعالى ـ أمده بالعقل وبطاقات كامنة كثيرة إلا أنه أيضاً أرسل له الرسل وخط له طريق الهداية؛ لكن الإنسان بعد هذا وذاك ترك كل ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولجأ إلى العقل يستمد منه الهداية لكل ما يتعلق بشؤونه، كما أنه لجأ إلى المعطيات العلمية التي أثمرها العمل العقلي

---

(١) انظر اغتيال العقل: ١٦٧ وما بعدها.

والتجريبي؛ ليفسر بها كل جوانب الحياة حتى مسائل الروح وبدء الخلق... وكانت النتيجة هي (تناسخ الحقائق) وتبدل النظريات والغرق في الجزئيات والعجز عن الإمساك بالكليات الكبرى التي تحدد للإنسان مساره وتؤسس له علاقته بما حوله. والسبب في ذلك أن هيكل الحقيقة ما زال يتغير مع الزمن والعلم يستطيع الإجابة عن الأسئلة المعاصرة حول أي واقع تحدده مصطلحات معاصرة، ويتشكل المنطق على هدي قيم العصر؛ ومن ثم فإن العلم ـ مهما كان القدر الذي كشفه من الحقيقة ضخماً ـ فإنه لا يقدم منهجاً أو تفسيراً شاملاً لحقيقة تناسب كل الأزمان. من الطبيعي أن تكون المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من خلال أية بنية فكرية كونية هي بنية انتقائية. ولا يوجد معايير أو معتقدات توجه البحث عن معرفة ليست رهناً بالبنية الفكرية الكونية. وخلاصة القول: إن المعرفة العلمية ليست بالضرورة هي أوضح تمثيل لما يكون عليه الواقع إنها من صنع بيئة فكرية، وهي أداتها. إن عملية الاكتشاف هي في الوقت نفسه عملية اختراع، والمعرفة هي صناعة الإنسان[١].

هذه الأزمة الكبرى التي وقع فيها الوعي الأوربي باستدباره الوحي وإعلان (موت الإله) كما فعل نيتشه، وهو يحاول أن يعمم بلواه على العالم وقد نجح بشكل سافر في مناطق كثيرة، وبشكل مقنَّع أو محدود في مناطق أقل. وإذا لم يحسّ الإنسان المعاصر بالأسى والتشاؤم فإن ذلك يعني الضياع مرتين: مرة بسبب فقد الاتجاه، ومرة بسبب انسداد سبل العودة!.

كان القرن التاسع عشر قرن التفاؤل بتقدم لا نهائي وسيطرة على الطبيعة غير محدودة وآمال بالخلاص من أمراض الشيخوخة، إلى جانب تعميم السلام على الأرض... لكن القرن العشرين ذهب بذلك كله، وحل التشاؤم والشعور بالتفاهة والانحسار وفقدان الأمل في السيطرة على المصير. وقد عبر (الوجوديون) عن الحالة المشؤومة التي صار إليها الوجود الإنساني، بأنها: عدم وموت وحصر وهمّ وضيق وضياع للفرد في الجماعة

---

(١) عندما تغير العالم: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

وثرثرة وغثيان وقيء وفراغ وعبث.. إلخ... والإنسان على حد تعبير (كامو): تناقض وسخف ولا معقول بلا غاية أو هدف، مصيره الانتحار!. والوجود الإنساني عند (ميرلوبونتي) و(مارسل): جسم والنفس أحد أبعاده. ومنذ (كيركجارد) الوجود الإنساني تناقض وفضيحة وعار! حتى انتهى كثير من الفلسفات الوجودية إلى العبث واللامعقول، على عكس الوعي الأوربي في البداية عندما كان يتسم بالعقل والهدف والغاية والحرية والتقدم والوضوح والاتساق[1].

هذه الحالة التي وصل إليها الغربيون بصورة رئيسة سببها الأصلي خنق مجال الروح وجعل الموت فناءً كاملاً، وليس نهاية مرحلة، والقصور في معرفة عقم المنهجية الفكرية المتبعة في إدراك الحقائق، وحرمان العقل البشري المحدود من إطار مرجعي (الوحي) يزوده بالأساسيات والكليات التي يعمل من خلالها وفي هديها. وإن النزعة العنصرية والنظرة الدونية للآخرين التي يرسخها الإعلام الغربي في نفوس مواطنيه قطعت الطريق عليهم أمام الاستفادة مما لدى المسلمين من هداية - إلا على الصعيد الشخصي - وبالتالي فإن الأمل في الشفاء ضعيف!.

إن المذهبية الإسلامية بجعلها الدنيا دار ابتلاء وجهاد وكفاح وإصلاح، وبجعلها «مزرعة للآخرة»، وبتركها حيزاً مصوناً للروح والقلب وحيزاً آخر للعقل، وبوضعها أصولاً وضوابط للمعرفة والاكتشاف - تركت الطريق مفتوحاً أمام أشواق (الروح)، ووضعت (العقل) في إطاره الصحيح وبثت في الإنسان روح الاشتغال بالمهم والتوجيه نحو الأصلح، وبالتالي فإن المسلم على الرغم من سوء الأحوال يظل الأكثر سعادة وبهجة والأكثر أملاً وإشراقاً؛ والعاقبة للتقوى.

هذه محاور أساسية تسود في عصرنا، وهناك محاور أخرى غير هذه من نحو السيرورة نحو العموم والشمول، وكشف المشترك، وانتشار العقلانية

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب: ٧١٣، ٧١٤.

والتطلعات المتناقضة والإيجابية والسعي إلى السلطة والشهرة والافتتان بالجمال وحب المغامرة، وحب البحث عن الحقيقة.. إلخ... لم نشأ التفصيل فيها خوفاً من الإسهاب والإملال، ولعلنا نعالجها في بعض بحوث المستقبل؛ ومن الله ـ تعالى ـ الحول والطول.



(٤) في الرأي العام

يهدف العمل الدعوي إلى استقطاب آراء الناس ومشاعرهم واهتماماتهم حول المُثل والمبادئ، والقضايا التي يرى الدعاة ضرورة بقائها محاور لحياة المسلمين في كل حال من الأحوال. وقد أدى انتشار وسائل الإعلام والقدر الكبير من النفوذ الثقافي الذي فازت به إلى إعطاء الرأي العام معنى جديداً وأهمية بالغة؛ حتى إن كثيراً من الدول الغربية ـ ولا سيما أمريكا ـ بات الرأي العام فيها أكثر تأثيراً في توجيه السياسة وصياغة مواقف القادة من الخطط الاستراتيجية ومن آراء المستشارين والخبراء؛ فالمواطنون يحملون سياط الانتخابات بأيديهم بشكل دائم، وعلى من يريد كسب أصواتهم ألا يتجاهل آراءهم وتطلعاتهم في المجالات المختلفة. ولم تكن المجتمعات القديمة بعيدة عن هيمنة الرأي العام؛ فطبيعة الحياة الاجتماعية تفرض باستمرار نوعاً من رقابة البشر بعضهم على بعض، وتقويمهم لأنفسهم ومكانتهم الاجتماعية من خلال آراء الآخرين فيهم. لكن الحياة المعاصرة جعلت كل شيء معقداً، وضخّمت آثار كثير من الظواهر على نحو عجيب.

تعريف الرأي العام:

ذكروا للرأي العام تعريفات كثيرة، يمكن أن نبسّطها بقولنا: إن الرأي العام هو الفكرة السائدة بين جمهور من الناس إزاء موقف أو تصرف أو مسألة، مما يثير اهتمامهم، أو يتعلق بمصالحهم المشتركة[١].

إن الرأي العام هو الحصيلة الأخيرة التي تتولد عن ضرب الناس

---

(١) الإعلام في العصر الحديث: ٧٤.

لمختلف الآراء التي يسمعونها حول قضية ما بعضها في بعض. وفي عملية الضرب تلك تختلط الآراء المسموعة مع المعتقدات والمشاعر والأفكار والخلفيات المسبقة والمصالح والمنافع بطريقة لا شعورية في كثير من الأحيان، ومن خلال ذلك التمازج والتصادم يخرج القاسم المشترك الذي يعد خلاصة دقيقة موزونة لكل ذلك الخليط.

طبيعة الرأي العام:

يتميز الرأي العام بأنه ذو ثبات نسبي، وهو في ذلك يقف في منطقة وسطى بين الثقافة والرأي الشخصي؛ فالثقافة أكثر ثباتاً منه، وهو أكثر ثباتاً من الرأي الشخصي. وسبب احتلاله لهذا الموقع أن الرأي العام يكون في العادة تجاه قضايا معاصرة ومؤقتة، كرأي الناس في برنامج حزب من الأحزاب أو تجاه اتفاقية سلام أو نشوب حرب أو ارتفاع الأسعار، وما شاكل ذلك من القضايا الملحَّة والطارئة، ولذا فإننا نرى الرأي العام يتمحور في كل مدة زمنية ليست طويلة حول قضية من القضايا. أما الثقافة فتأخذ صيغة الأسس والمرتكزات والعادات التي تدوم لفترات طويلة.

كما أن الرأي العام لا يمكن تشكيله حول قضية من القضايا إلا حيث ينشط التبادل الاجتماعي، ويكون المجتمع منفتحاً على بعضه بعضاً واعياً بذاته، واضعاً لقضاياه ومشكلاته تحت المجهر؛ حيث يولد ذلك نوعاً من الحركة الاجتماعية النشطة، ويُوجد اهتمام الناس بكل ما يمس حياتهم ومصيرهم.

أما حين يكون المجتمع فاقداً للحس الجماعي، خاملاً في تمازجه الثقافي، مشغولاً كل فرد من أفراده بلقمة العيش اليومية أو غارقاً في شؤونه الخاصة، فإن تكوين الرأي العام آنذاك يكون عسيراً.

بناء الرأي العام:

إن عيش الناس في مجتمع واحد يعني وجود اهتمامات ومشكلات

واحدة أو متقاربة، كما يستلزم وجود عدد من التنظيمات والإحالات الفكرية والشعورية، أي وجود لغة مشتركة وقنوات مشتركة وعقلية مشتركة وعواطف مشتركة، تسهم جميعاً في بلورة مواقف مشتركة من القضايا والمشكلات المطروحة على الساحة الوطنية بوجه خاص والعالمية بوجه عام. وهذا كله يعني أن هناك في التركيبة الاجتماعية والثقافية أصولاً وقواعد عميقة تتحكم - إلى حد بعيد - في نوعية الرأي الذي سوف يتبناه الناس حول قضاياهم المصيرية. ولعلنا نذكر أهم العوامل المؤثرة في بناء الرأي العام على النحو التالي:

١ - العقيدة:

لا يخلو مجتمع من مجموعة من العقائد الموجِّهة نحو الكون والحياة، وعلاقات الناس بخالقهم وأبناء جنسهم، ونحو كينونتهم وعلاقتهم بالماضي إلى جانب مجموعة من التطلعات والاستشرافات للمستقبل. وهذه في جملتها تشكل الأساس النظري والمعنوي للواقع المعاش وامتداداته المختلفة.

وحين تطرح قضية من القضايا فإن الناس لا يتعاملون معها من فراغ، وإنما من خلال الثوابت لديهم. ولا بد من القول إن للعقيدة متناً أساسياً وهوامش أقل صلابة وأقل مركزية في قلوب الناس وعقولهم؛ فعلى سبيل المثال يستحيل في مجتمع إسلامي تكوين رأي عام يمجد الشرك، أو يستبيح الزنى أو شرب الخمر أو الربا أو قتل النفس؛ لأن هذه القضايا ذات موقع مركزي في عقيدة المسلمين وثقافتهم، لكن يمكن من خلال مطارق الضرورة وتنشيط الشهية نحو المغريات تشكيل رأي عام يقبل بالتنازل عن جزء من أرض الوطن ضمن موازنة معينة، أو تقبل هزيمة أو صفعة أو نوع من المعاملات التي هي موضع خلاف أصلاً لدى المرجعية العقدية إلخ. . . .

والعقيدة لا تستمد سلطانها من خلال موقعها الهام في بناء المجال النظري فحسب، وإنما من خلال ما تؤسسه من سلطان عرفي، وما تفرزه من قوانين ومسلَّمات ثقافية تدعم وتصون الثوابت. لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن وعي الناس يظل يقظاً ومنسجماً مع مرتكزاته بصورة دائمة وتامة؛ إذ

إن هيمنة العقيدة على الرأي والموقف والوعي أيضاً لا تتم بصورة آلية، وإنما من خلال الفاعلية الشعورية؛ ولذا فإن من الممكن للرأي العام أن يتجه لتحبيذ فكرة أو قضية لا تقرها العقيدة وذلك حين تسوء الظروف، ويضطر الناس إلى الدخول في موازنات صعبة تتشكل فيها العقيدة الاجتماعية[1] على نحو مغاير للعقيدة الأساسية المطلقة. ونستطيع أن نخلص من هذا إلى أن تشكيل رأي عام صاف وموافق لعقيدة الأمة مرهون بيقظة الوعي وفاعلية الشعور وحسن الظروف، وإلا فكل شيء وارد.

٢ ـ المرحلة العامة التي يمر بها المجتمع:

حين يتشكل الرأي العام حول قضية ما فإنه يكون محدوداً بخصائص المرحلة التي يمر بها المجتمع ودرجة وعيه وتفتحه على قضاياه ومشكلاته فمسيرة البشرية نحو الرشد، ونحو معرفة ما يُصلح ويَصلح لها مسيرة طويلة وملتوية وشاقة، فالمجتمعات الإسلامية ـ مثلاً ـ لم تدرك ضرورة احتضانها (المؤسسات الوسيطة) إلا في وقت متأخر جداً على الرغم من تجربتها الحضارية الطويلة، كما أنها لم توفق دائماً إلى تحديد مصادر الألم والإحباط في المقاطع المهمة والرئيسة من تاريخها المديد؛ ومن ثم فقد يحبذ مجتمع اليوم من الإجراءات والتنظيمات والأفكار. . . ما كان يستنكره بالأمس، وقد يخيب ظنه في حلول كثيرة طالما علّق عليها الآمال في مرحلة من المراحل. وحين قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م كانت وحياً من وعي أمة ضاقت ذرعاً بظلمات (الباستيل) والتحالفات الدنسة ضد الفقراء والضعفاء والمصالح الوطنية العليا؛ على حين كان الرأي العام في جنوب أمريكا ما زال يشعر بالحاجة إلى نظام العبيد؛ لأنه سند العمل الزراعي ومصدر أساسي للعمل في الفلاحة[2].

وهكذا فالحالة الاجتماعية العامة تؤطر القابلية لأفكار أو دعوات معينة.

---

(١) العقيدة الاجتماعية جماع المبادئ والمصالح والموازنة بينهما.

(٢) انظر سيكولوجية الرأي العام والدعوة: ٣٦.

٣ ـ في حالات الخطر يسهل تكوين رأي عام:

إن أي مجتمع يصاب بأزمات حادة، أو يتعرض لمخاطر جدية يتحفز لسماع أي شيء، ويحاول كل فرد من أفراده أن يصوغ رؤية حول ما يجري، ويحدث نوع من الطلب الشديد على المعلومات؛ مما يدفع بالكثيرين إلى الاختلاق والتزيد لسد حاجة الطلب؛ كما أنه في أحوال الأزمات والتهديدات ـ ولا سيما الخارجية ـ يكون الناس في حالة من الارتباك وضعف التوازن؛ مما يسهِّل التأثير في مواقفهم وآرائهم. كما أن المخاطر تجعل الناس يبحثون عن قيادة تمضي بهم إلى بر الأمان، ويتقدم في العادة كل من يأنس في نفسه نوعاً من الأهلية؛ مما يجعل الناس يتلقون بالقبول ـ ولو مؤقتاً ـ كل ما يسمعونه على أنه جزء من التجربة الجديدة.

ويستطيع تشكيل الرأي العام في هذه الحالة كل من يملك بعض الوسائل الإعلامية، ومن يسوِّق المعلومات والأخبار التي تدغدغ عواطف الناس، وتوافق أهواءهم. لكن رد الفعل سيكون عنيفاً ونكوصياً إذا ما اكتشف الناس أنهم استُغِلّوا استغلالاً سيئاً.

٤ ـ كلما كان المجتمع بسيطاً كان تشكيل الرأي العام فيه ميسوراً:

حينما تتعقد الحياة في مجتمع يتعقد فيه كل شيء؛ حتى طرق الفهم والتفهيم حيث يكتسب الناس الخبرة التي تمكنهم من وزن الكلام الذي يسمعونه، كما أن قنوات الاتصال ومصادر المعلومات تحدث نوعاً من الدفق المعلوماتي على ذهن القارئ والسامع؛ فيخفف من درجة حماسته لفكرة بعينها، كما أن كل اتجاه من اتجاهات الرأي يكشف عيوب الاتجاهات المغايرة مما يجعلها جميعاً تتقاسم آراء المواطنين وتتوازعها بحسب قوَّتها وإقناعها. وهذا ما نجده واضحاً في استطلاعات الرأي في الغرب حيث لا يستطيع حزب أو زعيم ـ غالباً ـ أن يحظى بنسبة عالية من أصوات المواطنين المؤيدين لسياساته وتوجهاته.

أما في المجتمعات البسيطة فإن وسائل الناس وقدرتهم على تمحيص ما

يسمعونه تكون محدودة، كما أن المعلومات التي تتدفق عليهم تكون قليلة وغير مبلورة بالإضافة إلى أن الاستعداد لقبول الشائعات يكون أكبر، وكل هذا يؤدي إلى سهولة تكوين رأي عام عندهم حول أي شيء من الأشياء قبولاً ورفضاً، وتعكس استطلاعات الرأي والانتخابات هذا بشكل واضح أيضاً.

٥ ـ يتشكل الرأي العام حول القضايا المحورية في حياة الناس:

لكل شعب من الشعوب قضاياه التي تحتل بؤرة الشعور منه؛ ففي الأوساط التجارية والبلدان المتقدمة عموماً يتشكل الرأي العام حول الربح والخسارة في أسهم المصارف والشركات وأسعار العملات والتضخم والفضائح المالية والسياسية وغلاء المعيشة والتأمين الصحي.. أما في المجتمعات الزراعية فإن ما يطفو على السطح هو أسعار المنتجات الزراعية وأحوال المناخ ومشكلات البذور.. وفي المجتمعات التي تخوض حرباً يتشكل الرأي العام حول البطولات والتضحيات والأسلحة والأخطاء الحربية وهكذا..

إن النجاح الذي ينبغي أن يسعى الدعاة إليه هو جعل قيم الإسلام وتوجيهاته وقضايا الأمة الكبرى ـ مركزاً لاهتمام الناس والسمو بمطالب المسلمين عن الأشغال اليومية والقضايا الهامشية. ولا يتم ذلك من خلال كثرة الأحاديث حولها، وإنما من خلال معرفة المداخل الفكرية والشعورية ومعرفة سنن الله في خلقه. وهناك الآن من الدراسات الناضجة ما يمكِّن من معرفة الكثير من ذلك.

وظيفة الرأي العام:

١ ـ تكاثف الرأي العام في إطار من إطارات جماعات الرأي العام يساعد المجتمع في التعرف على مشكلاته[١]؛ حيث إن معرفة رأي الناس في أوضاعهم ومشكلاتهم مهمة جداً؛ ليس لنسبة الصواب التي فيه، ولكن لأن

---

(١) سيكولوجية الرأي العام: ٣١.

ذلك يؤمن قدراً من (التبادل الاجتماعي) الذي يعد أكبر ضمانة لمنع حدوث ثورات وانهيارات اجتماعية كبرى. كما أن تلك المعرفة تمكن من إيصال الجهد والاحتجاج الاجتماعي إلى محكاته النهائية؛ فيترك الناس التلاوم والكلام على المثاليات والمستحيلات ويشرعون في عمل الممكن، كما يدركون حجم المسؤولية الملقاة عليهم، والتي تعودوا إلقاءها على كواهل الآخرين.

٢ ـ مهما بلغت قوة دولة أو جماعة فإنها تظل بحاجة إلى مساندة ومظاهرة الرأي العام؛ حيث إن الشعوب تظل منبعاً لطاقات لا تنفد، والخطط الدعوية والحضارية الناجحة هي تلك التي استطاعت إشراك أعداد كبيرة من الناس في التعاطف معها والمشاركة فيها؛ ومن هنا احتلت الدعاية وفنون الإعلان أهميتها المتزايدة في العصر الحديث، وإن كان كثير منها يوجه توجيهاً سيئاً!

وكان من الأسباب المهمة في إخفاق التجربة الاشتراكية عدم الاكتراث بآراء الناس في الخطط التي تنفذها الدولة، ومحاولة إبراز رأي عام مزوَّر من أجل كسب الدعاية والاستحواذ على تعاطف مستحيل! وفي المقابل فإن الإسلام قد استطاع أن يحوِّل العرب إلى جيوش من الفاتحين، ويزجَّهم في ساحات الصراع العالمي؛ ليمكِّنوا لدين الله في الأرض؛ حيث أصبح الجهاد الشغل الشاغل للرجل والمرأة والصغير والكبير.

ولا تستطيع أمة أن تنجز المشروعات الكبرى دون حشد قاعدة عريضة من أبنائها خلفها، ولا يتم ذلك إلا من خلال تشكيل رأي عام عريض أولاً.

٣ ـ يُعد الرأي العام الركيزة التي تستند إليها الأنظمة والقوانين، وقد أثبتت التجربة أن خضوع الناس لقوانين لا يؤمنون بها، ولا يرتاحون لها يظل شكلياً ومحدود الفائدة؛ ومع أنه لا يوجد فراغ قانوني في أية دولة من دول الأرض، إلا أن الواضح أن فاعلية القوانين في دفع الناس في الاتجاه الصحيح وكفهم عن الجرائم تكاد تكون معدومة في بلدان كثيرة، وذلك

بسبب عدم مساندة الرأي العام لها[1].

٤ ـ قبل أن تنشأ الدول والسلطات كانت المجتمعات تحكَم عن طريق الأعراف والتقاليد، وكانت المجتمعات تعتمد على الرأي العام في محاصرة الجريمة والأفعال الشائنة؛ ولم تتناقص أهمية الرأي العام بعد وجود الدول والأنظمة واللوائح؛ إذ إن القوانين مهما تكن مفصَّلة فإنها تترك مساحات من الفراغ التي لا يمكن تغطيتها إلا عن طريق العرف والرأي العام. كما أن القوانين مهما بلغت من القوة والصرامة والوضوح تظل قابلة للتأويل والتفسير؛ لأن طبيعة صياغتها تسمح بذلك، أما الرأي العام فإنه يصعب تجاهله أو تأويله، وليس أمام الناس سوى الرضوخ له، أو دفع الثمن غالياً في مقابل عدم الاكتراث به.

وليس بخافٍ من وجه آخر أن الرأي العام أقوى سلطاناً من القانون بسبب أن المجتمع كله يتولى الرقابة على مراعاة الأعراف والاتجاهات والقيم الجماعية؛ على حين أن الدولة وحدها هي التي تتابع تطبيق النظم والقوانين.

بقي أن نقول إن الرأي العام ـ بخلاف الدولة ـ يبدو للناس في مظهر مقبول بعيد عن القهر والإكراه؛ وهذا يخفف من التوترات الاجتماعية؛ وفي ذلك خير عظيم.

ولا بد من القول في نهاية المطاف: إن تحسسنا لأهمية الرأي العام الدولي والمحلي ما زال ضعيفاً؛ وإن مما يؤسف له أن بعض الشباب ـ الذين لا ينقصهم الإخلاص ـ يقومون على الساحة الدولية بأعمال طائشة تحشد الرأي العام العالمي في مواجهة الإسلام وأهله دون أدنى شعور بالمسؤولية تجاه ذلك.



---

(١) انظر الإعلام في العصر الحديث: ٥٥ وما بعدها.

(٥) ثقافة الإقلاع

حين تريد أمة من الأمم تحسين واقعها إلى الأفضل، فإن عليها أن تبدأ الطريق من نقطة إصلاح ثقافتها، ومراجعة مرتكزاتها وآليات التفكير والتجديد والمحاكمة فيها، للتعرف على (العقابيل) الثقافية؛ فتتخلص منها، وعلى النقاط التي تحتاج إلى تقوية فتدعمها.

ولعلنا نتحدث عن ثقافة الإقلاع لدى (الصفوة) من الدعاة والمثقفين والمفكرين والقيادات الاجتماعية، ثم نعرِّج على الثقافة (الشعبية)، وما ينبغي زرعه فيها وتشذيبه منها؛ لعل الله ـ تعالى ـ يأخذ بأيدي هذه الأمة إلى المزيد من الرشد والفلاح؛ وهو أهل لكل فضل.

ثقافة الصفوة:

نعني بالصفوة كل أولئك الذين تشكلت ثقافتهم بطريقة واعية، ونالوا حظاً من المعرفة الراقية التي تمكنهم من قيادة مجموعات ممن حولهم، والتأثير فيهم. وكلمة (الصفوة) كلمة فضفاضة في دلالتها؛ فالصفوة متفاوتون في ثقافتهم وتأثيرهم؛ لكن يجمعهم جميعاً أنهم ليسوا من الشرائح الشعبية التي تتكون ثقافتها عن طريق تلقين المجتمع لهم وبطريقة لا شعورية. ولعلنا ـ على منهجنا ـ نوجز نقاطاً مهمة في ثقافة الإقلاع الحضاري لدى الصفوة في المفردات التالية:

١ ـ إن الصفوة دائماً قلة، وكلما قست شروط الجودة وجدنا أنفسنا نتلفت يميناً ويسرة نبحث عن خلاصة الصفوة وقد نجد، وقد لا نجد إلا أناساً من الدرجة الثانية!. إن سمة كل مجتمع في النهاية هي سمة الصفوة

التي تتولى قيادته الفكرية والاجتماعية؛ وهذه المرحلة بحاجة ماسَّة إلى صنفين: دعاة المثقفين ومثقفي الدعاة، أي أولئك الذين يجمعون بين استنارة الفكر والفهم العميق إلى جانب لوعة وحرقة على واقع الأمة، تشبه لوعة الأمهات! وإذا كنا ننهى أنفسنا عن التعصب للفكرة فإننا نرى أن الصفوة التي لا تتمتع بالحد الأدنى من الرجولة للدفاع عن الأفكار والمبادئ التي تؤمن بها ـ هي صفوة منحطَّة ـ؛ وستظل جاهزة لخدمة مصالحها الخاصة، وتوظيف ثقافتها في بناء مجدها الذاتي، ولو كان الثمن هو عناء أمة بأكملها!. إن قيمة الصفوة بل طبيعة وجودها لا تنبع من القدر المعرفي الذي تحمله، وإنما من مقدار تحملها للهمِّ العام ومشاركتها في إصلاح الشأن العام؛ أي على قدر تعدي نفعها للأمة، وعلى قدر تجاوزها لمصالحها الشخصية. وإن الإحباط الذي تعاني منه الأمة ينصبُّ أولاً على نخبها وقادة الرأي ـ ولا سيما المثاليين منهم ـ فيها؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يركنون إلى اليأس، ويسود كتاباتهم التشاؤم؛ وهم بذلك يدفعون بأنفسهم دفعاً نحو العزلة وأخذ إجازة مفتوحة!. ولذا فإن الحاجة ماسة اليوم إلى أقوام لا ييئسون من إمكان تحسن الأحوال مهما ساءت الظروف.

٢ ـ إننا بحاجة اليوم إلى منح مجتمعاتنا رؤية واضحة ومتَّسقة عن واقع الأمة وتحديد مواطن العطب فيها إلى جانب توضيح مسيرتها الحالية واستشراف شيء من مستقبلها. ولا تستطيع الصفوة منح ذلك ما لم تمتلكه هي؛ وفي هذا الإطار نجد أن المثقفين الذين يجمعون رؤية منهجية شاملة للواقع الذي نعيشه وللصورة التي ينبغي أن يكون عليها ـ ما زالوا لدينا قلة قليلة؛ لكننا نشعر أن الوضع يتحسن، وأن مزيداً من الرشد الفكري بدأ يطرق الأبواب، ويغزو الساحات الثقافية. إن تحديد أسباب الانهيار قد لا يكون بالأمر الصعب في كل الأحيان، لكن استخراج العناصر الخيرة والإيجابية من حياة مجتمع مريض متقهقر يظل أمراً مهماً؛ حتى لا تظل جهودنا تعود إلى نقطة الصفر في كل مرة. كما أن من واجبنا أيضاً ألا نطرح الأفكار التي تؤدي إلى الإقلاع الحضاري فحسب، وإنما أن نتعلم كيف نطرح سياسات

الإقلاع والانطلاق؛ فالسياسات دائماً هي التي تكشف عن مدى إمكانية تحويل الأفكار إلى حقائق على الأرض. وهذا ما كان ينقص الأفكار الإصلاحية التي طرحت منذ أكثر من قرن من الزمان.

٣ ـ إن أحوج ما تحتاجه مرحلة الانطلاق والإقلاع مثقفون يحملون ثقافة تمازجية تكاملية، هدفها استشراف جميع المؤثرات والعناصر ذات الثقل في تكوين الوضع الحالي، وتلك اللازمة والمطلوبة للتغيير المنشود. ومن الملاحظ أن خيار الطاقات الفكرية والثقافية لدينا مشغولة بجزء بالغ الضآلة من المعرفة، يزيدون فيه ويوسعون ويشذبون، ويقدمونه تارة، ويؤخرون، حتى صحت فينا مقالة برناردشو: «يعرفونَ كل شيء عن لا شيء». ومع إيماننا العميق بأن العلوم لا تتقدم إلا عبر التخصص إلا أن ذلك التقدم مهما كان ضخماً لا يغني المشتغلين بالشأن العام والمخططين والمنظرين للتقدم الحضاري العام عن الرؤية الكلية الشاملة التي لا تتوفر عادة إلا عند ذوي المعرفة الأفقية؛ لكن حذار من أن نخدع بالثقافة الموسوعية القائمة على تكديس معلومات من تخصصات شتى دون البحث عن أوجه الربط والتكامل بينها. فحين دخلت الأمة في نفق الجمود ثم التخلف كان لديها كثيرون ممن يدرسون ويدرِّسون علوماً عديدة، لكن غفلتهم كانت كبيرة عن الخلاصة التي يمكن استحلابها من خلال المزج بين تلك العلوم، على نحو ما تصنعه النحلة في جنيها من الرحيق، فتحيله إلى شراب بديع منقطع النظير. إن مجاوزة التخصص ومحاولة الاطلاع على علوم لا نعرف منطلقها، أو الأسس التي تنهض عليها محنة حقيقية، كما أن الهامش الفاصل بين تكلس الباحث داخل معطيات تخصصه الجزئية، وبين احتمال تحلله في عالم المعرفة الواسع هامش ضيّق، لكن المغامرة الناجحة في حقول معرفية شتى ستجعلنا كمن قام برحلة طويلة مثرية عاد بعدها إلى الوطن، وقد طرأ عليه تحوّل شامل[١].

إن مما يساعد على تكوين الثقافة التمازجية بعد سعة الاطلاع الهادف

---

(١) انظر في هذا مقدمة في علم التفاوض: ٢٧٣ وعودة الوفاق: ٢٣٠.

أن نتساءل باستمرار عن نقاط الارتباط واللقاء بين ما نقرأ، من نحو: ما أثر الاقتصاد في الأخلاق، وما أثر القهر في التربية، وما أثر كثرة الحفظ في كفاءة التفكير، وما أثر سوء الظروف في مفارقة الأصول وتضخم فقه الضرورات. . . . وما أثر الثقافة الشفوية في صياغة أفكار الناس وعقلياتهم. . . .

أسئلة كثيرة لا نهاية لها يجب أن نطرحها على أنفسنا في كل وقت وحين.

إن علينا أن نقرأ للنوابغ في كل علم؛ إذ إن جملة واحدة من هؤلاء تفتح آفاقاً لا تفتحها كتب من كلام غيرهم!

٤ ـ إن ثمة موازنة ضرورية ودقيقة بين المحافظة على الثقافة الوطنية الإسلامية وبين الانفتاح على الثقافات الأجنبية، وهذه الموازنة من مهمات الصفوة الذين يدركون وحدهم طاقة ثقافتنا الأهلية على استيعاب دفق الثقافات الأجنبية المغايرة لها في كثير من أصولها ومنطقها. وثقافتنا الإسلامية اليوم تمر بمرحلة التعرف على الذات من جديد، وإعادة تفسير بعض الرموز، ومنح بعض الأحداث والمفاصل التاريخية معنى جديداً، وهذا يعني أنها لا تقوى على الكثير من الأعباء الإضافية التي يجب أن تتحملها من جرّاء استيعاب وهضم ثقافات أخرى. وإذا تجاهلنا هذا الموضوع فقد نكون كالطبيب الذي قرر إجراء عملية جراحية كبرى لجسد منهَك!. والطريق الأسلم ـ وربما الأحكم ـ أن نحاول استنطاق الرموز الثقافية الإسلامية على نحو يجعلها أكثر وضوحاً وشمولاً وقابلية لفهم معاصر وذلك عبر فاعلية حضارية عالية الوتيرة. إنه لا يجوز لأفكارنا التجديدية أن تبتعد كثيراً عن قدرة مجتمعاتنا على الاستجابة والتمثل؛ حتى لا نكون كالطائر الذي يبيض في غير عشّه!

٥ ـ إن جهود المثقفين والدعاة ينبغي أن تتمحور حول أهداف رئيسة معينة تجعلها الأمة نصب عينيها، وهي تستأنف مسيرتها الحضارية. ولا تقل الموازنة بين هذه الأهداف وإعطاء كل منها حقه أهمية عن التحقيق. هذه

الأهداف يمكن ضغطها في ثلاثة، هي: العبادة، وتعني الطاعة المطلقة للمعبود المتضمنة كمال الحب مع كمال التعظيم. ثم الخلافة عن الله ـ تعالى ـ في الأرض، وهي تعني إقامة الحق والعدل والتخلق بأخلاق الله ـ تعالى ـ على قدر الطاقة والوسع. ثم عمارة الأرض، كما قال ـ سبحانه ـ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، أي: طلب منكم عمارتها.

هذه الأهداف العليا ينبغي أن تجتذب كل أنشطتنا، كما أن جهودنا وأفكارنا الصغرى ينبغي أن تستبطن هذه المعاني وتستلهمها على مستوى من المستويات. وكل فكرة أو خطة لا تستهدف هذه الأهداف، ولو بصورة غير مباشرة ينبغي أن نتلقاها بحذر ونقف منها موقف المتأمل، وإلا فإن الانزلاق نحو الدنيوية والمادية أمر سهل ميسور.

٦ ـ اقتصادية الثقافة تكمن في إنتاج ألوان من الأفكار والطروح والخطط والرؤى والآليات التي تساعدنا على توفير الجهد والوقت والمال؛ وإن لدينا الملايين من العقول التي تنتج أفكاراً وثقافة لا مساس لها بأي شيء (عملي) أو توفير في الجهد أو الوقت، كتب كثيرة تطبع وأخرى تحقق ومشاريع كثيرة تخطط، والمردود لا يتناسب أبداً مع التكلفة. إن الأمة محتاجة إلى المال ومحتاجة أيضاً إلى الوقت، وإلى استخدام الجهد في قضاياها الأكثر إلحاحاً، وإن مسؤولية المثقفين أن يعطوا من أنفسهم القدوة لغيرهم في توظيف كل ذلك توظيفاً متدني الكلفة عظيم المردود، وهذا يتطلب شيئين مهمين هما: التنازل عن بعض الخصوصيات والمكاسب الشخصية؛ والبصيرة النافذة في متطلبات العصر الذي نعيش فيه.

الثقافة الشعبية:

إذا كانت ثقافة الصفوة تتكون عن طريق إرادي متعمد ومختار، فإن أكبر خصيصة للثقافة الشعبية أنها تتكون عن طريق لا إرادية وبأدوات غير

---

(١) سورة هود: الآية ٦١.

ملموسة ولا محددة، وهي تتشكل خارج الوعي ويتشبع بها الفرد العادي على النحو الذي يستنشق به الهواء، وفي هذا كله يكمن سر صلابتها واستعصائها على الغزو الأجنبي أكثر من الثقافة العالية.

إذا كان الأمر على هذه الصورة فإن تحسين الثقافة الشعبية وتوجيهها ورفع مستوى اهتماماتها ـ يظل إحدى مسؤوليات مثقفي النخبة الذين في إمكانهم تسليط الوعي على الثقافة الشعبية، وإدراك ما تتطلبه مرحلة الانطلاق والإقلاع من أخلاق واستعدادات وتوجهات. . . وإذا لم يقم الصفوة بمهمتهم هذه فإنهم لا يقضون على إمكانية انطلاقة حضارية راشدة فحسب وإنما يعرضون أنفسهم للنبذ والتهميش من قبل الطبقات الدنيا.

ولعلنا نذكر في النقاط التالية أهم ما نرى ضرورة غرسه وإشاعته في الثقافة الشعبية من أجل تأمين خلفية ثقافية واسعة تدفع بالأمة نحو الانطلاق المأمول:

١ ـ إشاعة ثقافة المشاركة؛ فالقاعدة الشعبية تشعر باستمرار أنها معزولة عن توجيه الحياة ومواقع اتخاذ القرار، ففي المعامل مثلاً قلما يستشار العمال في مشكلة إنتاجية، ومن ثم فإن العامل يعوض عن ذلك بمحاولة بلورة موقعه في المصنع. . . كأن يكون رئيساً على العمال أو صاحب حظوة عند رب العمل أو مهندس المصنع، وهذا بالإضافة إلى أنه يخلق توترات داخل المصنع يجعل العمال لا يشعرون بالانتماء إلى عملهم، ولا يشعرون بأية مسؤولية تجاه واقعه أو مستقبله. والذي سيبادر إلى تنشيط روح المشاركة وآلياتها هم المثقفون، ومهما قيل إن القاعدة ليست أهلاً لإبداء الرأي والمشورة فإن الصحيح أن الطريق الوحيد لرفع سوية تفكيرها وصقل خبرتها هو زجها في خضم المشاركة وإعطاء الاهتمام لكل ما تقوله. وقد نجح اليابانيون نجاحاً منقطع النظير في جعل المصانع اليابانية أشبه بمحاضن لأسرة واحدة يتكلم فيها الصغير والكبير دون تكلف أو غضاضة، ويشعر الجميع بالانتماء إليها على قدم المساواة.

٢ ـ الانطلاق الحضاري لا يمكن له أن يتم نتيجة وحي المبادئ العليا فحسب؛ إذ إن طبيعة المبادئ أنها لا تعمل في فراغ، ودون توفر شروط موضوعية تؤهل الناس للاستجابة لها، ونحن نلاحظ أن ثقافاتنا الشعبية تشكو من أمراض مزمنة تتمثل في الآنية والزهد في العلم والمستقبل، إلى جانب ضعف الحسّ الجماعي والمجتمعي، وعدم تقدير الإنجاز الذي يحققه الآخرون بالإضافة إلى حب الحرية والعدل دون عمل أي شيء لتدعيمهما... وهذا يعني تطلب نوع خاص من التركيز على حب التطلع نحو المستقبل وحب العلم وتشجيع الأعمال الخيرة النبيلة إلى جانب الاهتمام بإقامة أعلام العدل حيثما كنا وأينما اتجهنا، وهذا كله يحتاج قبل كل شيء إلى إدراك أهميته لمرحلة الإقلاع إلى جانب الصبر والمصابرة؛ فالزمن دائماً جزء أساسي من الحل.

٣ ـ إن الوضعية العقلية لدى كثير من الشعوب الإسلامية تحتاج إلى نوع من التعديل والتحسين، وهذه الوضعية هي ـ ولا شك ـ نتيجة التراجع الثقافي حيث الأمية ضاربة جذورها، وحيث العناية بقضايا الفكر والمعرفة ما زالت ضامرة ومحدودة؛ وإن مما تحتاج إليه الثقافة الشعبية حاجة ماسة تأسيس عقلية الكف عن الكلام والمسارعة إلى المواقف الحادة دون وجود معلومات حسنة صالحة لقول شيء أو عمل شيء. ومن الملاحظ أن العربي ـ بصورة خاصة ـ سريع الاندفاع خلف العواطف وبريق الأمنيات، كما أنه حسن النية إلى حد بعيد، وقدرته على محاكمة الأمور أيضاً محدودة. ومع أن القرآن الكريم أمرنا ألا نتبع الظنون، وألا نقول بغير علم في مواضع كثيرة إلا أن واقع الحال على النحو الذي وصفنا.

والمدهش في هذا أن موقف كثير من المثقفين في هذا الموضوع لا يختلف عن موقف العوام؛ مع أننا نعول في علاج هذا الداء عليهم!.

إن هناك الكثير مما ينبغي عمله من أجل تأسيس عقلية منهجية لا تقول بغير علم، ولا تجادل من فراغ، ولا ترى في كلمة «لا أدري» أو كلمة «دعونا ننظر» أو «دعونا نلمس» ـ أية غضاضة.

إن ملفات هذه القضية ينبغي أن تظل مفتوحة مع محاولة التجديد في المعالجة والطرح حتى نشعر أننا تقدمنا نحو العافية.

٤ ـ يلاحظ أن عقلية (المستحيل) تسيطر على أكثر العامة لدينا، ولهم في ذلك عذر؛ فمعطيات تاريخنا القريب لا تدل على أن مساحات الحركة وإمكانات التقدم أمامنا فسيحة أو كبيرة؛ لكن مهمة المثقفين أن ينشروا أشعة الأمل عند استحكام اليأس، وهذا هو شأن الربانيين الذين لا يقطعون حبال الرجاء من كرم الله مهما ادلهمت الظلمات! إن كثيرين منا ينظرون إلى ما ينبغي عمله حتى نصبح أمة محترمة وقوية، فيجدون أمامهم جبالاً من المهمات، ثم ينظرون إلى ما بين أيدينا من وسائل وإمكانات؛ فتعصف بهم رياح الإحباط والانحسار! ولم تكن أبداً مشاعرهم كاذبة ولا مصطنعة، لكن طريقة النظر هي الخاطئة، ولو أننا عملنا وفق طريقة أخرى لكان المردود مختلفاً.

إن القاعدة العملية في معالجة الأمور الجسام يمكن تجسيدها في القول: «إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً»، وهذا مبني على أن كثيراً من المستحيل ليس مستحيلاً في ذاته، وإنما هو مستحيل إضافي لفقد مقدماته وأسبابه عند بعض الناس؛ فإذا باشرنا الممكن من مقدماته تحوّل المستحيل نفسه إلى ممكن. إن علينا أن نؤسس عقلية «شيء خير من لا شيء» بدل عقلية «كل شيء، أو لا شيء».

٥ ـ في عصرنا الحاضر تضخمت الخصوصيات بصورة مَرَضية، وزادت الحضارة الحديثة العوازل بين الناس مما أدى إلى ضعف التضامن بينهم، وسادت ثقافة «نفسي» مع أن نبينا ﷺ يقول وحده دون باقي الأنبياء في يوم الكرب الأعظم: «اللهم أمتي أمتي»: ومن ثم فقد ضعف بيننا التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكثر منع «الماعون» وبذل الخير، بل صرنا في زمان ينظر فيه إلى من يبادر إلى الخير والإحسان نظرة استغراب[1] إن لم ينظر نظرة شك

---

(١) في إحدى الولايات الأمريكية أسلمت أسر عديدة بسبب تطوع شاب مسلم بمساعدة سيدة عجوز على حمل (سلتها) إلى المنزل!.

وريبة؛ ومن هنا فإن ثقافتنا الشعبية بحاجة إلى أن تستعيد هذه الخلال الكريمة حتى نخفف من قسوة العيش، ونحفظ على مجتمعاتنا نسيجها الاجتماعي المتميز. ولا بد للصفوة ـ والدعاة منهم خاصة ـ أن يعطوا المثل والقدوة من أنفسهم في هذا الأمر خاصة؛ حيث غلب على كثير منهم شيء من الانفصال عن هموم الناس، أو شيء من التعالي على الانشغال بمثل هذا!.

إن قضية الثقافة تحتمل كلاماً كثيراً؛ ولعل فيما قدمناه ما يسلط الضوء على أهم قضاياها؛ والله المستعان.



المقدمة الثالثة

في سمات الداعية وسلوكه

١ ـ السلوك رؤية جديدة.

٢ ـ السمات الأساسية للداعية.

٣ ـ سمات تكميلية في شخصية الداعية.

(١) السلوك ـ رؤية جديدة

إذا قيل إن الجوهر الإنساني ثابت لا يتقدم ولا يتأخر؛ فذلك صحيح إلى حد بعيد. وإذا قيل إن الثقافة ومجموعة الظروف الحياتية المختلفة تمنح لبعض الصفات وبعض السلوكات معنى جديداً، أو تضفي عليه أهمية خاصة ـ فذاك أيضاً صحيح. في العصر الحديث تبدلت أشياء كثيرة، وارتفعت أقدار أشياء، وانحطت أقدار أخرى؛ وكل ذلك بسبب ما أصاب المزاج العقلي والنفسي للناس من تبدلات...

مهما قيل في وصف العصر الذي نعيش فيه فإن أصدق ما يُنعت به أنه عصر المادة والجسد والأشياء، عصر المظهر لا الجوهر، وعصر المكاسب لا المبادئ، وقد صارت القضايا العقدية والأخلاقية هامشية في حسِّ كثير من الناس، أو هي على أحسن تقدير قضايا شخصية، وقناعات فردية، أي إن ذلك أدى إلى تضاؤل الوعي الجمعي تجاهها. هذا الوضع وإن أعطى للقانونْ والنظام دوراً متزايداً إلا أنه لم يلغ مكانة الأخلاق في المجتمع؛ بل منحها جاذبية جديدة؛ فالشيء القليل لا يفقد قيمته، بل يصبح عزيزاً.

حين أُهملت التربية الخلقية في كثير من المؤسسات في الغرب صار الناس ينظرون بتقدير أكثر للموقف الأخلاقي؛ فالمواطن الصالح هو دائماً إنسان أخلاقي لا يكلف الدولة والمجتمع أي تكاليف إضافية، وإنما يساعد في تحمل جزء من تكاليف إدارة وضبط غيره. ومن هنا نجد أن الإنسان الذي يمتنع عن التدخين وشرب المكيفات الأخرى ـ مثلاً ـ هو موضع تقدير في الثقافة الأمريكية. ثم إن الحياة الحديثة قد ضخمت الخصوصيات، ومن ثم اتَّسعت دوائر التطوع؛ فما عاد الناس يتوقعون من غيرهم الكثير من

المساعدة والمعاونة؛ ومن ثم صار ينظر إلى كثير من الأعمال نظرة احترام لأن أصحابها متطوعون بها. كما أن سيطرة الشهوات جعلت ذوي السلوك الحسن رمزاً للرجولة وقوة الإرادة.

وهناك قضايا أخرى أساسية منحت الخلق الرفيع والسلوك القويم منزلة خاصة، منها: كثرة الدعوات والفلسفات التي تدّعي صلاحيتها لإنقاذ العالم؛ مما أوقع الناس في ارتباك حيث تساوت كل المذاهب في الدعوة إلى الخير والفضيلة؛ مما جعل مجرد الكلام غير ذي قيمة، وصار المحك الوحيد هو المسلك الذي ينتهجه أبناء تلك الدعوات وبرهانهم العملي الملموس على أنهم الأصلح لعمارة الأرض ونفع عباد الله والتخفيف من آلام البشرية...

أما على الصعيد النفسي فإن التأثير في الآخرين عن طريق الموعظة والأمر والنهي يظل محدوداً حيث يقف ظرف المتلقي وظرف الواعظ دائماً عائقاً دون التواصل الكامل، وحيث يتم استقبال ما يطلب القيام به عن طريق (الوعي). أما حين يتجلى المبدأ أو القيمة الخلقية في سلوك شخص من الأشخاص فإن التأثير في الآخرين يتغلغل في نفوسهم وأذهانهم عن طريق «اللاوعي» و«اللاشعور» فيتأثرون، ويتغيرون بطريقة خفية. ثم إن طبيعة القيم تتأبى على القسر والإكراه، فهي لا تُفْرض لكنها تجذب. وقد استطاع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وكثير من صالحي هذه الأمة من تجار وغيرهم نشر المبادئ والأخلاق الإسلامية عن طريق السلوك العملي، ولم يكن لدى القوم وسائل إعلام، ولا كتب فلسفة؛ بل إن كثيراً منهم كانوا أميين.

وفي النهاية فإن الإسلام اليوم يتعرض لحملات تشويه واسعة النطاق، ولن يكون من المفيد كثيراً مقابلة تلك الحملات بحملات (تنظيرية) لنقاء الإسلام وصلاحه؛ إذ إننا لا نملك العدة لذلك، ولو ملكناها فإن المزاج العقلي الحديث لا يرتاح لنغمات الدفاع والتبرير، إنما الرد الصحيح سيكون

في إثبات المسلم أنه شيء مختلف ومتميز، ولن يبدأ الخطوة الأولى في هذا العامةُ، وليس هذا مما يُؤَمّل منهم، إنما الذين يتوقع ويرتجى منهم ذلك هم المثقفون الأخيار والدعاة الأبرار الذين يملكون إرادة التضحية والعطاء، ويصبرون في ذات الله على جعل أنفسهم مرآة تعكس مبادئ هذا الدين وأخلاقه.



(٢) السمات الأساسية للداعية

إن أخلاق الإنسان لا يتم التعرف عليها إلا من خلال السلوك، ومن ثم فإن الحديث عنها يمتزج امتزاجاً كبيراً بالحديث عنه. ولا بد من القول: إن ما سنذكره من سمات وصفات نرى أنها أساسية في شخصية الداعية ـ هو أساسي أيضاً في شخصية المسلم، وكثير منه أساسي في شخصية أي إنسان بصورة عامة؛ لكننا نذكرها ونذكِّر بها؛ لأن القصور فيها عند عامة الناس لا يترتب عليه ذلك الضرر أو الخلل الذي يترتب على القصور في حياة إنسان يؤهل نفسه ليؤثِّر في الآخرين؛ وليكون قدوة لهم. إن ما يحتاجه التجاوز من السمات والقدرات دائماً متميز وخاص.

ومن جهة أخرى فإن ما يفصل بين ما هو جوهري، وكمالي في هذا الباب ليس واضحاً في كل موضع ولا كل مناسبة، ففي ظرف ما يكون ما هو كمالي شرطاً أساسياً للنجاح، لكننا هنا نمضي على ما هو غالب ومألوف، وهذا سرد موجز لأهم ما يحتاجه الداعية من سمات وأخلاق أساسية:

١ ـ الإخلاص:

إن المشاق التي يكابدها الداعية في سبيل الله ـ تعالى ـ ومناصرة دينه تستهدف رضوان الله والفوز بمثوبته؛ ومن الشروط الأساسية لقبول الأعمال عامة (الإخلاص)؛ حيث ينبغي أن يكون العمل خالصاً من الشوائب والدوافع الجانبية، وليس تحصيل الإخلاص بالأمر اليسير، وإنما يحتاج إلى يقظة تامة ومجاهدة دائمة، وإلا فما أسهل الانزلاق، وانصراف النية أو تكديرها بمنفعة شخصية. وقد أمرنا الله تعالى بأداء الأعمال خالصة لوجهه حين قال: ﴿فَٱعۡبُدِ

﴿ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١٤﴾[2]. وقد كان السلف يسترون أعمالهم الصالحة، ويبالغون في ذلك خوفاً من الرياء؛ ويلاحظ اليوم أن الطلب اشتد على المديح والثناء، وهذا يعكِّر صفاء النيات، ويعرِّض الأعمال الصالحة لخطر الرفض. واستجابة لذلك الطلب نجد الكثير من الدعاة يبالغون في المديح والثناء لبعضهم بعضاً ولغيرهم، وهذه المبالغة في المديح تتخذ أحياناً نوعاً من التألّي على الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وفيها من صنوف الخضوع وإذلال النفس وإدخال الغرور على الممدوح الكثير!! إذا كان الصواب شرطاً أساسياً للنجاح فإن الإخلاص شرط أساسي للثواب والقبول، ولا غنى للداعية عن هذا وذاك.

٢ ـ تجرد الداعية عن العصبية والمنافع الخاصة:

إن كثيراً من جاذبية الدعوة نابع من اعتقاد المدعوين أن ما يُدعَون إليه لا يعود بالفائدة إلا عليهم، فهي دعوة لإنقاذهم من النار، ولإصلاح معاشهم في الدنيا؛ ولذا فإن نظرتهم إلى الدعاة هي نظرة احترام وتقدير وإكبار حيث يضحون بأوقاتهم وراحتهم من أجل الآخرين. وقد كان من سنة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الإعلان لقومهم أنهم لا يبتغون من وراء دعوتهم منفعة خاصة على أية صورة من الصور حتى يسدوا الطريق من أوله على المرجفين والمروجين للدعاية المضادة، وكان الشعار دائماً ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٩﴾[3]. وحين تباطأ أهل مكة بالإيمان فنَّد القرآن الكريم شبهاتهم ومزاعمهم، وكان منه ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾[4]. فأخذ الأجرة على الهداية ثقيل على الناس، ولذا فإن حبيباً النجار كان يرغِّب الناس بقبول دعوة المرسلين؛ لأن أعلام الحق ترفرف على

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢.

(٢) سورة غافر: الآية ١٤.

(٣) سورة الشعراء: ١٠٩.

(٤) سورة الطور: الآية ٤١.

رؤوسهم، ولذا قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾[1]. وقد كانت مسألة (الأجرة) فيصلاً قديماً بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، فالمنطق العام في أعمال الدنيا هو استحقاق المقابل عن كل جهد، ولذا فإن الخضر ـ عليه السلام ـ لما وجد جداراً مائلاً فأقامه قال له موسى ـ عليه السلام ـ ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾[2] ولا سيما أن أهل القرية لم يضيفوهما مع حاجتهما إلى الطعام.

وقد خبر الناس التعامل مع الكهنة والسحرة والمشعوذين الذي يدَّعون نفع الناس وإصلاح حالهم، وتأكد في وعيهم فرق ما بينهم وبين الأنبياء أن هؤلاء يأخذون الأجر على خدماتهم، والسحرة وأضرابهم يعرفون هذا من أنفسهم، ولذا فإنهم سألوا عن الأجر حين دعاهم فرعون إلى مباراة موسى إذ قالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١﴾[3].

مشكلة الدعاة مع (الأجرة) بدأت على مستوى الأمة حين انخفضت الوتيرة الإيمانية ووتيرة الرغبة في هداية الخلق وإنقاذهم، على حين نشطت رغبات السيطرة على الآخرين وأخذ ما بأيديهم من مال ومتاع، وذلك حين قلَّ أو رحل النمط الرفيع الذين رباهم النبي على عينه، وخلفهم أقوام ذاقوا طعم الدنيا والرفاهية، فصار الهمّ ليس كيفية إدخال الناس في دين الله أفواجاً، وإنما الآلية التي تؤدي إلى توسع الفتوحات، وتعظيم حركة تدفق أموال الجزية والخراج من الأطراف إلى القلب «عواصم الخلافة»، وهذا ما نلاحظه ـ بكثير من الأسى والحزن ـ في سير الفتوح فقد تضاءلت الرغبة العامة في هداية الخلق، وصار الهم المسيطر هو الجزية أو القتال الذي قد يأتي بمنافع أكثر منها بكثير! نعم ظل في صفوف الجند من يطلب الشهادة، ويسعى إلى هداية الخلق؛ لكن ذلك لا يشكل سياسة عامة للجيش. وهذا هو أوضح تفسير لثورات البلدان المفتوحة حرباً؛ حيث صار ثمة شعور بأن هؤلاء

---

(١) سورة يس: الآية ٢١.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٧.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٤١.

الفاتحين أهل دنيا وليسوا أهل دعوة، أهل جباية، وليسوا أهل هداية!.

وقد شاهدنا في عصرنا الحاضر اختراق بعض الأثرياء للصفوف الأولى من خلال ما ينفقونه على الدعوة أو بعض رجالاتها دون أن يكون لهم ما يؤهلهم للجلوس في الصف الثالث!.

وقد دخلت بعض الجماعات الإسلامية اليوم في معارك انتخابية (برلمانية) وبلدية وصارت منابرها مهتمة بالمكايدات السياسية أكثر من اهتمامها بهداية الناس وتعليمهم وحل مشكلاتها؛ وهذا سوف يؤكد في حسّ الناس ـ ولو بعد حين ـ أن هؤلاء يسعون إلى هدايتهم من أجل أصواتهم في الانتخابات؛ وبذلك تفقد الدعوة زخمها ورصيدها، ولطالما فقدت دعوات ومذاهب وفئات فتوحاتها الروحية نتيجة ظن أو اعتقاد الناس أن الدعوة تستثمر لجلب منافع سياسية!.

إن مما أساء إلى الدعوة والدعاة مرة أخرى عدم وجود مؤسسات جيدة ترعى الدعاة، وتتولى الإنفاق عليهم؛ مما جعل كثيراً من الدعاة بحاجة ماسة إلى عون الذين يدعونهم، وهذا موجود في العالم الإسلامي بشكل واسع؛ ولا سيما في الريف[1]. ورحم الله الحسن البصري الذي كان يقول: «لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك»[2]. وكان سفيان الثوري يحث طالب العلم على العمل الحر حتى لا ينتظر أجرة من أي جهة، وكان يقول: «العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلاً للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار سفيراً للفساق»[3].

---

(١) مما ليس مستغرباً في بعض الدول الأفريقية أن يقف خطيب الجمعة بعد الفراغ منها على باب المسجد ماداً يده للمصلين؛ لأن ذلك هو الطريقة الوحيدة لتحصيل لقمة عيشه!!

(٢) قواعد الدعوة إلى الله: ١٣٢.

(٣) مناهج العلماء: ١٤٢.

٣ ـ الشفافية الروحية:

طريق الدعوة طريق شاق لأنه طريق تضحية وطريق عقبات، والاستمرار فيه يحتاج إلى زاد كثير؛ ولن يكون هناك زاد أنفع من الصلة بالله ـ تعالى ـ ومراقبته واللجوء إليه وطلب العون منه؛ إن الدعوة الخالصة هي تضحية خالصة؛ ومن ذا الذي يقوى على التضحية بشكل دائم إن لم يتصل بمصدر للطاقة لا ينضب أبداً؛ بل يزداد على مدى الأيام كرماً وجوداً! في هذا العصر المادي الذي يتجه كل شيء مجاني فيه إلى أن يكون نادراً صارت الحاجة إلى الشفافية الروحية أكبر وأشد؛ وفي غمرة العمل قد تغلب على الداعية الحركة وحب الاتصال بالناس؛ بل قد يغرق في متابعتهم وحل مشكلاتهم؛ وإذا بماء الإيمان لديه ينضب، أو يتعكر دون أن يدري، وحين يحدث ذلك فإن عاقبته ستكون فتوراً في العمل وفتوراً في العطاء، كما ستكون ضعفاً في تأثير الداعية في غيره وبهوتاً لجاذبيته ولمعانه في عيون مدعويه.

ليس أنفع في جلاء القلوب وصقل الأرواح من الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ ومناجاته في أوقات السحر حيث الصفاء التام وحيث التجلي الخاص من الرحمن الرحيم. وقد كان السلف يعجبون من طالب علم لا يقوم الليل!. إن المناجاة لا تتخذ شكلاً من الأشكال ولا قالباً من القوالب، فهي إما أن تكون أو لا تكون، ومن ثم فإنها حين تطلقها روح المسلم تكون نبعاً فياضاً للشفافية والشعور بالقرب! وليس أولى بالتنفل وتجاوز الأقدار المفروضة من العبادات من الداعية الذي جعل محور حياته خدمة هذا الدين والتمكين له في الأرض. وينبغي أن يكون واضحاً أننا إذ نهتم بقضايا الفكر والثقافة فإن ذلك لا يعني أبداً إهمال جانب الروح أو جانب السلوك، بل إن ذلك يعني أن شرط صواب الحركة الدعوية والتربوية والسلوكية دائماً هو الفكر النير ذو الرؤية الشمولية. لكن لا بد من القول أيضاً إن من الخطورة بمكان أن تتحول جماعة أو حزب إلى مجموعة من المنظرين والمخططين، وتفتش فيها فلا تجد الأوابين ولا الربانيين ولا العابدين المتبتلين... إنها ـ ولا ريب ـ بذلك تضع نفسها في مهب الريح،

وتعرض تماسكها وقبل ذلك مسوغ وجودها للخطر المحدق.

إن بإمكاننا بعد هذا وذاك أن نجعل «الشفافية الروحية» مقياساً حقيقياً لكون الداعية على المنهج الصحيح؛ فالمحروم من نعمة القرب من الله تعالى ومراقبته محروم من الإحساس المرهف، ومن الشعور بأنه يلبس حلية التقوى التي يُلبسها دائماً الإيمان الوهاج المتدفق. وليس ذلك فحسب، بل إن العتمة الروحية تصيب حياة الداعية بالجمود والعطالة والانحطاط؛ لأن المؤمن الحق موصول بالله ـ تعالى ـ مغمور بعطائه وكرمه فهو لذلك باستمرار في رقي دائم على طريق الهداية والمعرفة[1].

٤ ـ التواضع:

طبيعة العمل الطوعي تدفع بالإنسان دائماً إلى المقدمة؛ إذ إن المتطوع هو الذي يجمع الناس عندما يتفرقون، وهو الذي ينبههم عندما يغفلون، وهو الذي يصلح بينهم عندما يختصمون... وهذا كله من شأنه أن يُشعر الداعية بنوع من التفوق الذي يتبعه في أحيانٍ كثيرة نوع من الإحساس بالتعالي الضمني؛ وحين يشرع الإنسان في دخول هذا النفق المظلم يقر له الناس فعلاً بالتفوق، لكنهم يفقدون حرارة الاقتداء به، وربما أدى شعوره بالتميّز إلى إجهاض كل كلماته من المعاني السامية التي تحملها؛ حيث يتخذ كثير من الناس من ذلك ذريعة إلى إسقاطه من حسابهم.

إن الله ـ تعالى ـ علَّم نبيه ﷺ كل ما يجعل منه الداعية الأول في العالم؛ وكان من جملة ما أرشده إليه قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. إن التواضع فوق أنه تعبير دقيق عن العظمة الحقيقية ـ قليل التكلفة على المستوى الشعوري والعملي؛ فالمتواضع يبدو دائماً أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في أعين الناس دون جهد يبذل، كلما كشفت لهم الأيام عن جواهره المخبوءة! على حين أن المتكبر يضع نفسه في امتحان دائم فهو رجل

(١) حكمة الدين: ٢٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨.

عريض الدعاوي، وعليه باستمرار أن يثبت أنه ليس أقل مما يُعرف عنه، وهيهات هيهات أن يتم له ذلك!

إن الكبر يولد باستمرار التوتر المرضي لدى صاحبه ولدى المجتمع الذي يعيش فيه؛ ويكفي في ذلك ما يحدثه المتكبر في المجتمع من معادلة الاحتقار المتبادل! وقد أحسن من شبّه المتكبر بالصاعد في الجبل، يرى الناس صغاراً، ويرونه صغيراً. إن المتواضع كالأرض المنخفضة تجتمع فيها خيرات السماء، على حين تغادر القمم والسفوح! ولو لم يكن في التواضع سوى جعل صاحبه قادراً على جذب من هم أكثر تفوقاً منه لكان مكسباً كبيراً!

٥ ـ الحكمة:

إذا كانت الدعوة عبارة عن محاولة إيجاد نوع من التطابق والتماثل بين الواقع المعاش والهدي الرباني، وعلمنا أن الواقع الشارد عن الطريق القويم إنما ولد على قاعدة من التوازنات الخفية، وإذا علمنا أن هناك جهات كثيرة ترتزق من وراء الفساد والانحراف. . . ! إذا علمنا كل ذلك أدركنا أن الدعاة يمشون في أحيان كثيرة على حبل مشدود، وهم بحاجة بشكل دائم إلى اتخاذ قرارات صعبة وإلى إجراء موازنات دقيقة، وهذا كله يحتاج إلى اتصاف الداعية بصفة مهمة هي «الحكمة». وقد عرَّف القدماء الحكمة بأنها «وضع الشيء في موضعه». ولا تتأتى «الحكمة» إلا من خلال امتزاج فضيلتين: كمال المعرفة وقوة الإرادة؛ فلا تكفي إرادة حازمة وعزم أكيد على فعل ما هو خير أو هو حق؛ بل لا بد من معرفة حسنة للموقف الصحيح الذي ينبغي اتخاذه؛ كما أن المعرفة بالحق لا تجدي كثيراً إذا لم يكن ثمة إرادة قوية توقف أهواء النفس عند حدودها؛ ليتمكن المرء من أن يكون في الموقع الصحيح.

بعض الفلاسفة يرى أن الحكمة نوع من المعرفة تختفي فيها التفرقة بين النظرية والعمل: إنها علم الحياة الروحية، وهو علم أعمق من كل العلوم وأشد استسراراً.

إن الحكمة تحمل في طياتها عدداً من الفضائل الجزئية، هي: الاستفادة من التجارب الماضية، والاستعداد للإفادة من التعاليم والنصائح، والبصر بالعواقب، والتفكير والتبصر والاحتياط والاعتبار[1].

ولا ريب أن جزءاً من (الحكمة) وهبي وجزءاً منها كسبي. إن الحكمة هي التي تملي على الداعية أن يتكلم في موقف من المواقف، وهي نفسها التي تدفعه إلى أن يسكت في موقف آخر، وهي التي تجعله يخطو في بعض الأحيان خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. الحكمة تتأبى على التنزيل في قوالب جاهزة أو أشكال محفوظة؛ إنها أم الوسائل والأساليب؛ لكنها أكبر من أن يحويها أسلوب أو منهج معين.

إننا نلاحظ أن كثيراً من الدعاة اكتسب مناعة ضد آلام النكسات والنكبات؛ فهو لا يستفيد منها شيئاً، ولا يأخذ منها أدنى عبرة، وهو مستعد لتجاوز كل ما يمكن استفادته من دروس التاريخ في سبيل السير خلف بريق أو سراب، حتى إذا وقعت الواقعة أعد نفسه لنكبة جديدة!!

٦ ـ الحرص على المدعوين:

إن نصف شروط نجاح الداعية متوقف على الآخرين؛ فمهما توفرت شروط النجاح لدينا فإن ذلك لا يعني على الصعيد العملي شيئاً ما لم تحدث استجابة لدى الذين يشكِّلون حقل الدعوة؛ ومن ثم فإن الداعية الحق يلازمه شعور قوي بالحاجة إلى الآخرين، ولم لا وبأيديهم في النهاية الحكم عليه بالنجاح أو الإخفاق!

يشبه أحد المفكرين الداعية بالتاجر، على الرغم من اختلاف بل تضاد أهداف كل منهما؛ فقواعد السلوك الظاهري لديهما واحدة؛ «ذلك أنه لا الداعية ولا التاجر يمكنه ـ رغم اختلاف الدوافع ـ أن يسيء إلى من يتعامل معهم... فكما يقدم التاجر التنازلات لزبائنه، ويتحمل منهم أنواع المضايقات

---

(١) الأخلاق النظرية: ١٦٣.

في سبيل بيع بضاعته لتحقيق أرباح أكثر، فإن الداعية يعامل جماعته بكل تسامح ورحابة صدر متغاضياً عن كل الإساءات والإهانات التي قد يتعرض لها بقدر حرصه على الصفح عن كل الزلل والهفوات في سلوك الآخرين التي قد تعيق سبيل قيامه بمهمته»[1].

إن مظاهر العناية بالمدعوين كثيرة جداً؛ يمكن أن نعد منها ما يلي:

أ ـ **ترك توبيخهم وتقريعهم**؛ إذ إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وليسوا بحاجة إلى معكرات إضافية.

ب ـ **السؤال عنهم**، وتحسس أحوالهم لتقديم العون لهم والمسارعة إلى مشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم؛ فإن الناس يهتمون بشخص الداعي وبما يدعو إليه على قدر ما يبديه من اهتمام بهم.

جـ ـ **دراسة حالاتهم ومعرفة أقرب الطرق إلى عقولهم وقلوبهم**؛ فالتأثير اليوم في الناس لم يعد سهلاً، كما كان قبل، ولم يعد الناس غفلاً يصدقون كل ما يقال لهم؛ والذي يفهم طريقة تفكير الناس، ويعرف مفاتيح اهتماماتهم يستطيع أن ينفذ إليهم أكثر من غيره.

د ـ **إن أحسن طريقة لضمان استمرار المدعو في طريق الخير هو أن نحوّله نفسَه إلى داعية**، يحمل هموم الدعوة، ويتبنى أفكارها.

هـ ـ **منا من يفسر الحرص على المدعو تفسيراً خاطئاً**، فيضع على المدعو القيود، ويحجر عليه الاتصال بالآخرين أو الحوار معهم، ويظن أنه بذلك يحفظه من الضياع؛ وهذا قد يكون صحيحاً في حالات خاصة؛ لكن القاعدة العامة في هذا أن شدة الحرص عليه بمثل هذه الطرق قد تكون هي الدافع ـ بعد حين ـ إلى ترك الدعوة والخلاص من الحجر المفروض عليه.

و ـ **إن خبرة الحرص على المدعوين لن تنضج إلا من خلال دراسة**

---

(١) المنهج الرباني في الدعوة إلى الله: ٥١.

حالات كل أولئك الذين تركوا الدعوة، ومحاولة الخروج بنماذج محددة لمجموعة الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك؛ وهذا حتى لا تتكرر الأخطاء دون أية فائدة!.

٧ ـ الشجاعة الأدبية:

لا يستطيع الداعية أن يقوم بأي عمل من الأعمال دون امتلاك قسط من الشجاعة؛ ذلك لأن طبيعة الدعوة تكمن في تجاوز السكون والسلبية والقصور الذاتي إلى التأثير في الآخرين وإعادة صياغتهم من جديد، وهذا يعني دخول المجال الخاص للآخرين والذي يعدونه شيئاً لا يصح اختراقه.

ليست الشجاعة عدم الخوف، وليست هي عدم المبالاة بالآخرين أو بالأخطار المحدقة، ولا هي الاندفاع نحو تحقيق الغايات دون أدنى روية أو فطنة...

إن الشجاعة تعني أشياء كثيرة، منها:

أ ـ التماسك عند مواجهة الخطر وفي الظروف الأليمة، على نحو ما فعل النبي ﷺ يوم حنين حين ولى جُلُّ الناس، وهو ثابت يردد:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ب ـ مواجهة الظلم ومحاصرة الشر بكل وسيلة مشروعة وممكنة، وهذا هو جوهر النهي عن المنكر الذي احتفل به الإسلام أيما احتفال.

جـ ـ التغلب على الصعوبات والأخطار التي تتجاوز المعتاد، على نحو ما واجه المصطفى ﷺ وأصحابه الحصار في شعب بني هاشم وعلى نحو ما واجه أبو بكر موجةَ الردة الهائلةَ في زمانه...

د ـ احتمال أشد الآلام بصبر وثبات؛ على نحو ما فعله كثير من أبطال الدعوة في العصر الحديث حيث قضوا نحبهم في أسوأ الظروف، حتى لا يقولوا كلمة باطل أو يتنازلوا عن مبدأ يؤمنون به.

هـ ـ **من ضروب الشجاعة تحمل المسؤولية** عن الأفعال التي يقوم بها المرء؛ فذاك تعبير عن كمال العقل وكمال الرجولة في آن واحد.

و ـ **الاعتراف بالخطأ** وعدم محاولة التملص منه، أو إلقاء تبعاته على الآخرين والاعتراف بالقصور والتقصير والتفريط.

ز ـ **الجود والاستعداد للبذل والتضحية** في سبيل نجاح الدعوة وتبليغ كلمة الله، فالكريم لا يكون إلا شجاعاً، والشجاع لا يكون إلا كريماً.

ح ـ **التطلع إلى جلائل الأعمال والإنجازات الكبيرة** وتحمل تكاليف تحقيقها، كل ذلك من ألوان الشجاعة[1].

إن المشكلة في هذه الصفة وغيرها من سمات الفضائل وقوعها بين رذيلتين؛ رذيلة الإفراط ورذيلة التفريط، ومن المؤسف حقاً أن الإنسان لا يستطيع وضع الحدود الفاصلة بين الفضيلة والطور الذي إذا صارت إليه انقلبت إلى رذيلة، وكل ما نرسمه من حدود هو اجتهادي وتقديري؛ فربما سمينا موقفاً من المواقف تهوراً على حين يسميه غيرنا شجاعة. وربما نسمي موقفاً من المواقف جبناً على حين يسميه غيرنا حذراً أو فطنة وحكمة أو احتياطاً؛ لكن على الرغم من هذا فإن أولي الأبصار يستطيعون في النهاية مقاربة المفصل إن لم يضعوا السكين عليه.

٨ ـ الأخذ بالعزيمة:

دائرة الخير واسعة جداً، ودائرة الشر أيضاً واسعة، ويظل الممكن متسعاً؛ والناس سيلتزمون من ممكنات الخير بحسب ما تبلور في أذهان قادتهم ومصلحيهم، وما تبلور في أعمالهم وسلوكهم؛ بمعنى آخر: إن الذي يحدد عتبة الخير في المجتمع وسقفه هي النماذج التي يقتدي بها الناس؛ ومن هنا تنبع مسؤولية الداعية عن الرقي بمجتمعه وأمته؛ ومن هنا أيضاً يُطالب بما

(١) انظر حول بعض ما سبق الأخلاق النظرية: ١٧٨ وما بعدها.

لا يُطالب به غيره من الأخذ بالعزائم والبعد عن الرخص ومواضع الخلاف ما أمكن. وفي الوقت نفسه ينظر الداعية إلى ترخص الناس في بعض الأمور نظرة إعذار وتقدير لمدى علمهم بالحكم ولمدى استعدادهم النفسي وطبيعة الظرف الذي يمرون به؛ وهذه النظرة ليست ـ بالطبع ـ نهائية، وإنما هي مقدمة لفهم ما هم عليه ثم محاولة الرقي بهم. فالداعية لا يهدف إلى جعل الناس يلتزمون بالهدي الرباني فحسب، وإنما يسعى أيضاً إلى أن يصبح منهم دعاة هداة.

ولا ينبغي في النهاية النظر إلى الداعية بأنه فوق البشر، وأن طبيعة ما التزم به توجب عليه التزامات محددة فوق ما يلتزم به الإنسان العادي؛ فالدعاة بشر من البشر؛ ولهم مشكلاتهم وميولهم، وعليهم ضغوط أسرية واجتماعية؛ وأحكام الشرع واحدة للجميع؛ إنما هو التزام أدبي يحث عليه التصدي للهداية. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾.

إن الناس حين ينظرون إلى شخص على أنه قدوة لهم فإن ذلك يرتب عليه نوعاً من السلوك المحتشم، كما يرتب عليه الأخذ بمعالي الأمور وتجنب مواطن الشبه. يقول الإمام الأوزاعي: «كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذا صرنا أئمة يُقتدى بنا، فلا نرى أنه يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ».

ولما همَّ إمام العصر الليث بن سعد بفعل مفضول ينافي العزيمة قال له إمام أهل المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري: «لا تفعل فإنك إمام منظور إليك». وكان عبد الواحد بن زياد يقول: «ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم عنه». ومن اللطيف أن العامة يعرفون خطورة أخذ علمائهم بالرخص ولينهم أمام الشدائد، ويذكرون في هذا أنه لما أُخذ الإمام أحمد بن حنبل، ومعه محمد بن نوح إلى الخليفة، وقد حُملا على بعير واحد وهما مقيدان، جاءهما رجل من الأعراب يقال له جابر بن عامر، فسلَّم على الإمام أحمد، وقال له: يا هذا إنك وافد الناس، فلا تك شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه ـ من القول بخلق القرآن ـ

فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت عليه؛ فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً. قال أحمد: وكان كلامه مما قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من الذي يدعونني إليه[1].



(١) مناهج العلماء: ٢٠٠ وما بعدها.

(٣) سمات تكميلية في شخصية الداعية

سبق أن ذكرنا أن وضع حدود فاصلة بين ما هو أساسي وتكميلي من سمات الداعية يظل أمراً تقريبياً بشكل عام، وطبيعة الموقف الدعوي تفرض في بعض الأحيان وجود سمة معينة، وتقدُّمها على ما سواها، فعلى حين يتطلب موقف من المواقف المصابرة، يتطلب موقف ثان الحكمة، وقد يتطلب موقف ثالث الشجاعة؛ ورابع الأناة وهكذا... وما يمكن أن يعد في سلك الصفات المكملة كثير؛ لكننا نقتصر على أهمها على النحو التالي:

١ ـ إنصاف الآخرين:

يعني الإنصاف إدراكاً متكاملاً لما عند الآخرين من حسنات وميزات، ولما يعانونه من مشكلات، ولما يعيشون فيه من ظروف مختلفة: ظروف النشأة والتكوين والظروف الآنية؛ وهذه المعرفة تُلزمنا بأمرين:

أ ـ التقدير لجوانب الخير والميزات التي يتحلون بها مهما كان منهجهم في الدعوة، أو في الحياة عامة مخالفاً لما نحن عليه. والخطأ الذي نقع فيه دائماً أننا نضع في بعض الأحيان مقاييس للكمال والنجاح والسَّواء، ثم نحاول تطبيقها على الآخرين، ونحكم بعد ذلك عليهم بأحكام لا تخلو من القسوة غالباً. وقد تعودنا أن نتجاهل وجهة نظر الآخرين في مقاييسنا تلك، وتكون النتيجة أن يفعل الآخرون نحواً مما نفعل؛ فنحوِّل مجتمعنا إلى مجتمع تلاوم وتنابذ.

ب ـ إعذار الآخرين، والإعذار ليس تصويب ما لدى الآخرين من سلوك وأفكار، فالحق لا يتعدد؛ وإنما هو تفهّم الوضعية العامة للآخرين

وإدراك أن وضعيتهم العامة هي نتاج مجموعة معطيات عديدة، وأن تلك المعطيات لو تجمعت في حياة واحد منا لكانت وضعيته مشابهة ـ في الجملة ـ لوضعية الآخرين التي ننتقدها. ومن هنا ينسبون إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أعقل الناس أعذرهم للناس». إن المعرفة الكاملة صفح كامل. وإن لوم الآخرين وتجريحهم لن يحل أية مشكلة، وإنما الذي يحلها هو مساعدتهم على تجاوزها، وتهيئة الظروف المناسبة لوضعية أفضل.

٢ ـ المهارة في إيجاد أجواء الوئام:

حين تعلو الأصوات في قاعة فإن كل متحدثَين يُضطران إلى رفع أصواتهما، وينزعج الجميع ويكون سوء الفهم سيد الموقف، ومهما يكن ما يقال مهماً فإن الضجيج سيصرف الانتباه عنه. إن إيجاد أجواء الوئام والتفاهم والانفتاح والقابلية للحوار وقبول الدعوة هو مهمة الداعية، ليست مهمة الأطراف الأخرى.

إن هناك خططاً كثيرة منوعة تهدف إلى صرف اهتمام الناس عما يقوله الدعاة، بل نقول إن ذلك لا يحتاج إلى خطط، فالغزو الثقافي أوجد عقلية جديدة مشتتة، وكثرة متطلبات العصر ـ المتناقضة أحياناً ـ شغلت عقول الناس وقلوبهم، واستنفدت أوقات فراغهم، وما تبقى من طاقاتهم.

إن هذا كله محتمل لكن الذي لا يحتمل هو أن بعض الدعاة يسعى أينما ذهب، وأينما حل إلى زرع عوامل الاضطراب والتشويش وقسم أبناء البلدة الواحدة إلى فرقاء متناحرين مع زعم كل منهم بأنه يدافع عن المنهج الصحيح، وهو حتى يوجد لنفسه موطئ قدم ينبه الناس إلى أوجه الخلاف بينهم بدل أن يستثمر عوامل الاتفاق في إصلاحهم. وبعض الدعاة يبذر بذور العصبية في الأرض البكر: عصبية لشيخ أو مذهب أو جماعة أو اتجاه؛ فيؤدي ذلك إلى خسارة الجميع لتلك الأرض. إن الدعاة الربانيين يقلعون أشواك العصبية والانغلاق والتحزب ليعمّ التفاهم والتعاون والتأثير والتأثر؛ وهذا ما كان يفعله سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ فإنه كان إذا دخل البصرة

حدَّث بمناقب عليّ، وإذا دخل الكوفة حدَّث بمناقب عثمان! وكان يقول لعطاء بن مسلم: إذا كنت في الشام فاذكر مناقب عليّ، وإذا كنت في الكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر(١).

ويرى بعض المفكرين من أسباب قبول النبي ﷺ شروط قريش القاسية في صلح الحديبية رغبته في تهدئة أجواء الصراع وفتح الطريق أمام الدعوة؛ حيث لم يكن من الممكن قبول قريش للإسلام في حالة الحرب. لكن ما الحيلة مع أقوام لا يجدون لأنفسهم موضعاً في حالات التصافي والتفاهم؛ وهم يتعكرون من الصفاء، ويخنقهم الهواء الطلق، ولا ينعشهم ـ كشأن بعض الهوامّ ـ إلا الهواء الفاسد والبيئة الملوثة!!.

إن إشغال الناس بالجزئيات، والأمة تُجتث جذورها، وتستأصل شأفتها من أعظم الخيانة لها وللمنهج الرباني الذي كلَّفنا بحمله وبلورته والدفاع عنه.

٣ ـ القدرة على الموازنة بين العزلة والاختلاط بالناس:

لا نماري في أن من الدعاة من قد ينفع الناس دون الاختلاط بهم كأن يكون كاتباً أو مفكراً، ولا نماري أيضاً في أنه ليس كل الأخيار يصلحون لمخالطة الناس والقيام بالاتصال الفردي؛ بسبب مزاج خاص أو وضعية معينة، وكلامنا هنا موجَّه إلى أولئك الذين يعدون أنفسهم جنود تنفيذ، ويقومون بالاحتكاك بالناس ودعوتهم. وفي هذا السياق نجد أن نوعاً من التوازن بين اعتزال الناس ومخالطتهم يظل ضرورياً بالنسبة لهذه الفئة. فالاعتزال للناس يؤدي إلى انتشار الفساد لعدم وجود من ينهى عنه ويحاصره.

أما كثرة المخالطة للناس فإنها تؤدي ـ في أحيان كثيرة ـ إلى إلف الناس للداعية وإسقاط الكلفة بينهم وبينه، كما تؤدي إلى استنفاد الناس لما عند الداعية من طاقة روحية وذخيرة ثقافية وعلمية، وربما يتحولون من مرحلة التأثر إلى مرحلة النقد؛ والطالب كما هو معروف يتأثر بأستاذه أكثر من تأثره

---

(١) حلية الأولياء ٧:٢٧.

بوالده، وأهم سبب لذلك أنه لا يرى أستاذه إلا في أحسن أحواله، على حين أنه يرى أباه في كل أحواله. وقد كان من هديه ﷺ أن يتفقد أصحابه بالموعظة، يلتمس أوقات نشاطهم واستعدادهم، وكان في بعض الأوقات يجعل على بابه من يحجب الناس عنه ليتفرغ لشأنه الخاص. وكثيراً ما يحدث أن يكون الداعية منتسباً إلى جماعة من الجماعات[1]؛ فإذا به ـ لما يبديه من حيوية ـ يُحمَّل أعباء كثيرة ينوء بها، ويُستهلك ويتحول إلى (رجل خدمات)، ويجد نفسه بعد مدة عاجزاً عن أن يرقى بنفسه أو أسرته، كما أن الأخطاء وأنواع القصور تتكاثر في أنشطته؛ لأن المرء مهما كان نشيطاً وحيوياً إلا أن لذلك كله سقفاً وحدوداً في النهاية.

إن اعتزال الناس بين الفينة والفينة يصقل الروح، ويجدّد الرواء، ومن يفعل ذلك فربما يكون في وقت عزلته في خدمة الناس أكثر مما لو اختلط بهم؛ ومن الملاحظ أن الناس حين يصيبهم كرب أو أزمة فإنهم كثيراً ما يلجأون إلى أولئك (المحتشمين) ينشدون لديهم الرأي والتعاطف والعون.

٤ ـ البعد عن (الشخصانية) في الدعوة:

قد يرى المدرس أو الداعية أن من المناسب أن يسوق للناس بعض تجاربه الخاصة في الحياة ليقتدوا به، أو ليأخذوا العبرة مما جرى معه، وهذا لا بأس به مع الحذر من أن يعطي انطباعاً خاطئاً بأنه يمدح نفسه، أو يرفعها فوق قدرها. وبصورة عامة فإن الداعية كلما ابتعد في حديثه عن شؤونه الخاصة كانت فاعليته، وكان تأثيره في سامعيه أشد. والتركيب الثقافي والمزاجي في العصر الحديث هو الذي جعل هذا من شروط القبول والفاعلية؛ إنه أحد مظاهر الفصل بين الذات والموضوع الذي بلغ مداه، كما لم يحدث في أي وقت مضى.

---

(١) بعض الجماعات تكون عاجزة عن إحداث التغيير المطلوب في أشخاص من يتبعونها؛ فالنشيط والكسول يظلان على حالهما يوم انتسبا إليها!.

وقد شاهدنا من الدعاة من حوَّل جماعته أو جمعيته أو حزبه إلى (مزرعة) يرتع فيها الأبناء والأصهار والأقرباء، وبعضهم جعل أتباع جماعته أشبه بـ(تركة) لا وريث لها، فورّثها لأحد أبنائه يقوم عليها، ويرعاها[1]. وبعض الدعاة وطلاب العلم جعل من سيرته الذاتية ورداً يكرره على أسماع طلابه ومريديه. وقد رأينا من الدعاة من يترجم لوالده أو أسرته، وذلك في نظري لا يخلو من مغامرة ومخاطرة؛ إذ إن تلك الترجمة لن تكون أمينة ولا نزيهة، كما أن ممارسة النقد فيها ستكون شبه مستحيلة، وتلك ضرورية لكل ترجمة.

ومهما أحرز هؤلاء من نجاح في دعواتهم فإنه سيكون مؤقتاً، وكر الأيام والليالي سوف يعيد الأمور إلى نصابها!.

إن من الأخطاء الفادحة أن نزرع في حسِّ الناس أننا نمثل الإسلام تمثيلاً صادقاً، أو أن تجربتنا الخاصة هي الأكثر نضجاً أو الأعم نفعاً؛ فالواحد من الدعاة مهما سما سيظل غير معصوم ولا مكتمل، ومهما نضجت خبرته فإن ما لا يعرفه أكثر مما عرفه.

٥ ـ الأناة في التخطيط والحماسة في التنفيذ:

كل واحد منا يحرص على أن يرى أهدافه تتحقق على أرض الواقع كي تقر عينه، وكي يطمئن إلى أن جهوده لم يكن مآلها الإخفاق والانكسار، ويضاف إلى هذا أن طبيعة الشباب تميل إلى الحماسة وحب الإنجاز مع استسهال الصعاب وعدم تقدير العواقب. والذي يحتاجه الداعية ليس البرود ولا مشي السلحفاة، وإنما تقدير الأمور التقدير الصحيح؛ فإمكانات الدعاة كثيراً ما تكون محدودة، وآمالهم غالباً ما تكون أكثر من عريضة، والتحديات عاتية، ومع هذا نجد فينا من يريد حرق المراحل والقفز فوق معطيات الواقع؛ لكن للأشياء طبيعتها ومنطقها الخاص، ولا يمكن تجاوز ذلك ولا تجاهله. وفي مقابل ذلك نجد دعاة ـ هم شيوخ غالباً ـ لا همَّ لهم إلا وصم

(١) يحدث في بعض الحالات أن يكون ابن الشيخ أكثر طلابه كفاءة لقيادة الجماعة من بعده، وهذه حالة استثنائية خاصة.

الآخرين بالاستعجال على قطف الثمار وتحقيق الآمال، وهم دائماً دعاة تؤدة وأناة وبصيرة واعتبار... ولو سألتهم عما حققوه نتيجة رؤيتهم الخاصة لخطط الدعوة وأساليبها لم تجد عندهم شيئاً متميزاً...

إن المطلوب ليس القفز في الهواء ولا مواعظ الحكمة والتعقل؛ لكن المطلوب هو التخطيط المتقن للعمل الدعوي، التخطيط الذي لا يرهق تنفيذه كواهل الدعاة، ولا يهدف في الوقت نفسه إلى تحقيق إنجازات صغيرة؛ فإذا ما أحكم ذلك كان التباطؤ في التنفيذ غير ذي معنى. ومع هذا وذاك فإن تعقيدات العصر ومخاطر السرعة العالية فيه تظل شيئاً يوجب الحذر، فالمستجدات كثيرة والمعلومات المتوفرة عن طبيعة الحقول الدعوية محدودة؛ والفضيلة في مثل هذا تتجلى في امتلاك القدرة على الوقوف أو الرجوع خطوة إلى الوراء كلما اقتضت الحكمة ذلك؛ لكن عندما يقبل الناس على الدعوة، وتتهيأ لها الظروف المناسبة، فإن المسابقة إلى الخير هي شعار الصالحين المخلصين.

٦ ـ المصابرة:

طريق الدعوة طريق طويل وشاق، والباذل فيه لا ينتظر عوضاً ناجزاً، وإنما يعمل، وينتظر الأجر عليه في الآخرة. والعقبات والصوارف أكثر من أن تحصى، ومن ثم كان لا بد من التسلح بالصبر وسؤال الله ـ تعالى ـ التثبيت، ولا بد لجماعة المؤمنين من التواصي بالصبر، يلقى الرجل أخاه، فيقول له: اصبر، ويقول له أخوه: اصبر، على نحو ما حدثنا الله ـ تعالى ـ عن المؤمنين في سورة العصر؛ إذ من سماتهم الأساسية التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إننا لا ننكر أننا في أحوال كثيرة نفقد القدرة على الاستمرار، ونصاب بنوع من الانحسار، وينبغي أن نعترف أن كثيراً من أعمالنا مصاب بقصر النَفَس والآنية، وقسم آخر نبدأ به لكننا لا نتابعه. وبعض الدعاة ينتشر بين الناس أفقياً، ثم بعد مدة إذا به يتقلص شيئاً وراء شيء لعدم قدرته على المتابعة.

إن أساس الصبر ينبع من عون الله ـ تعالى ـ لعبده؛ وتمامه في إدراك

أن هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، والصبر نفسه جزء مهم في النجاح مهما تكن النتائج سلبية. إن مما يدعو إلى الضجر والسأم في بعض الأحيان إحساس بعض الدعاة أنه يعمل في فراغ، وأن من حقه أن تكون الساحة خالية إلا من كلمة الخير؛ ومن ثم فإنه يلازمه شعور بعدم الإنجاز مع أن الحقيقة أن طبيعة عصرنا وفلسفته ليست خيرة، وإنما هي مادية انتهازية. الصبر يجعل الزمن يعمل لصالح الداعية؛ لكن لا بد معه من مراجعة العمل الدعوي في ضوء المبادئ التي نؤمن بها، وفي ضوء النتائج التي نحصل عليها؛ وإلا فمن المحتمل أن يصبح تصبير النفس نوعاً من التغطية على النتائج السيئة ونوعاً من احتمال آلام الأخطاء دون أدنى مبرر.

٧ ـ النوعية العليا حاجتنا:

إن كل مسلم ملتزم بالفرائض مبتعد عن الكبائر يعد داعية بلسانه أو بحاله على مستوى من المستويات، وباعتبار من الاعتبارات؛ فنحن لا نشكو من أزمة في أعداد الدعاة؛ فالخير في هذه الأمة راسخ وكثير؛ إنما تكون الأزمة التي تواجهها الأمم في الأحوال الصعبة، في نوعية الدعاة والمصلحين والمفكرين وأهليتهم للأخذ بيد الأمة وطرح الحلول لمشكلاتها المتأسنة، وتجسيد النموذج الصالح الذي يجذبهم نحو الخير. قد أنشأنا كليات للدعوة ومعاهد لتدريب الدعاة وألوفاً من المدارس الشرعية التي تخرج الأئمة والخطباء؛ لكن هاجسنا دائماً كان هو (الكم) والانتشار الأفقي، لم نصمم توصيفاً دقيقاً لشخصية طالب العلم الذي سنؤهله للقيام بهذا العمل العظيم، وأحياناً لا تتم مقابلة من يقبلون في الكليات الشرعية المختلفة وهكذا. . .

وما نجده من نبوغ في بعض الدعاة ناتج عن جهد شخصي، وهو نبوغ لم يكتشفه أحد، وقلما يلقى النابغة رعاية خاصة متميزة من أية جهة. وكانت عاقبة ذلك على العمل الدعوي سيئة للغاية. ولا أريد أن أفتح جروحاً، ولا أن أثير أشجاناً؛ فالمشكلة معروفة ومفهومة؛ لكن السؤال دائماً كيف نستطيع اختيار النوعية المطلوبة، وكيف نقوم بتربيتها وإعدادها وتثقيفها ثم متابعتها ومساعدتها في مجال عملها؟؟.

وفي الختام فإن الصفات التي تساعد الداعية على التميز كثيرة، ولعلنا لم نذكر كل المهم منها؛ فهناك ـ مثلاً ـ السخاء والتعالي على الأحقاد، وحب الإنجاز، والرفق والاستغناء عن الناس، وحسن الظن بالمسلمين والستر على عيوبهم والتضحية في سبيل الدعوة والإيجابية وحب الخير للناس والزهد في القيادة، وما إلى ذلك من الشيم الحميدة؛ لكن طبيعة الكتاب لا تسمح بأن نقول كل شيء؛ ولعل الله ـ تعالى ـ يعيننا على العمل ببعض ما قلنا؛ وهو مولانا.



المقدّمة الرابعة

في البلاغ المبين

١ ـ البلاغ المبين.

٢ ـ أسلوب الداعية.

٣ ـ التلاؤم مع وضعية المدعو.

٤ ـ مخاطبة الفرد ومخاطبة المجموعات.

٥ ـ وسائل البلاغ المبين.

(١) البلاغ المبين

الوظيفة الأساسية للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء؛ وإنما تبليغهم الرسالة التي حمّلهم الله ـ تعالى ـ إياها. وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان وعلى مستوى العمل، سلباً وإيجاباً؛ وقد عبر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل حين قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾[١]. إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس، حتى يستقيموا على الشريعة، ويعمروا الأرض، ويتراحموا بينهم....

والأنبياء وخلفاؤهم من الدعاة إذ يقومون بـ«البلاغ المبين» يكونون قد قاموا بالعمل الأساسي الذي تبرأ به الذمة أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهناك آيات كثيرة تدل على هذا من نحو قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[٣].

---

(١) سورة غافر: الآية ١٥.
(٢) سورة النحل: الآية ٣٥.
(٣) سورة الشورى: الآية ٤٨.

ويمكن أن نستجلي من الفوائد العظمى التي تجنيها الأمة من «البلاغ المبين» ما يلي:

١ ـ جعل حياة الأمة مشدودة نحو هدف واحد، إذ إن تبليغ الرسالة يحول دون انسياق الأمة خلف أهداف مشتّتة متناقضة ودنيوية. وإذا ما فقدنا «مركزية الهدف» فإن كثيراً من أوجه التناظر والانسجام تصير شكلية، وتتحول من نقاط ارتكاز للتلاحم المجتمعي إلى معابر لتحقيق الأمجاد الشخصية والمنافع الخاصة!.

٢ ـ إن القيام بعملية التبليغ أكبر ضمان لتحجيم الثورات الاجتماعية التي تعصف بالصالح والطالح؛ فمن خلال التذكير بالواجبات والحث على ترك المنكرات وبيان المبادئ الأساسية التي تنبغي مراعاتها ـ ينشط التبادل الاجتماعي الذي من طبيعته الإحساس المبكر بتأزمات المجتمع واختناقاته، كما أنه يؤمِّن نوعاً من التوجيه للحركة الاجتماعية في مساقات محددة.

٣ ـ إن البلاغ المبين يُعلِّم الناسَ تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهم ومجتمعهم؛ وما أصيبت الأمم بداء أخطر من فقد الشعور بالمسؤولية. ومن خلال الدعوة يتمكن الناس من معرفة ما يجب عليهم أن يفعلوه، وفي الوقت نفسه الثمن الذي عليهم أن يدفعوه إذا هم لم يستجيبوا، ومن خلال هذا وذاك تتولد الشخصية وفضيلة الشعور بالمسؤولية. ومن غير القيام بحق الدعوة والبلاغ يسود نوع من السُبات والترهل في الوعي والإدراك، ونوع من الضبابية في علاقات الناس ببعضهم بعضاً.

٤ ـ إن البلاغ المبين هو سفينة النجاة من أهوال تفسخ المجتمعات وانحلالها؛ إذ إن أضر ما يلحق المجتمعات من أذى هو تراكم الأخطاء وتحول العادات والتقاليد إلى شعائر وعبادات، وانتشار البدع والأنماط الخاطئة؛ مما يؤدي في النهاية إلى أن يفقد المجتمع الإحساس بهويته وأصالته.

٥ ـ الدعوة تغرس في حسِّ الناس وعقولهم وجود مرجعية عليا مطلقة

و(لا بشرية) توجههم، وترشدهم، وتؤطر تفكيرهم؛ وعندما تعم الفوضى، وتندرس معالم الطريق يجدون فيها شاطئ الأمان، وصلابة اليقين.

٦ ـ إن أمة الإسلام لا تملك اليوم من الإمكانات المادية ولا من النفوذ العالمي ما يمكنها من فتح مجالات حيوية خارج حدودها؛ والشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت انتباه العالم إليها هو الدعوة والمضامين الحضارية الفريدة التي تحملها. إن إهمال أمة الإسلام للدعوة شوّه وجهها العالمي، وحرمها من الشعور بالتأنق والتميز الذي كان من الممكن أن يكون لها وحدها. أليس من الغريب العجيب أن تُدعى أمة لتتسلم مفاتيح العواصم والمدائن، فتأبى، ثم تتسوَّل كوخاً!!

إن القيام بالدعوة ـ مهما تكن النتائج ـ شرف عظيم؛ لكن نجاح الدعوة في الوصول إلى أهدافها لا يتم بمجرد وجود أية دعوة، وإنما يحتاج إلى شروط عديدة يجب توفرها في شخص الداعية وأسلوبه، وفي نفس المدعو أيضاً، إلى جانب نجاعة الوسائل المستخدمة حتى تؤتي الدعوة ثمارها، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً. وسنعرض في الصفحات التالية أهم تلك الشروط والمواصفات.



(٢) أسلوب الداعية

في عصرنا الحاضر تكاثفت الأفكار والمعلومات إلى حد لم يكن يخطر حدوثه في بال أحد، وكان من النتائج المباشرة لغزارة المعرفة عجز كثير من الناس عن الحكم على صحة الأفكار والمعلومات التي يطَّلعون عليها؛ وحتى يحصلوا على شيء من اليقين، فإن الطريق الأقرب والأسهل كان بناء موقفهم من صلاحية ما يسمعون على معرفتهم وثقتهم بصاحب الفكرة أو الرأي. ولا يعني هذا بالطبع غض الطرف عن ذاتية المعلومة، ومدى استحواذها على عناصر القبول المجردة، وإنما يعني عدم التدقيق والتفتيش فيها، والركون إلى الصورة الذهنية المنطبعة عن قائلها أو الداعي إليها.

هذه الوضعية ليست جديدة في الحقيقة، لكن شريحة المضطرين إلى التلبس بها صارت واسعة جداً.

والنتيجة النهائية لهذا هي اكتساب شخصية الداعية وسمعته وتكوينه الداخلي ومظهره وكل ما يتصل به ويلابسه من وظيفة ومسكن وعلاقات. . . اكتساب كل ذلك أهمية استثنائية تسهِّل وصول الرسالة الدعوية أو تعوقه، وتمنحها مزيداً من المصداقية أو تشوهها، وتجعل نتائجها عكسية. وبناء على ذلك فإن قلم الداعية ولسانه لم يعودا الوسيلة ذات الأهمية الوحيدة في هداية الخلق وإرشادهم، وإنما انضم إلى ذلك بشكل قويّ وسائل عديدة، سماها علماء الاتصال بـ(وسائل الاتصال غير اللفظي). وسنقدم في الصفحات التالية بعض القواعد والملاحظات حول أساليب الاتصال اللفظي والاتصال غير اللفظي على النحو التالي:

أولاً: أسلوب الاتصال اللفظي:

نعني بالاتصال اللفظي كل أشكال التعبير المنطوق التي تعتمد اللغة في إيصال بعض الأفكار والمضامين إلى الآخرين. ولعلنا نستجلي بعض الأسس والسمات التي تساعد في نجاح الخطاب الدعوي ووصوله إلى غاياته المنشودة في المفردات التالية:

١ ـ التكامل:

يثير الشخصُ الإعجابَ حين يجتمع فيه ما تفرق في غيره. والداعية الناجح هو الذي يجمع في خطابه وأسلوبه بين ثلاث سمات أساسية هي: العاطفة والعلم والفكر. وغياب أي منها يجعل الخطاب غير متوازن، ويجعل تأثير الداعية محدوداً وربما يسبِّب ذلك نوعاً من التشوه في ثقافة المخاطبين والمدعوين إذا اتخذ أشكالاً حادة، ودام مدة طويلة.

ووظيفة العاطفة في الخطاب توليد شيء من الطاقة في نفوس المدعوين وإثارة حماستهم، وتعاطفهم مع الفكرة التي يعرضها. ومهما انحسر المجال الروحي للشخص، ومهما كانت درجة (عقلانيته) عالية فسيظل للخطاب الممزوج بشيء من العاطفة رونقه وتأثيره في نفسه.

أما العلم فينبغي أن يكون صلب الرسالة الدعوية؛ فالتركيب العقلي للناس اليوم يميل إلى دفعهم نحو الاستقلال الشخصي، ومحاولة إدراك الحقائق بصفة ذاتية، ولا شيء يحقق ذلك كالمعلومة الصحيحة الموثَّقة. وقد كانت الفلسفة فيما مضى (ملكة العلوم) حيث كانت محاورة الطبيعة ضعيفة، وكان تمثل القضايا والمشكلات وحلّها يتم من خلال الذهن، والخيال المجرد. أما اليوم فإن (الإحصاء) هو ملك العلوم، وله في نفوس الناس مكانة خاصة، ويلحق به الدّراسات الموثقة التي تكشف عما هو كائن في المجالات المعرفية المختلفة، فاعتمادها في الأسلوب الدعوي مطلب ضروري اليوم.

ومن العلم الذي يحتاج إلى تدعيم (العلم الشرعي). وتدعيمه يكون

بذكر أدلة المسائل والأحكام والآراء التي يطرحها الداعية على الناس. وقد غبر على الأمة زمان كثر فيه سوق الأحكام مجرَّدة عن الأدلة، فأورث ذلك نوعاً من الجفاف فيها، وساهم في إشاعة التقليد، وإضعاف روح الاجتهاد والنظر والتأمل والترجيح.

وقد كان للدعوة السلفية المعاصرة فضل لفت أنظار الناس إلى هذه القضية، مما يحسب لها في موازين التجديد الحضاري.

أما الفكر في الخطاب الدعوي، فإنه أداة يستخدمها الداعية في تحليل الظواهر وتعليلها والربط بينها. ويحاول الداعية من خلال نماذجه الفكرية الخاصة بناء عقلية منهجية قادرة على النقد والتجاوز واستشراف المستقبل والفكاك من أسر النمطية والطبيعة والتاريخ، وكشف زغل العلم وتزيُّدات الأخبار وتقويم الصور الذهنية المعوجَّة التي تتشكل لدى الناس من خلال تراكم العادات والتقاليد.

٢ ـ التوازن:

هذه الخصيصة من أهم الخصائص التي علينا أن نراعيها في مخاطبتنا للناس، وذلك لأن الداعية لا يخاطب شريحة واحدة ذات مستوى واحد، أو ذات حاجات محددة من البيان والمعرفة والتذكير؛ ومن ثم فإن التوازن بين جميع جوانب الخطاب يجعل الشريحة المستهدفة أوسع، ويجعل الاستجابة والتفاعل من قبل السامعين أكثر. ومن جملة ما ينبغي مراعاة التوازن فيه ما يلي:

أ ـ التوازن في المزج بين العلم والفكر والعاطفة؛ فلا يطغى واحد منها على الآخر إلا لوجود مقتضٍ خاص. فالناس ـ بصورة عامة ـ بحاجة إلى هذه العناصر الثلاثة في آن واحد. وحين يجنح الداعية إلى أحدها، ويهمل الباقي فإنه يخسر شريحة من المدعوين لا تجد حاجتها فيما يقول، كما أن مما يُلحق الضرر بسمعة الداعية تشكُّل صورة ذهنية عنه بأنه عاطفي في خطابه أو عقلاني أو حرفي أو جاف الأسلوب....

لكن إلى جانب هذا لا بد من القول: إن حالة المدعوين أو طبيعة الموضوع موضع الخطاب، قد تفرض الميل إلى التركيز على أحد هذه العناصر، فحين يكون الموضوع متعلقاً بشرح مسألة فقهية أو عقدية ـ مثلاً ـ فإن مجال العاطفة والفكر يكون محدوداً؛ وحين يكون الحديث منصباً على معالجة مشكلة اجتماعية أو تاريخية أو اقتصادية فإن الحاجة إلى العاطفة قد تكون محدودة وهكذا. . .

ب ـ التوازن في تناول الموضوعات:

حاجات الناس كثيرة اليوم، وما يحتاج إلى إثراء وتقويم وتصحيح في أفكارهم وسلوكهم متعدد الجوانب، ومهمة الداعية أن يدرك ذلك بشكل جيد. وضمن تنوع حاجات الناس هناك أولويات أيضاً وخصوصيات لكل أهل بلد أو أهل حي. والناس يحتاجون ـ بشكل عام ـ إلى من يذكرهم بالآخرة والمصير النهائي لهم، كما أنهم بحاجة إلى من يعلمهم العقيدة الصحيحة وبعض الأحكام الشرعية الضرورية لاستقامة سلوكهم. وهم إلى جانب ذلك محتاجون إلى من يبصرهم بما يحقق السعادة والكرامة لهم، ولأمة الإسلام، وبما يساعدهم على تجاوز المشكلات التي يعانونها من الفقر والبطالة والجهل والكسل والفوضى والظلم وعدم فهم روح العصر الذي يعيشون فيه. ولا بد للداعية أن يتحسس كل ذلك، وأن يحاول بناء مضامين رسالته الدعوية عليه. والذي نشاهده اليوم ميل كثير من الدعاة إلى طائفة من الموضوعات التي تغطي جانباً من الجوانب التي ذكرناها دون الجوانب الأخرى. فمن الدعاة من يهمل شأن الفقه، ويركز على الوعظ، ومنهم من يركز على شئون الدنيا، ويهمل الحديث عن الآخرة.

ومن الدعاة من خاض معارك سياسية وانتخابية، فسخر منابر الجمعة للمهاترات والمناورات السياسية وأهمل الجوانب الأخرى. .

وبعض الدعاة جعل همه الأكبر الحديث عن السحر والشعوذة والجان والشياطين، وجعل منها قضية القضايا، وأقحم الناس في قضايا لا تحتل من اهتماماتهم أي حيز.

إن المشكلة أن بعض الدعاة يرى حاجات الناس الدعوية من منظور ثقافته الخاصة، فالذي يغلب عليه جانب الفكر يشغل الناس بالقضايا الفكرية، والذي يغلب عليه جانب معرفة القصص والتاريخ يركز على الوعظ والأخبار وتراجم الرجال وهكذا. . .

إن الرؤية الشاملة لحاجة الأمة عامة، وحاجة جماعة المستهدفين بالخطاب خاصة أمر حيوي وضروري لخطاب متوازن كاف واف.

جـ - التوازن على مستوى اللغة المستخدمة:

المشكلة التي يواجهها الدعاة والخطباء، وكل من يساهم في تكوين الرأي العام هي تفاوت مستويات المخاطبين من الأمي إلى أستاذ الجامعة والمثقف الكبير، في ظل الاتساع المعرفي وكثرة المصطلحات وتجدد الأساليب على نحوٍ لم يسبق له مثيل، وهذا أدى إلى اتساع الهوة الثقافية بين الناس وتضاؤل لغة التفاهم المشتركة، ولا سيما على الصعيد النقدي والفكري؛ وهذا كله جعل الداعية في حيرة من أمره في شأن توليف خطاب يناسب الجميع. ونود هنا أن نشير إلى نقطتين:

الأولى: أن استخدام العامية في الدعوة مرفوض مهما كان مستوى المخاطبين والمدعوين متدنياً؛ فالعامية فقيرة في مفرداتها وإشعاعاتها وإيحاءاتها، وهي لا تستطيع التعبير عن المعاني الراقية ولا الأفكار المعقَّدة، ويمكن استخدام فصحى قريبة خالية من المصطلحات والكلمات الغريبة بقدر الإمكان.

الثانية: لا بد من أن يكون هناك نوع من الانسجام بين الألفاظ والأساليب المستخدمة وبين المضامين والمعاني المعبَّر عنها؛ إذ إن من الإساءة للمعاني الراقية والأفكار الفلسفية والنظريات المعقدة أن يعبر عنها بلغة هابطة وأمثلة تقترب من البداهة والابتذال، فذاك يحدّ من عطاء الفكرة، ويشوِّه النظرية. كما أن التعبير عن المعاني القريبة المألوفة بألفاظ ومصطلحات لا تكون إلا في متناول الخاصة، وخاصة الخاصة يعد من التقعر والتفاصح

المنكور والمعيب. وقد صرنا نشاهد في الفترة الأخيرة بعض التعبيرات الرنانة الموهمة بأن وراءها شيئاً كثيراً حتى إذا ساق صاحبها أمثلة على ما يقول وجدت أن الجمل تمخَّض فولد فأراً!.

ويمكن القول بصورة عامة: إن التناسب الأساسي ينبغي أن يكون بين مستوى الأفكار والمخاطبين بها، كما أن نوعية المعلومات تتطلب انسجاماً آخر؛ فالمعاني العقدية والفقهية وألفاظ العقود، وما شابه ذلك تحتاج إلى لغة واضحة ودقيقة حتى لا يساء فهمها، أو تعطي انطباعاً خاطئاً، حيث يجب أن تكون بعيدة عن الخيال والألفاظ الموحية.

أما في المجال الحضاري وعلى صعيد تصور القضايا والمشكلات الكلية فإن اللغة المناسبة هي اللغة الموحية المرفرفة التي لا تسجن المعاني، ولا تقيد الأفكار، وإنما تزجيها إزجاء، وتومئ إليها إيماء؛ إن الألفاظ علامات على المعاني ليس أكثر؛ وآنذاك فإن حظوظ المخاطبين منها تكون متفاوتة، وكأن الواحد منهم يسمع الخطاب بعد مروره بمخزونه الثقافي؛ فيتلون فهمه للخطاب الدعوي بلون ثقافته، فتتفجر طاقات النص عيوناً وأنهاراً لدى بعضهم على حين يحوم آخر حوله دون أن يجترحه، أو يدخل حماه.

وكثير من الناس ذوي الثقافة الفقيرة والخيال المحدود يستاءون من ذلك، وربما شككوا في اتزان وفهم مبدعه؛ لكن لا أظن أن هناك بديلاً عن ذلك سوى التبسيط، وهو بديل سيئ في مواطن كثيرة.

٣ ـ ترتيب الأفكار:

ثقافة عصرنا خطت خطوات فساحاً في التنظيم والترتيب المنطقي والاقتصاد في التعبير، ومحاولة الفصل بين القول وحجته، والربط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج. وقد أثر هذا في التركيب العقلي لكثير من الناس، وصار من الواجب على الدعاة مراعاة هذا الأمر إلى أقصى حد ممكن، وذلك عن طريق التقسيم للقضية موضوع الحديث تقسيماً منطقياً متوافقاً مع التسلسل المنطقي للمعقولات في أذهان بني البشر؛ فإذا كان

الداعية يتحدث ـ مثلاً ـ عن الربا بدأ بتعريفه ثم بأدلة التحريم ثم بصوره المعاصرة أو أكثرها، ثم في بيان الأضرار المترتبة عليه في الدنيا والعقوبة الأخروية التي تنتظر آكليه، ثم دفع الشبه الواردة على التحريم أو بعض صوره، ثم تقديم خلاصة مركزة للنتيجة التي يريد الداعية الوصول إليها. إن هذا الأسلوب في معالجة الموضوعات يسهِّل على المخاطب الاستيعاب، كما يسهل عليه الاستفسار عن الأجزاء التي لم يستوعبها. والمستحسن إلى جانب هذا أن يحدد المتكلم العنوان الدقيق للموضوع الذي يريد معالجته. والملاحظ اليوم أن كثيراً من الخطباء والدعاة لا يراعي أي ترتيب في خطابه، وربما تساءل الناس ـ كما يحدث في بعض خطب الجمعة ـ عن الموضوع الذي تحدث عنه الخطيب والنتيجة التي توصل إليها والقناعة أو الرسالة التي يريد إيصالها.

ومن اللطيف في هذه الصياغة المرتَّبة حسن الانتقال وسلاسة الوصل بين أجزاء الموضوع.

٤ ـ المشاركة:

عصرنا الحاضر أكسب شخصيات أبنائه نوعاً من الاستقلال الشخصي والوعي بالتفرد، ومع أن لهذا ميزات عديدة إلا أنه أوجد نوعاً من الوحشة بين الناس، كما أوجد إحساساً باتساع المجال الخاص لكل منا، والتوجس من كل من يحاول التأثير في غيره، وصار اتخاذ موقفٍ ما مضاداً للحياد. وهذا في الحقيقة يوجب على الداعية استخدام صيغ المشاركة بدل الصيغ الدالة على الذات، أو تلك التي تجعل المخاطب كأنه في جبهة مضادة للمتكلم؛ مما يوجد حواجز نفسية بين طرفي عملية الاتصال، وربما عُدَّ ذلك نوعاً من الخروج عن اللباقة المطلوبة.

ومن هنا فإن علينا أن نستخدم لفظ (نحن) أو كلمة (الناس) أو (العالم) أو (المسلمون) بدل لفظ (أنا) و(أنت) و(أنتم) و(جماعتي). . . وربما ساغ ذلك في بعض السياقات الخاصة. والمقصود من استخدام صيغ المشاركة إحداث نوع من الدمج الشعوري بين المتكلم وسامعيه، وأحياناً يتم هذا

الدمج من خلال بعض الألفاظ المتسمة بالتودد من مثل (إخواني) و(أيها الأحباب) و(أيها السادة). . . . وهو شيء طيب ما لم يتجاوز حدوداً معينة، فيفسر على أنه تملُّق أو استجداء لإصغائهم وسماعهم.

ومن أنواع المشاركة المطلوبة اليوم تركيز الداعية على الأرضيات المشتركة بدل التركيز على نقاط الخلاف وأوجه التغاير. ومن الملاحظ في هذه السبل أن بعض الدعاة يملأ خطابه بصيغ الرفض والنفي، وكل ما يدل على عدم الموافقة مع أن بلورة المشترك والمسائل المتفق عليها ستؤدي بالضرورة إلى محاصرة الأفكار والسلوكات غير المرغوب فيها.

٥ ـ الرفق والكياسة:

مضت سنة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على الرفق في الخطاب والمجادلة بالتي هي أحسن استجابة لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسعياً في جذب القلوب نحو الكلمة الطيبة، وقد أمر الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالرفق بفرعون حين قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[١] وفي الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[٢]، وفي حديث مسلم: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسيهم لا من يعنفهم. وعلينا ألا ننسى أن البشر مخلوقات عاطفية تجذبهم الكلمة الطيبة وينفرهم التوبيخ والتقريع، وعند كل واحد منهم من الاعتداد بنفسه ومواهبه وإمكاناته ما يجعله يرى في الكلمة القاسية عدواناً على كرامته ومجاله الخاص. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق ما يحتاجه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: «فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه والصبر بعده. . .». وهذا كما جاء في الأثر عن

(١) سورة طه: الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٢) أخرجه الشيخان.

بعض السلف، ورووه مرفوعاً: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه؛ رفيقاً فيما يأمر به؛ رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه»[1].

والداعية إلى جانب إيثاره الكلمة الرقيقة والأسلوب العذب يؤثر أيضاً التشبيهات الجميلة، ويبتعد عن الأمثال والتشبيهات القبيحة أو المنفرة؛ وقد سمعت مرة أحد الدعاة يشبه وجه حالق اللحية بالعجز!! كما سمعت آخر يشبه لاقطات (التلفاز) على أسطح المنازل بالرايات التي كانت تنصبها المومسات على بيوتهن في الجاهلية!! وهذا كلامٌ الصمتُ خير منه بكثير!

إن قولنا: هذا خلاف الواقع يؤدي عين المعنى الذي يؤديه قولنا: هذا كذب، لكنه أرفق وألطف. وإن قولنا: ما رأيكم لو عملنا كذا ألطف من قولنا: اعملوا كذا، وكفوا عن كذا...

إن صيغة الأمر والنهي لم تعد مقبولة في كل موضع؛ فالحضارة الحديثة وسعت دائرة الخصوصيات والحرية الشخصية إلى أبعد حد ممكن، وإن من واجبنا أن نشعر المخاطب أننا لا نعتدي على أي منهما.

٦ ـ التعويل على المناقشة:

عند العودة إلى تراثنا نجد أن أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة كان هو الأسلوب الأكثر انتشاراً في الحلقات العلمية؛ والفقه الحنفي بشكل خاص شهدت بلورته الأولى محاورات واسعة جداً بين الإمام أبي حنيفة وباقي أصحابه، بل إن العودة إلى ما قبل ذلك إلى عهد النبي ﷺ توقفنا على أن كثيراً من أحاديثه ﷺ تفيض بمراجعة أصحابه رجالاً ونساءً مستفسرين عن معنى كلمة أو مستوضحين عن مسألة. وحين تراجعت جذوة حب المعرفة في نفوس المسلمين، ودخلوا في عصور التقهقر ساد أسلوب التلقين، وصارت عملية الاتصال الدعوي تقوم على طرف واحد هو الداعية

---

(١) الفتاوى ٢٨ : ١٣٧.

أو الخطيب أو المعلم، وكان لهذه الحالة أسباب عديدة، لعل من أهمها ضعف سوية المتلقين، حيث لا يمتلكون أية خلفية عما يقال لهم، وبالتالي فإنهم غير قادرين على المناقشة. وقد يكون من تلك الأسباب عجز الداعية أو المحدِّث عن إثارة حماسة المخاطبين واستخراج الفضول لديهم بسبب طبيعة الأسلوب الذي ينتهجه أو بسبب عدم اشتمال كلامه على شيء من الطارف الجديد الذي يستحق التساؤل والتحاور؛ إذ إن الواضح اليوم أن كل ما هو معروف يُكرَّر، وكثير مما يحتاج إليه الناس لا يسمعونه؛ مما يورثهم الملل والسآمة.

إن تشجيع الناس على طرح الأسئلة، وإبداء الرأي حول مختلف القضايا أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك يبنى نفسية المشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إحداث القناعة بالرسالة الدعوية، بل القناعة بأية فكرة مطروحة مهما كان نوعها. وقد حدث أن أعطيت تعليمات بضرورة تكثيف العمل في أحد المعامل؛ فلم يؤد ذلك إلى زيادةٍ تُذكر في الإنتاج؛ على حين أن معملاً آخر جرت فيه مناقشة بين أرباب العمل والعمال حول ضرورة زيادة الإنتاج وفوائدها، والأضرار التي ستلحق بالجميع إذا لم يحصل ذلك؛ فارتفع الإنتاج بشكل كبير(١).

إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى تدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة بدل ما يحصل الآن من الحرص على صمتهم واستماعهم لما يلقى عليهم. ولخصوصية خطبة الجمعة، فمن الممكن أن يجلس الخطيب دقائق بعد صلاة الجمعة لمناقشة بعض المسائل التي وردت في الخطبة والاطمئنان إلى أنها فهمت على الوجه الصحيح، ولسماع وجهات النظر.

---

(١) علم النفس الاجتماعي: ١٧٠.

٧ ـ الجاذبية بدل القسر:

إن نجاح الداعية في جعل ما يقوله للناس يستقر في نفوسهم، ويتغلغل في سلوكهم وحياتهم اليومية دون شعور بالكلفة أو العناء ـ يتوقف إلى حد كبير على ما يمتلكه الداعية من براعة وجاذبية؛ فالقيم الخيرة ـ عامة ـ لا تفرض على الناس فرضاً، لكنها تجذبهم إليها جذباً، فيتمثلونها، ويضحون في سبيلها عن طيب خاطر وخضوع تام. وجاذبية الداعية تكمن في التكامل بين جوانب شخصيته وأسلوبه وموضوعه والظرف الذي يتحدث فيه وشعور الناس بالحاجة والارتياح لما يقال... لكن بما أن مشاعر الناس وعواطفهم وحماستهم ليست أشياء ثابتة جامدة، ومن ثم فإن من ذكاء الداعية أن يعرف متى يجب عليه التوقف عن الكلام. إن جاذبية الداعية لا يمكن أن تكون كلها كسبية، فهناك الموهبة الربانية الكامنة في عمق شخصية الفرد من اللطف وسعة الصدر وكرم النفس والتحمل والذوق والحكمة... لكن هناك أشياء كثيرة يمكن للداعية أن يتعلمها ويكتسبها.

من الملاحظ أن بعض الدعاة يفرض نفسه فرضاً على الناس، فيستغل اجتماعهم في صلاة الجمعة أو على طعام أو أية مناسبة فيها نوع من الإلزام بالحضور؛ ليحدث الناس بما يرى حاجة الناس إليه ملحَّة. ونحن لسنا ضد الاستفادة من اجتماع الناس للفت نظرهم إلى بعض الأمور لكننا ننبه إلى أن الناس تظل أذهانهم مشدودة نحو الهدف الذي حضروا من أجله، ومن ثم فإن شغل وقتهم بأي شيء آخر يعد في نظرهم نوعاً من الفضول أو التطفل. ومن ثم فإن الحديث ينبغي أن يكون مناسباً لما حضر من أجله الناس، وأن يكون مما يمس أولوياتهم، وأن يكون إلى جانب ذلك موجزاً مختصراً.

إن فرض الداعية نفسه على الناس بدل جذبهم يعد مؤشراً هاماً على ضعف نجاحه في مهمته. وهذه المشكلة في الحقيقة ليست مشكلة الدعاة وحدهم لكنها أيضاً مشكلة الحضارات والدول والأحزاب والجماعات... وحين حاول أرنولد توينبي إيجاز طبيعة انهيار الحضارات ذكر عوامل عدة من جملتها: قصور الطاقة الإبداعية وفقد الجاذبية لدى القلة التي تقود المجتمع

فيلجأون إلى استخدام القوة في ضبط الكثرة العاطلة من المبادرة والإبداع[١].

٨ ـ الاقتصاد:

مجالات القول لدى الدعاة فسيحة ومتسعة والمناسبات التي تدعو إلى الكلام كثيرة متزايدة. وقد جرت العادة أن تنصبَّ الثقة على بعض الدعاة من لدن الناس؛ فيُدعون إلى الحديث بمناسبة وغير مناسبة. وإشارات الإعجاب والاستحسان التي يتلقاها الداعية ربما دفعته إلى الاستجابة والإطالة فيقع في آفة التكرار والاستطراد والسطحية؛ وذلك لأن الكم كثيراً ما يكون على حساب الكيف، وكثرة الكلام تعرِّض الأفكار والصور والمعاني التي عند الداعية للنفاد، ويصبح الجديد لديه نادراً. فلا بد من ترك وقت جيد للقراءة من أجل إثراء الحصيلة المعرفية وتجديدها لدى الداعية؛ لأن ذلك يشكل جزءاً مهماً من جاذبيته ونجاحه. ثم علينا أن نعلم أن الأمة اليوم بحاجة ماسَّة إلى النمط الأعلى من كل شيء؛ فنحن اليوم نعاني من فقر الكيف والنوعية، لا الكم والكثرة.

وهناك نوع آخر من الاقتصاد أراه ضرورياً لتوازن الخطاب الدعوي، وهو لزوم الواقعية وعدم المبالغة في تصوير الأمور على صعيد الواقع أو بيان الخصائص أو تحديد المشكلات أو بيان ثواب الأعمال أو عقوباتها؛ فتجاوز حدود القصد في أي من هذه المجالات يدفع طائفة من الناس إلى الوضع المعاكس، وقد رأينا أن أناساً كرهوا بعض الشيوخ لكثرة ثناء طلابهم عليهم؛ وهناك جماعات أعرض الناس عنها لكثرة ثنائها على نفسها.. ويُنظر اليوم إلى الذين يبالغون في مديح الأمة، أو يبالغون في ذكر الثواب والعقاب ـ ينظر إليهم نظرة لا تخلو من الاستخفاف والاتهام بالقصور والعيش في الأوهام. وكان علماء الحديث ـ وهم أدق الناس منهجية لدينا ـ قديماً قد جعلوا من أمارات وضع الحديث اشتماله على ذكر الثواب العظيم للعمل القليل، والعقاب العظيم على الجرم الصغير؛ لأن ذلك ليس من هدي النبي ﷺ ولا

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ١:٤١٢.

من شرعة الإسلام. الكراهة للمبالغة تؤكدها الثقافة المعاصرة الميالة إلى الرؤية الشاملة للأمور والنزّاعة نحو النقد في كل اتجاه؛ ولا أرى أن من الحكمة تجاهل ذلك.

٩ ـ ختم الرسالة الدعوية:

هل يختم الداعية بدعوة صريحة للسامعين لتبني الأفكار أو القضية التي حدثهم عنها، وهل يذكر بعض نتائج خطابه، وهل يذكر ملخصاً لأهم ما قيل فيه؟ هذه أسئلة عديدة يطرحها كل واحد منا على نفسه. الحقيقة أن ذلك يتوقف على طبيعة الموضوع الذي يتحدث فيه، وعلى مستوى المخاطبين أيضاً.

فالدعوة الصريحة الملحة للتعاطف مع الأفكار التي يعرضها الداعية تكون مقبولة كلما كان مستوى المخاطبين متدنياً، وكلما كان الموضوع المعروض بعيداً عن القضايا الشخصية للداعية. أما إذا كان المخاطبون على مستوى عال من المعرفة والعلم والمكانة الاجتماعية فإن الإلحاح يكون غير مناسب. كذلك إذا كان هناك نوع من المصلحة الخاصة للداعية فإن الأولى العرض وعدم الإلحاح، ويقول نحو من هذا في تلخيص الكلمة أو الخطبة وذكر النتائج المستفادة منها؛ فليس من المناسب فعل ذلك أمام المثقفين ذوي السوية العالية لأن في ذلك نوعاً من الاتهام لفطنتهم. أما أمام العامة وأشباههم فإن ذلك يكون عملاً جيداً ومطلوباً؛ إذ ربما لا يرسخ في أذهانهم سوى الخلاصة التي يذكرها لهم، ويمكن أن يقال نحو من هذا أيضاً في أسلوب عرض وجهة نظر أخرى مغايرة لما يقوله الداعية بعد أن يكون فرغ من شرح وجهة نظره. وفي هذا المقام يمكن القول: إنه ليس من المناسب تشتيت ذهن السامع العادي بذكر وجهات نظر عديدة؛ إذ إن ذلك قد يضره أكثر مما ينفعه، ولا سيما أنه ليس مؤهلاً للموازنة والترجيح بين اتجاهات الآراء فيما سمع.

أما إذا كان المخاطبون من الصفوة فإن عرض وجهة النظر الأخرى يكون تعبيراً عن سعة الاطلاع وعن الموضوعية وعن احترام السامعين حيث

يترك لهم حرية اختيار ما يرونه مناسباً وأقرب إلى الصواب. والداعية بفهمه الثاقب وحسِّه المرهف يميز بين هذه الأحوال المختلفة، ويستخدم لكل حالة ما يناسبها.

١٠ ـ صمت الداعية:

ربما كان التدفق في الحديث في بعض مراحل تاريخنا علامة على تمكن المتحدث من موضوعه وعلامة على نباهته وذكائه. كما أننا في يوم من الأيام ربما كنا نحبذ ألا يترك الداعية في أي مجلس من المجالس شاردة ولا واردة دون أن يعلق عليها، أو يبين موقف الإسلام منها. وربما كان ذلك مستساغاً آنذاك أو كانت معرفتنا بمدى صوابه محدودة.

أما ثقافة اليوم السائدة فإنها تتجه إلى عدم تحبيذ السرعة في الكلام، وإنما التكلم بتؤدة وأناة، وجعل بعض السكتات تتخلل الكلام، وفي ذلك فرصة للمتحدث كي يركز أفكاره، ويختار عباراته لكن فترة الصمت يجب ألا تطول؛ فيسأم السامع.

أما تقرير الداعية المشاركة في الحديث والتعليق على ما يسمع أو الإعراض عن ذلك، ولزوم جانب الصمت فإن هذا محكوم أيضاً بالظرف السائد في المجلس؛ وفي نظري أن محاولة الداعية توجيه الحديث نحو شيء مفيد يعد أمراً طيباً، لكن علينا أن نحذر من السيطرة على المجلس وحرمان الآخرين من المشاركة. ولعل أفضل وضعية هي أن يتولى الداعية تنظيم الحديث وتداوله بين الحاضرين، وإذا استطاع الداعية أن يؤجل إبداء وجهة نظره؛ ليكون آخر المتكلمين فإنَّ ذلك أمر حسن حتى يستطيع استمزاج الآراء ومعرفة مستوى الحاضرين...

ولعل من الحالات التي يستحسن فيها صمت الداعية شعوره بأن الحديث وصل إلى مستوى يهدد تضامن أهل المجلس، وذلك حين يتناول قضايا خطيرة أو شخصية جداً. كذلك شعور الداعية بأن الحوار أخذ طابع الجدل العقيم الذي لا ينطلق من دليل أو ينبني على معلومات صحيحة.

إن المتحدث الجيد هو في الأصل مستمع جيد، وعلينا أن نتعلم فضيلة الصمت كما نتعلم الكلام، وكثيرو الكلام يُحرمون عادة من معرفة رأي الآخرين والمعلومات التي لديهم، وربما يتورطون في قول كلام يضطرون إلى التراجع أو الاعتذار عنه بعد قليل.

وعلى كل حال فإن من الضروري ألا يعطي الداعية انطباعاً بأن صمته عبارة عن عجز أو سلبية أو عدم اهتمام.

هذه الملاحظات التي أبديناها على الاتصال اللفظي لا يمكن أن تكون شاملة لكل ما يمكن أن يقال؛ لكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثانياً: أسلوب الاتصال غير اللفظي:

بدأ في الخمسينيات من هذا القرن الاهتمام بالاتصال غير اللفظي، وكان لعلماء علم الأجناس وعلماء علم النفس وعلم النفس العلاجي خاصةً الفضلُ في تنميط أشكال الاتصال غير اللفظي[1]. ويقصد بالاتصال غير اللفظي كل المظاهر والحركات والأدوات والملابس، وما شاكل ذلك مما له علاقة بشخصية المرء وواقعه السلوكي. والحقيقة أن المسألة ليست جديدة؛ ففي القرآن الكريم والسنّة المطهرة نصوص عدة تدعو إلى استخدام الاتصال غير اللفظي بطريقة تعبر عن القيم الإسلامية المختلفة، وتكمل الرسالة اللفظية التي يبثها المسلم باعتباره قائماً بالحق وداعية إليه؛ فعفة المسلمة تقتضي منها عدم إلانة القول والخضوع به حتى لا تعطي انطباعاً خاطئاً، وتواضع المسلم وخوفه من الله يمنعه من أن يطيل ثوبه ويجِره خيلاء حتى لا يفهم منه الآخرون خلاف ما يدعيه من العبودية لله تعالى وهكذا[2].

إن الاتصال غير اللفظي يعطي انطباعاً راسخاً للناس عن حالة الداعية التي يتلبس بها؛ وحين يتطابق قول الداعية مع سلوكه ومظهره فإن المظهر

---

(١) انظر مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي: ٨١.

(٢) انظر السابق: ٨٢، حيث ساق آيات وأحاديث عديدة حول هذا الموضوع.

يعزز فرص القبول لما يقوله الداعية؛ وحين تتناقض الرسالة اللفظية مع الرسالة غير اللفظية فإن الناس يميلون إلى تصديق الرسالة غير اللفظية؛ ومن ثم قالوا: لسان الحال أبلغ من لسان المقال. وكثير من بقاع العالم الإسلامي لم يُفتح بالسيف ولم يذهب إليها الدعاة والعلماء، لكن ذهب إليها التجار الذين هم إلى العامة أقرب؛ لكن سلوكهم ومعاملتهم وسمعتهم كان منار هداية للأمم التي سافروا إليها. وبالإمكان أن نذكر من أنماط الاتصال غير اللفظي ما يلي:

١ ـ سمعة الداعية:

لا يخفى أن قيمة ما يقوله الداعية ممتزجة في نظر أكثر الناس بما يسمعونه على الصعيد المعرفي وعلى الصعيد السلوكي؛ فأكثر الناس عاجز عن تثمين وتقويم ما يسمعه؛ وعن الحكم على مدى صوابه ونفعه؛ ومن هنا فإن ما استقر في أذهانهم، وما انطبع في نفوسهم من صور عن داعية بعينه يعد ذا أهمية بالغة في تفاعلهم مع ما يقوله الداعية واستجابتهم له. فإذا عرف الناس أن داعية ما لا يحرص على صلاة الجماعة ـ مثلاً ـ، ثم رأوه يلقي درساً حولها فإن رد الفعل لديهم سوف يكون غاضباً ومعبراً عن اليأس والإحباط. وفي المقابل فإن الصورة الذهنية المنطبعة إذا كانت ترسم داعية غزير العلم أو شديد التدقيق والتحقيق فإن الناس سوف يتلقون ما يقوله بالقبول والإعجاب وهكذا. . .

وتتعقد الظاهرة حين يكون الأسلوب الذي يعتمده الداعية هو الإكثار من الوعظ والأمر والنهي وتوبيخ الآخرين وزجرهم؛ حيث تتوجه الأذهان مباشرة إلى تلمس ما عسى أن يكون في حياته من ثغرات ونقاط ضعف. إن المثالية التي يزرعها بعض الدعاة قد تسبب أضراراً لكثيرين، وأولهم هم الدعاة أنفسهم!.

٢ ـ المظهر:

لم يأت على البشرية يوم آثرت فيه القبح على الجمال أو الفوضى على

النظام أو القذارة على النظافة؛ لكن الذي يتعرض للمد والجزر هو درجة الاهتمام بهذه المسائل. ومن الملاحظ أن الخواء الروحي الذي تعاني منه البشرية إلى جانب ضمور الأصالة، وكثير من المعاني النبيلة أدى إلى الاتجاه نحو المظهر وإعطائه أهمية متزايدة، وصار المظهر بحق كافياً لتكوين الانطباع الأول؛ فإذا كان الانطباع إيجابياً تطلع الناس إلى مضمون إيجابي، وإذا كان سلبياً فإن الناس آنذاك لا يتوقعون الكثير، بل إن ما سيصادفونه من فضل وعلم خلف الأسمال البالية سيكون منقوصاً وعند بعضهم معدوم الأهمية.

ومن ثم فإن من هديه وسنته ﷺ لبس الثياب البيض والحرص على نظافتها، والحرص على التطيب والحث عليه وترجيل الشعر ودهنه وتغيير الشيب ـ بغير السواد ـ وما شابه ذلك مما هو معروف ومشهور؛ وكل ذلك في الحقيقة مؤشر إلى الاهتمام بالناس والإحساس بالذائقة الجمالية لديهم. . . هذا الاهتمام بالناس هو الذي يساعد على جلب اهتمامهم بنا وباستحقاقنا العضوية في مجتمع له معاييره الخاصة. يقول مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ: «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة؛ فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه. . . . فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوخياً للكريم من العادات»[١].

٣ ـ فضيلة الاهتمام:

يعني الاهتمام إعطاء الداعية كلَّ ما يتصل به ما يستحقه من العناية والمتابعة والصيانة والتنظيم. ويجب أن نقول في البداية إن معايير الناس السائدة حول قضايا كثيرة ليست صحيحة دائماً؛ فقد استقر ـ على سبيل المثال ـ في أذهان الناس أن مظهر مسوِّق بضاعة ما لا يخلو من ارتباط بالبضاعة التي يسوقها؛ ومن ثم فإن لمندوبي المبيعات مواصفات معينة لا بد

(١) مشكلة الثقافة: ١١٥، ١١٦.

من توفرها؛ وإلا كسدت البضاعة. فهل نقوم باختيار مندوبين مناسبين أم نشتغل بتغيير قناعات الناس؟ لا ريب أن الخيار الأول هو الأقرب والأسهل؛ لأنه مضمون النجاح...

في زماننا هذا صار الوصم بصفة (الإهمال) من أشنع أنواع الهمز واللمز؛ لأن ذلك يعني الخروج على روح العصر الذي يحبذ الاهتمام بكل شيء مهما يكن عارضاً أو تافهاً. وبناء على هذا فإن اهتمام الداعية بثيابه ونظارته وسيارته ومسكنه والمواعيد التي يضربها والانتقادات التي يسمعها والأخبار التي تبلغه... إن اهتمامه بكل ذلك مهم جداً في الانطباع الذي يتشكل عنه لدى الناس. ومن ثم فإن علينا أن نلاحظ ذلك بدقة لكن يقال إلى جانب هذا إن الإفراط أخو التفريط، وإن الشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده؛ وأمتنا أمة التوسط والاعتدال في كل أمر. وقد أظهرت بعض الدراسات أن الأفراد الذين يهتمون اهتماماً زائداً بملابسهم هم في الغالب أناس متمسكون بالعادات والتقاليد، مثابرون متشككون وغير مستقرين؛ كما أنهم لا يثقون بأنفسهم. على حين وُجِد أن الأشخاص الذين يقتصدون في ثيابهم هم من النوع الذي يتحمل المسؤولية، وهم نشطون ذوو كفاءة، كما أنهم دقيقون وأذكياء»[١].

إن المهم هو إعطاء انطباع بالاهتمام والعناية بكل ما يمثل نوعاً من الاتصال والتواصل بيننا وبين الآخرين.



(١) الاتصال والسلوك الإنساني: ١٩٣.

(٣) التلاؤم مع وضعية المدعو وظروفه

مهما وضعنا من مواصفات للأسلوب الجيد القادر على البلاغ المبين، فإن قدراً كبيراً من نجاح ذلك الأسلوب يتوقف على ملاءمته للمخاطبين وموافقته لاستعدادتهم وثقافتهم وأمزجتهم وظروفهم...

وليس إدراك ذلك بالأمر الهين؛ حيث يواجه كل واحد منا ظروف الحياة بصورة منفردة؛ وبالتالي فإن لكل منا وضعيته الفريدة التي تستحق الانتباه والعناية والدرس؛ وإن ثقافة الناس تتعرض لتغيرات سريعة جداً؛ وقد صار التعرف على ما يرغب الناس في سماعه والأسلوب الذي يرتاحون إليه علماً من العلوم وفناً من الفنون؛ بل إن مراعاة ثقافة الناس وأمزجتهم صارت ذات أثر بالغ في القدرة على المنافسة الاقتصادية؛ فعلى مدى العشرين سنة الماضية تراجعت حصة الصناعة الأمريكية من السوق العالمية ست نقاط على حين زادت حصة الصناعة اليابانية ١٥ نقطة. وحصة أمريكا في السوق من الأدوات الآلية ـ وهي السلعة التي تحدد القدرة التنافسية لأي بلد ـ تراجعت من ٢٥٪ إلى ٥٪ خلال ثلاثين عاماً، بينما زادت حصة اليابان من صفر إلى ٢٢٪!! ويعزو بعض المفكرين ذلك إلى بنية العقلية الأمريكية وبنية العقلية اليابانية، حيث تنطلق أمريكا من عقلية تقليدية ملخصها: ما سننتجه سوف يستهلكه الناس على حين أن اليابان تقول: ننتج ما يحتاجه المستهلك[1]. ومن ثم فإنك تلمس التطوير والتنويع في الصناعات اليابانية بما يلبي جميع الأذواق والرغبات والحاجات، ويبدو أن كثيرين من دعاتنا يؤثرون الطريقة

(١) آفاق المستقبل: ٨٤.

الأمريكية، فلا يلقون أي اهتمام لما ينبغي أن يكون عليه الخطاب المعاصر!

ولعلنا نذكر بعض النقاط المضيئة في هذا السبيل في الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ الحديث المباشر والحديث المخملي:

مما هو مشاهد في بعض البلدان ميل الناس إلى التحدث بصورة غير مباشرة، ولا سيما في مجال النقد ومجال الخصوصيات، على حين أننا نرى بلداناً أخرى تؤثر الصراحة، والحديث المباشر الذي يضع النقاط على الحروف[1]. ويتكون التركيب العقلي والآلية الإدراكية لدى الناشئة على هذا النحو من خلال التربية والتشبع بالثقافة المحلية. وتبعاً لتلك التنشئة فإن الصنف الأول يتضايق من الصراحة الزائدة، وإذا لم ينتبه الداعية لذلك فإنه قد يخسر علاقات كثيرة بسببها. ويبدي أصحاب الأسلوب المخملي في الخطاب السلبية، ويخفون مشاعرهم وآراءهم وأفكارهم حينما يُجابهون بغير ما ألفوه. أما الذين ألفوا الأسلوب المباشر، فإنهم قد لا يستوعبون ما يقال لهم بشكل جيد إذا قدم بطريقة ملفوفة. وقد كان من هدي النبي ﷺ في مجال النقد عدم المواجهة، وطالما كان يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. أما في غير مجال النقد فإن على الداعية أن يراعي الخصوصية الثقافية للمخاطبين حتى يتمكن من التأثير فيهم وتبادل الفهم معهم.

٢ ـ مراعاة مستوى المخاطب:

قدرة الناس على الفهم متفاوتة، وثقافتهم أيضاً متفاوتة والداعية الموفق هو الذي يدرك ذلك ويتخاطب مع الناس على أساسه. وقد روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله». وقال ابن مسعود: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وقال الشاطبي: «وليس كل ما يعلم مما هو حق

---

(١) نجد هذا وذاك واضحين في مدينتي دمشق وحلب على سبيل المثال.

يُطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام»[١]. وقد كره الحسن تحديث أنس للحجاج بحديث العرنيين؛ لأن ذلك سهل له سفك الدماء[٢].

إن بعض الدعاة يصلح في تكوينه الثقافي، وفي أسلوبه لمخاطبة العامة ومتوسطي الثقافة، وبعضهم لا يصلح إلا لمخاطبة الصفوة، ولو تحدث مع العامة وأشباههم لكان في حديثه من الشبه وإثارة المشكلات أكثر مما فيه من النفع. ومن الصعب على الرجل أن يغير أسلوبه؛ لذا كان من الأولى أن يتجه كل لما يناسبه، ويصلح له.

٣ ـ عملية الإقناع اليوم أكثر تعقيداً:

التواصل الكوني العظيم وثورة المعلومات الآخذة في الاتساع وضعت إنسان العصر الحديث ضمن هالة ضخمة من المعلومات والمعارف المتناغمة والمتعارضة؛ مما أوجد نوعاً من البلبلة لدى كثير من الناس، كما أوجد نوعاً من الحرون في قابلية الاعتقاد والتصديق لدى الناس عامة، وعند المثقفين خاصة. وإن ما نطلق عليه اليوم اسم (الرأي) كان الناس منذ خمسة قرون يسمونه (حقيقة). ولم يكن هناك في ذلك الزمن سوى قليل من الأفراد الذين يستطيعون مغادرة قراهم؛ ليعرفوا الفارق بين الحقيقة والرأي[٣].

هذه الوضعية الجديدة توجب علينا استخدام المنطق والبرهان والخطاب الثري بالأمثلة والشواهد المختلفة والمنتزعة من علوم وخبرات شتى حتى نتمكن من نوع من الاختراق والتجاوز لكل الضبابيات والغشاوات التي خلفها تدفق المعلومات على بصيرة بني البشر اليوم.

وعلينا إلى جانب هذا أن نتعلم كيف نصغي لإنسان عصرنا، وكيف نجعله يعتقد أننا مهتمون بما يقوله؛ ذلك لأن المخاطب إذا كان يشعر أن لديه

---

(١) قيمة الكلمة ومسؤوليتها: ٢١.

(٢) قواعد الدعوة إلى الله: ٧٥.

(٣) انظر (عندما تغير العالم): ١٢١.

ما ينبغي أن يعبر عنه فإنه لن يصغي، ولن يستوعب ما نقوله له إلا بعد أن يفرغ من الإدلاء بما لديه.

٤ ـ إشعار المخاطب بكرامته:

كرَّم الله بني آدم جميعاً حيث أرسل لهم الرسل، ومتعهم بالعقل والاختيار والقدرة على المخاطرة ومجاوزة الرغبات، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[١].

والإنسان مهما كان شأنه ومهما كانت ظروف مهنته يحس بكرامته، ويتوق إلى من يشعره بأنه كريم، وبأن له ذاتاً محترمة؛ ومن ثم فإن صيغة الخطاب الموجَّه ينبغي أن تشعره بأنه مؤهل للصلاح ومستحق للتقدير، وأنه أهم من متاع الدنيا الذي لا يجوز أبداً أن يسبب امتلاكه عدواناً على أية ذات بشرية. ومن إشعارنا له بالكرامة أن يكون لدينا الاستعداد لرؤية كثير من الأشياء من وجهة نظره، أو إشعاره على الأقل بأن له وجهة نظر يمكن أن تكون صائبة. ومن ذلك إبراز جوانب الخير فيه لنمنحه شيئاً من الثقة بنفسه، ونفجر موارد الطاقة التي سيستخدمها في نشاطه الإنساني.

وإننا نعتقد أن النظرة الدونية للآخرين ستجعلنا نخسرهم، وإذا كسبناهم للدعوة فهل سنكسب لها مجموعة من المعوقين أو العبيد، والعبد لا يكر، ولا يفر.

ومن ثم فإن علينا أن نخاطب من ندعوه بأحب أسمائه إليه، وإذا كان له لقب مهنة أو لقب علمي خاطبناه به ما دام ذلك يشعره بكيانه وبكرامته.

٥ ـ تخير الظرف المناسب:

عند البخاري من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كان النبي ﷺ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا». وقد علق ابن حجر على ذلك بقوله: ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة، لكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوم بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة؛ ليقبل على الثاني بنشاط، وإما أن يكون يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ **والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط**[1].

قضية الظرف مهمة جداً في موقف المخاطب، ومدى استجابته وتشوقه لما يسمع وفي رفضه وعدم إقباله، ويمكن أن نلمس فيها المسائل التالية:

أ ـ إن من حصافة الداعية أن يتخير الحالة المناسبة للحديث، فإذا كان المخاطب في حالة نعاس أو في انتظار طعام تأخر عن موعده، أو كان في انتظار خبر مهم، أو في حالة من الكرب الشديد. . . . فإن استعداد المخاطب لاستقبال المعلومات، والتفاعل معها سيكون معدوماً أو محدوداً؛ وربما عُد ذلك في نظره نوعاً من الخروج على اللباقة. إن الحاجات الملحة تصرف انتباهنا عن كل ما حولنا بل إنها تؤثر في توازننا العقلي والنفسي؛ ومن ثم كان من آداب القاضي امتناعه عن القضاء إذا كان جائعاً أو حاقناً أو ناعساً. . .

ب ـ من الضروري للداعية أن يعرف المعلومات التي يشتد عليها طلب المخاطب؛ فيقدمها له في أوانها، وفي الإطار الذي يخدم الدعوة وبالأسلوب الذي يشبع حاجة المخاطب، ويشده في الوقت نفسه نحو القيم والمبادئ الإسلامية.

وقد أجريت دراسة في جامعةِ (بنسلفانيا) حول انتشار الأفكار، تبين منها ما يلي:

---

(١) فتح الباري ١: ١٦٣.

١ ـ يزداد الطلب على المعلومة عندما يزداد الشك لدى الأفراد حول فكرة من الأفكار حتى يصل الناس إلى شيء من اليقين.

٢ ـ تزداد درجة قبول المعلومات الجديدة في حالة وجود غموض وإبهام حول قضية من القضايا.

٣ ـ كلما كانت إمكانية تجريب تطبيقات فكرة أعظم، أو أمكن رؤية الآخرين يستخدمونها كان ذلك أدعى إلى قبولها[١].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما ذكر من خصائص السلع والخدمات الحديثة التي تحوز على القبول، ونسبة إقبال الناس عليها حيث وجد التالي:

مدى إشباعها للحاجات القائمة	٩٢٪
ملاءمتها لاحتياجات المستهلكين	٨٦٪
فائدتها النسبية	٧٨٪
قابليتها للملاحظة ووضوح نتائجها	٧٥٪
قدرتها على تحقيق فوائد مباشرة	٥٧٪.[٢]

إن بعض الأفكار والمعلومات هي بالنسبة للناس بمثابة الخبز، وبعضها بمثابة اللحم، وبعضها بمثابة الفاكهة، وبعضها سمعوه حتى ملّوه. والداعية الناجح هو الذي يدرك ذلك، ويتصرف على أساسه. وإن سبب إخفاق كثير من وسائل الإعلام وسبب تأزم جوانب عديدة من الخطاب الإسلامي هو بالضبط هذه المسألة؛ فما يقال باستمرار أقل أهمية وتلبية لاحتياجات الناس مما لا يقال!.

إن أمة الإسلام تشعر اليوم بالدونية، ويطوق عنقها مشكلات على كل الصعد، وهي بحاجة ماسة إلى من يعرِّفها على مجمل الأسباب التي أدت بها

---

(١) انظر الاتصال والسلوك الإنساني: ١٨٨.

(٢) السابق. . .

إلى هذه الحال المنكورة، كما أنها بحاجة إلى من يأخذ بيدها نحو بر الأمان من خلال الطرح البصير والتفكير العميق والرؤية الشاملة.

ج ـ من أهم ما تجب مراعاته في الخطاب الأخذ بعين الاعتبار الوضعية الثقافية للمخاطب، إذ إن الفوارق بين العامة والمثقفين هائلة، بل إن الفوارق بين ما نسميهم مثقفين كبيرة؛ حتى يمكن القول: إن كثيرين منهم ينبغي مخاطبتهم على موجة خاصة بهم وبأسلوب خاص؛ لأن هناك اختلافاً واسعاً بينهم في أسس الثقافة ومشخصاتها. والأسلوب الخاص هو تعبير عن ثقافة خاصة؛ والتكلف في هذا المجال غير ذي فائدة. وإن الصفوة أو النخبة هم أهل الثقافة العليا، وهؤلاء هم الذين تكونت ثقافتهم بطريقة واعية بواسطة القراءة والحوار والممارسة العملية، وهم الذين يمثلون ثقافة الأمة أمام الثقافات الأخرى، وهم الذين يتولون غربلة الوافد من الأفكار والمعلومات وإدخاله إلى الثقافة الشعبية؛ ومن ثم فإن كسبهم للدعوة يكون في العادة عملاً مكلفاً لكن الفوائد التي يمكن أن تعود على الدعوة، وعلى الأمة من وراء هدايتهم لا تحصى.. وفي المرحلة المكية حيث التأسيس الفذ للقاعدة الصلبة كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب»[١]. وتشير دراسات عديدة إلى الأهمية المتزايدة التي تكتسبها الصفوة في التأثير في الرأي العام وقيادة الناس وصيانة ثقافتهم وتوجهاتهم. ومن تلك الدراسات دراسة (روبر) حيث انتهى إلى الخروج بفَرَض أسماه «نظرية الدارة ذات المركز المشترك». وتقوم هذه النظرية إلى افتراض أن الأفكار تتخلل الجماهير ببطء شديد حيث تتحرك في دوائر ذات مركز موحَّد ابتداء من قادة الرأي أو الفكر أو كبار المفكرين إلى حوارييهم، ثم إلى مجموعة الأفراد ذوي التأثير القوي على المجموعات ثم المفكرين ذوي التأثير الأقل ثم الأفراد العاملين في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الإداري ثم عامة الناس[٢]. وهذا يعني أن المعلومات تتدفق

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) الإعلام والاتصال بالجماهير: ٧٠.

على مراحل حتى تصل إلى العامة. وحين تكون الأفكار مبسطة فإن بإمكان العامة أن يتلقوها من أية جهة وأحياناً من وسائل الاتصال دون واسطة، لكن الأفكار المعقدة والدقيقة يصعب انتقالها من مصدرها إلى العامة دون وسائط ودون نوع من التقريب والتبسيط وإلا تعرضت للتشويه وسوء الفهم.

من خصائص الخطاب الذي ينبغي أن يوجَّه إلى الصفوة ما يلي:

أ ـ بناء الأرضية المشتركة؛ فليس من مصلحة الدعوة، ولا الأمة أن تبحث في أوجه التخالف بين أبنائها حتى تعمق الشروخ والانقسامات. وتتكون الأرضية المشتركة من الخطوط العقدية العريضة، ومن معطيات التراث والتاريخ، ومن خلال الأهداف والمصير المشترك والمصالح العليا للأمة، إلى جانب المبادئ الإنسانية العامة من نحو العدل والإحسان وحب الخير ومناصرة المظلوم ومساعدة الضعيف ومحاصرة الشر والتماسك الاجتماعي وبلورة العدوّ المشترك. والتركيز على هذه القضايا سوف يُكوِّن إطاراً أشمل ندير فيه الخلافات الكبرى، ونعبر من خلاله إلى توحيد الرؤية في مسائل كثيرة.

ب ـ ثقافة الصفوة وفكرهم أقرب إلى التعقيد، والفكر المعقد يحتوي باستمرار على مسائل مبلورة ومسائل آخذة في التبلور، ومقولات نصفها مدرَك والنصف الآخر خيال. وما يطرحه المفكرون من أفكار كبرى بعضه له أمثلة وصور ذهنية مدركة وبعضه لا نماذج له، لكنه يوسع الأفق ويساعد في إيجاد البدائل. . . والداعية الناجح هو القادر على أن يحاور أولئك من خلال طريقة في التفكير مشابهة، ومن خلال أسلوب يتسم بالمرونة وشيء من الغموض والإيحاء.

ج ـ يتضايق المفكرون وأبناء الصفوة عامة من الأسلوب الذي يعرض الأمور والمشكلات من وجهة نظر واحدة، وربما نظروا إلى ذلك على أنه نوع من الغرور أو ضيق الأفق أو العدوانية، ومن ثم فإن عرض وجهات النظر الأخرى بوضوح وبإيجاز يعد شيئاً حسناً ومنتجاً، لكن لا يفعل الداعية ذلك إلا إذا كان واثقاً من قدرته على إقناع المخاطب بوجهة نظره وقناعته هو

بها وببراهينها، وإلا فقد تكون النتائج سلبية. ومما وصف به أسلوب الفخر الرازي في تفسيره أنه كان يسوق الشبه نقداً، ويردّ عليها نسيئة!.

د ـ الدقة أمر حيوي في مخاطبة الخاصة؛ إذ ينبغي أن تحسب حساباً لكل كلمة تقولها، وتعني الدقة إدراك مرامي كل كلمة تقولها، وما يمكن أن يفهم منها، وما يمكن أن يجد فيه المخاطب مأخذاً عليك، ويستخدمه ضدك في وقت لاحق. كما أن الدقة تعني نوعاً من الترابط المنطقي بين المقدمات والنتائج، وعدم سوق القطعيات مساق الظنيات أو سوق الظنيات مساق القطعيات وإعطاء الأدلة التي بحوزة الداعية القدر المكافئ لها من الاهتمام دون مبالغة.

هـ ـ التوثيق والإحصاء مهمان جداً، وعلى الداعية أن يعتمد الأسلوب الإحصائي الذي يعتمد الرقم، وأن يكون في الوقت نفسه عالماً بمصدر معلوماته وقادراً على توثيقها ونسبتها إلى أصحابها.

و ـ يحتاج الداعية في خطابه إلى العامة أن يلقنهم المقدمات والنتائج معاً؛ لأن وضعيتهم الذهنية والثقافية لا تمكنهم من الوصول إلى المحكات النهائية في كل قضية، أما في خطاب أفراد الصفوة فينبغي أن نبتعد قدر الإمكان عن فرض النتائج على المخاطب، لأن بنيته الثقافية والعقلية تجعل آلية الاستخلاص للنتائج لديه ثرية ومتنوعة؛ مما يجعل ما تقوله له أقل مما يصل إليه، كما أن المعرفة الواسعة توجد لدى صاحبها نوعاً من الإباء الرافض لأي شيء يقسره على خلاصة معيّنة.

ز ـ يلاحظ أننا في أحاديثنا كثيراً ما نستهلك الوقت في الحديث عن المسائل الجزئية والمشتتة، وهذا يسود في صفوف الصفوة والعامة على حد سواء، وهذا يولد في أكثر الأمر الشعور بالإحباط واليأس من أي تقدم. وأرى أن الحديث في صفوف الصفوة ينبغي أن ينطلق دائماً من رؤية شاملة لمختلف جوانب الوضع الحضاري ومحاولة الربط بين تلك الجوانب ولمس وجوه تأثير وتأثر بعضها ببعض، ثم محاولة الانتهاء إلى نتائج محددة عبر الحوار والجدل بالتي هي أحسن والانتهاء إلى بعض المقولات النهائية، وبذلك وحده نفتح سبلاً للعمل، وننهي بعضاً من الجدل العقيم المغلق.

٦ ـ رجع الصدى:

لا بد للداعية أن يتوقف بين الفينة والفينة، ليقوم بتحسس الآثار التي تركها كلامه أو كتابه في الناس؛ وليس رأي الناس وتأثرهم معياراً لصواب ما يقوله الداعية؛ وإنما هو معيار لمدى ملاءمة ما يقوله للسويَّة التي عليها الناس ومعيار لحاجاتهم من الخطاب..

والمؤشرات التي تدل على مستوى استجابة الناس لما يقال لهم عديدة، ومنها ما هو لفظي مباشر، ومنها ما هو غير مباشر؛ فمن المباشر الملاحظات التي قد يبديها بعض الناس حول محاضرة أو خطبة جمعة أو كتاب، والملاحظات غير المباشرة تتمثل في إقبال الناس على حضور خطبة أو شراء كتاب أو قراءة جريدة؛ حيث إن ما يلقى الاستحسان يلقى الإقبال من الناس؛ ورد الفعل غير المباشر أبلغ في الحقيقة وأصدق؛ لأنه يعبر عن رأي جماعي جماهيري، أما الملاحظات المكتوبة أو الشفوية فإنها كثيراً ما تعبر عن رأي فردي.

ويجب أن نعترف أننا لم نعمل شيئاً ذا قيمة حول التعرف على ردود فعل الجمهور، ولم نحاول قياس رأيهم ولا أخذ ملاحظاتهم مأخذ الجد مع أن من اليسير جداً وضع صندوق في كل مسجد يتولى إمام المسجد حث المصلين على وضع اقتراحاتهم وملاحظاتهم فيه، ثم يقوم بفتحه في أحد أيام الأسبوع؛ ليتعرف على كل ما يهم المصلين، وما يرغبون سماعه وفهمه منه، لكن يبدو أن الحسَّ الغالب علينا هو أن واجبنا أن نتكلم بما نراه مناسباً، وأن على الآخرين أن يسمعوا ما يلقى إليهم؛ فهم بحاجة إلى كل ما نقوله، بل إننا لم نقل بعدُ إلا بعض ما يحتاجون إليه!.

إن قلة الدراسات لدينا في مجال الاتصال ومجال علم النفس وعلم الاجتماع أدى إلى أن يكون مردود الجهود الطيبة الكثيرة المبذولة في مجالات الدعوة ـ محدوداً، بل جعل إمكانية قياس مدى التقدم الذي نحرزه ضعيفة جداً.

(٤) مخاطبة الفرد ومخاطبة المجموعات

الخطاب الذي يوجهه الداعية للناس نوعان: نوع موجه لمجموعة أو مجموعات من الناس الذين يعرفهم، أو لا يعرفهم كما هو الشأن في خطب الجمعة والمحاضرات ووسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحف ومجلات. . .

والنوع الثاني الخطاب الفردي الموجَّه لشخص بعينه، ولكل من الأسلوبين وظائفه وخصائصه وأدبياته، ولعلنا نعرض بعضاً مما يتعلق بذلك.

أولاً: الدعوة الفردية:

حين بدأ النبي ﷺ دعوته في مكة المكرمة اعتمد بشكل أساسي أسلوب الدعوة الفردية مع أنه كان يدعو في النوادي العامة إلى كلمة التوحيد ونبذ الأصنام، إلا أن التركيز الحقيقي كان على الاتصال الفردي؛ ولذا فإن الثمار في المرحلة المكية كانت محدودة، لكنها كانت على أعلى مستوى من النضج والأصالة والالتزام والحماسة. . .

ويمكن أن نذكر من ميزات الدعوة الفردية ما يلي:

أ ـ أنها سهلة الحدوث فهي لا تحتاج إلى ترتيبات كثيرة.

ب ـ يمكن أن تتم في أقسى الظروف، وطبيعة المعايشة اليومية بين الناس تساعد عليها.

جـ ـ معدومة أو قليلة التكلفة.

د ـ عابرة، تحدث في قطار أو على الرصيف أو في محل تجاري. .

هـ ـ مجالها رحب للمصارحة التامة بين الداعية والمدعو.

و ـ استخدام الخطاب المناسب للشخص المخاطب دون الحاجة إلى تلوين الخطاب وتنوع مستوياته حيث لا يوجد إلا مستمع واحد.

ز ـ إمكانية حدوث الاتصال في اتجاهين من الداعية إلى المدعو والعكس.

ح ـ معرفة الداعية المباشرة والسريعة لأثر كلامه في نفس مدعوه، وتمكنه من تغيير أسلوبه أو مضمون رسالته في الحال.

ط ـ الدعوة الفردية أفضل وسيلة للإقناع.

ي ـ التعارف بين الداعية والمدعو من خلال الدعوة الفردية يزرع الثقة بينهما، وهي تسهل انتقال الأفكار والمعلومات إلى المدعو[١].

ك ـ في المجتمعات التقليدية والمحافظة ـ كما أثبتت بعض الدراسات ـ تكون أنماط الاتصال الشخصي أكثر فاعلية، على خلاف ما هو الحال في المجتمعات المتقدمة[٢].

ل ـ في الدعوة الفردية تكون إمكانية التوضيح أكبر حيث يجد الداعية نفسه حراً في استخدام بعض الرموز الإضافية مثل التنهد والتنغيم وحركات الوجه من التبسم والتقطيب وغيرها. . .

هدف الدعوة الفردية:

الهداية هي الهدف العام لكل الأنشطة الدعوية مهما كان نوعها إلا أن الذي أثبتته دراسات علم الاتصال هو أن الاتصال الجماهيري الجماعي يؤدي ـ في حال نجاحه ـ إلى تغيير الأفكار، أما الاتصال الفردي فإنه يؤدي إلى تغيير السلوك[٣]. فالمدعو من خلال الاحتكاك بالدعاة ينفعل بهم ويقتدي بسلوكهم وسمتهم.

---

(١) الاتصال والمجتمع اليوم وغداً: ٩٧.

(٢) مفاهيم علم الاجتماع: ١٤٥.

(٣) الاتصال والمجتمع: ٩١.

وهذه النقطة تمثل تفسيراً دقيقاً لبعض جوانب تأزم للعمل الدعوي؛ حيث إن وسائل الإعلام في أكثر الدول الإسلامية ليست مهتمة بقضايا الدعوة، وهي لا تنشر الفكر الإسلامي؛ مما يجعل تأثيرها في أفكار الناس سلبياً. ويضاف إلى هذا أن الأعداد المتوفرة من الدعاة لا تفي في أكثر الأحيان بسد حاجات الدعوة الفردية التي تؤثر في سلوك الناس ـ كما أسلفنا ـ مما يعني ضعف إمكانات التأثير على مستوى الأفكار وعلى مستوى السلوك!

ثانياً: الدعوة الجماعية:

تختلف الدعوة الجماعية عن الدعوة الفردية اختلافاً واسعاً؛ فإذا كانت الدعوة الفردية سهلة الحدوث متعينة الأسلوب، فإن الدعوة الجماعية تحتاج إلى إعداد وتهيئة الظرف المناسب للإرسال والاستقبال، وأعقد ما فيها أن الداعية يقع في حيرة من أمره على أي مستوى يتحدث، والذين أمامه أخلاط وأشتات يتفاوتون تفاوتاً عظيماً؛ ففيهم الأمي وأستاذ الجامعة، كما أن فيهم المظلوم الذي يريد منك أن تتحدث عن العدل، وفيهم المحتاج الذي يريد منك أن تتحدث عن الصدقة، وفيهم وفيهم...

لكن على الرغم من هذه الصعوبات، فإن للدعوة الجماعية ميزة كبرى، هي إمكانية اختصار كثير من الجهود والأوقات، كما أن فيها تعويضاً عن النقص الحاد في أعداد الدعاة في أكثر بلدان العالم الإسلامي؛ فبسبب ثورة الاتصالات اليوم صار بإمكان الشخص اليوم أن يخاطب مئات الملايين في وقت واحد لكن المشكلة ـ كما ذكرنا ـ أن وسائل الإعلام الجبارة ليست في يد الدعاة، بل وليس منها في العالم الإسلامي إلا القليل!.

ويمكن أن نذكر مما يتعلق بالدعوة الجماعية ما يلي:

أ ـ علينا أن ندرك أن الخلفيات الثقافية لمستمعينا مختلفة، كما أن مشكلاتهم متنوعة، وهم قد ينتسبون إلى أعراق وقبائل وأحزاب شتى، وهذا يجعلنا نعمد إلى أن نأخذ مسافات عن كل ذلك، ونحاول طرق القضايا العامة؛ حتى لا نترك أي انطباع لدى السامعين بالتحيز أو التدخل في بعض الخصوصيات.

ب ـ محاولة اختيار الأسلوب الأبسط في خطب الجمعة والمحاضرات والندوات العامة التي يحضرها مستويات مختلفة؛ فالضعيف دائماً أمير الركب.

جـ ـ التقليل من الوعظ والإرشاد، والتركيز على ذكر الأحكام الفقهية حيث إن الجهل بأحكام الشريعة الغراء هو القاسم المشترك بين أكثر المسلمين.

د ـ ربط الناس بالتاريخ الإسلامي، وإبراز الدور الذي قامت به الحضارة الإسلامية في تقدم البشرية.

هـ ـ التوازن في الترغيب والترهيب؛ فلا يوقع الناس في اليأس والقنوط، ولا هو يسهل لهم دخول الجنة أو الخلاص من الهزائم والنكسات الحضارية، فيطمع الناس في الحصول على ذلك دون جهد ودون ثمن.

و ـ إرضاء الناس غاية لا تدرك، ولا تعدم الحسناء ذاماً، وسيظل من الناس من لا يعجبه شيء، ولا يرتاح لبروز أحد؛ ومن ثم فالعبرة بموقف السواد الأعظم من السامعين.

ز ـ الدعوة الجماعية لا تربي، وهي ضعيفة التأثير في تغيير السلوك، ومن ثم فإن من الواجب أن تُكمَّل من خلال عمل المحاضن الأسرية والدعوة الفردية.



(٥) وسائل البلاغ المبين

إن الأسباب التي يمكن أن تساعد على الهداية، وكذلك الوسائل أكثر من أن تدخل تحت عد أو حصر؛ فنور الهداية ينقدح في قلوب كثيرين نتيجة أسباب لا تخطر على بال أحد؛ فكم من رجل كانت بداية تعرفه على الإسلام؛ لأنه سمع من يذم الإسلام ويقدح فيه، وكم من رجل أحب الإسلام؛ لأنه رأى مسلماً يُظلم، فوقف لمناصرته، وكانت بدايته مع طريق النور... وكم من شاب تسبب في هداية أسرة؛ لأنه قام بتقديم خدمة لها...

إن التأزم الراهن للعالم والحيرة التي تلفه والوحشية التي تجتاحه، كل ذلك جنود خفية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] تدفع بالناس دفعاً إلى ارتياد طريق الهداية والخير. ورب كلمة عابرة فعلت في أقوام ما لم تفعله إذاعة موجَّهة أو جريدة سيارة أو خطيب مفوَّه! هذا وإن كان لا يغني عن التخطيط لامتلاك الوسائل الدعوية لكنه في الوقت نفسه يحفزنا على ألا نزهد في أية كلمة حق، نقولها أو نكتبها.

عصرنا الذي نعيش فيه هو عصر الاتصال، والتنامي المذهل في وسائل الإعلام، وما استحدث من البث المباشر وشبكات الحاسب الآلي - جعل العالم بمثابة قرية صغيرة، وصار كل جزء منه مرآة للأجزاء الأخرى، وأدى ذلك إلى هجمة المعايير والأفكار والعادات والتقاليد التي تنتجها، وتتمسك بها الدول والشعوب التي تقود التقدم، وقد مثَّل هذا تحدياً سافراً وكبيراً لكل

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

المصلحين والدعاة الذين يسعون إلى بث مفاهيم ومعايير وأنماط سلوك مغايرة لما هو سائد في الغرب.

وقد دلت بعض الدراسات أن وسائل الإعلام تساهم في بناء نحو من ٧٠٪ من الصور الذهنية عن العالم من حولنا[١].

كما دلت دراسات أخرى حول مدى التأثير الذي تحدثه أنماط الاتصال المختلفة على ما يلي: تحتل المحادثة الشخصية المرتبة الأولى في التأثير يليها بعد ذلك المناقشة الجماعية، ثم الاجتماعات غير الرسمية ثم الهاتف ثم الاجتماعات الرسمية ثم الأفلام الناطقة ثم التلفاز ثم الإذاعة ثم التلغراف ثم الرسالة الشخصية ثم الصحافة ثم الملصقات ثم الكتب[٢].

ومشكلة المحادثة الشخصية ـ وهي الوسيلة الأعمق تأثيراً ـ وما يجانسها من أنواع الاتصال الشخصي والشفوي أنها تتطلب أعداداً كبيرة من الدعاة، وأوقاتاً أوسع، وهذا ما نجده عزيزاً في الأوساط الدعوية.

وسائل الاتصال الكبرى ومراكز الإنتاج (السينمائي) الضخمة ووسائل البث المباشر التي تطرق الأبواب على مدار الساعة. . . كل ذلك موجود ومملوك للدول المتقدمة. والذين يستقبلون ذلك عندنا هم في كثير من الأحيان الأثرياء وكبار المثقفين ثقافة غربية؛ وهذا أوجد لدينا نوعاً من الطبقية الثقافية أو نوعاً من الشقاق الثقافي الذي يُعد أساساً لكل بلاء!!.

إن بإمكاننا أن نشكو كثيراً من التخلف في وسائل الدعوة المختلفة، لكن ذلك لن يفيد شيئاً؛ وعلينا أن ندرك أن الأمة تعاني من مشكلات في كل صعيد من الأصعدة، وأنه لا ينبغي لنا أن نتوقع تقدماً فذاً في مجال وسائل الإعلام الإسلامي على حين أننا عاجزون عن صناعة القلم والورقة والإبرة والخيط. . .!

---

(١) الصورة الذهنية: ٤٧.

(٢) السابق: ٤٨.

إن الأمة حين تأخذ في التقهقر تكون بمنزلة السفينة التي تغوص كل أجزائها في آنٍ واحد، كما أن التقدم على أي صعيد سوف يؤثر إيجابياً على باقي الأصعدة، وهكذا. . .

ولعلنا نتحدث هنا عن بعض الأفكار والرؤى التي تساعد على النهوض بالوسائل الدعوية عامة وخطبة الجمعة خاصة باعتبارها الوسيلة المجانية والمتاحة في كل مكان من عالم الإسلام.

أولاً: الوسائل الإعلامية العامة:

الوسيلة: هي الأداة التي نستخدمها في إيصال أفكارنا ومشاعرنا إلى الآخرين[1].

ونحن هنا لا نتحدث عن الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى الإصلاح أو تحسين حال الناس، وإنما نتحدث عن الوسائل التي تساعدنا على جعل بلاغنا مبيناً واضحاً مبرئاً للذمة أمام الله ـ تبارك وتعالى ـ.

لا بد من القول ابتداء إن المنهج الذي نؤمن به يمكن إيصاله إلى الناس بأساليب شتى، وإن كل أسلوب يستخدم وسائل متعددة، والمنهج الكامل الواضح في الأذهان هو ذلك المنهج الذي يتيح لأصحابه أن يستخدموا شتى الأساليب التي تؤدي إلى ذيوعه وانتشاره، والتي تنسجم معه روحاً ونصاً وقالباً.

كما أن كفاءة أية وسيلة من الوسائل الدعوية تتوقف على أمرين:

الأول: هو حكمة مستخدمها؛ فمن الممكن لجريدة من الجرائد أن تساعد بشكل فعال على قلب كيان مجتمع؛ لأن القائمين عليها يتقنون عملية الاتصال بالناس، ويعرفون على نحو جيد ماذا يريدون. وقد يكون لدينا جريدة أخرى تملك نفس الإمكانات التي تملكها الجريدة الناجحة، لكنها

---

(١) انظر كلاماً مستفيضاً حول الوسيلة وضوابطها في المدخل إلى علم الدعوة: ٢٨٢ وما بعدها.

أشبه بسلاح فتاك بيد إنسان لا يعرف عن استخدامه شيئاً؛ بل قد يستخدمه بطريقة مدمرة!.

الثاني: الأسلوب الذي يتبع في استخدام الوسيلة والاستفادة منها، وكم رأينا إذاعات أثارت حماسة المواطنين لخدمة شعوبهم وبلادهم، واستطاعت أن تنفث في الناس روحاً جديدة؛ لأنها اعتمدت الصدق والنزاهة والموضوعية، وصادفت هامشاً من الحرية مكنها من ممارسة النقد والمحاسبة وتسليط الأضواء على المشكلات والأزمات التي يعاني منها المجتمع...

كما أننا شاهدنا الكثير الكثير من الإذاعات التي بذرت في نفوس الناس اليأس من صلاح الأحوال والزهد في خدمة الأوطان، والالتفاف حول المصالح الشخصية، بما انتهجته من جعل الأبيض أسود والأسود أبيض، وبما بثته من قيم فاسدة خارجة عن معتقدات المجتمع ومبادئه الأساسية!!.

وهذه بعض الأفكار التي تتصل بالنهوض بالوسائل الدعوية العامة:

١ ـ عصرنا هذا عصر الكبار والعمالقة، وعلاقة المؤسسات والأنشطة مع بعضها بعضاً تشبه علاقة الأسماك الكبيرة بالأسماك الصغيرة! فالطبيعة التنافسية التي أطلقتها الرأسمالية، والطبيعة الأكثر اقتصاداً للأعمال الكبرى أفرزتا هذه الوضعية.

ونظراً للقدرة المالية الضخمة في الغرب بالإضافة إلى التقدم التقني الذي عنده، فإنه استطاع أن يجعل دول العالم الثالث ـ ومنها العالم الإسلامي ـ في حالة من التبعية الإعلامية؛ فوكالات الأنباء التي توزع الأخبار موجودة في بلاده؛ حتى إن سكان القطر الواحد يتلقفون أخبار المدن المجاورة لهم عن طريق وكالات الأنباء الغربية!!.

بداية التصحيح لأي وضع خاطئ تولد عند إدراك المطلوب عمله، والعالم الإسلامي لا يملك الأموال ولا التقنيات الموجودة في الغرب، لكن مشكلته الكبرى ليست ذلك، وإنما إدراك أهمية الاستثمار في المجال الإعلامي. كان اليهود قد رفعوا في القرن الماضي شعاراً يقول: «من يملك

الذهب يملك العالم». أما الشعار اليوم فهو: «من يملك الإعلام يملك العالم». فالإعلام اليوم لا يقتصر على مهمة نقل الأخبار بين الدول، وإنما يقوم ـ من خلال الاستحواذ الكامل على أوقات الناس، ومن خلال جذبهم إليه ـ بصياغة البنية العقلية والثقافية للناس إلى جانب توجيه الرغبات وإيجاد رغبات استهلاكية جديدة؛ بل إنه بدأ يشكل الذائقة الجمالية للناس. . . وهو وإن تحاشى في بعض الأحيان التعرض للقضايا العقدية وقضايا الحلال والحرام إلا أنه كوَّن المحيط والمناخ الذي سيكيف عقائد الناس ومبادئهم العليا، والذي سيوجه سلوكهم. . .

المطلوب اليوم التوجه إلى إنشاء المؤسسات الإعلامية الكبرى المتعددة الجنسيات. والدعاة إذا كانوا لا يملكون المال الكافي، فإنهم يملكون تحريض أهل الخير من الأثرياء؛ ليوجهوا استثماراتهم نحو الوسائل الإعلامية، كما أنهم يستطيعون تجميع أموال كثيرة عن طريق إنشاء الشركات المساهمة التي تقوم بتمويل محطات الإذاعة والتلفاز والمجلات والجرائد. نحن نعلم أن هناك ظروفاً صعبة قانونية ونظامية وسياسية تحيط بهذه القضية، إلا أنه سيظل هناك إمكانات عديدة في دول كثيرة لقيام مثل هذه الأنشطة، وقد رأينا تجارب عدة ناجحة في تركيا ولبنان وأوربا وأمريكا وأفريقيا. . . لكن المشكلة دائماً كانت ضعف الإمكانات. وضعف الإمكانات يعود ليس إلى قلة وجودها وإنما إلى أن نظرة أثرياء المسلمين إلى العمل الإعلامي ما زالت متخلفة، وما زال الاهتمام بإنشاء الأنشطة الإعلامية يحتل أدنى درجة في سلم الأولويات الذي يشتمل على بناء المساجد والمدارس وبناء الملاجىء وإطعام الجائعين. . . وما درى أولئك أننا عن طريق وسائل الإعلام النشطة نستطيع أن ننشِّط كل أعمال الخير، كما أننا نستطيع أن نقيم الجسور المهدَّمة بين أهل الثراء وبين مستحقي أموالهم.

أنا أعرف أن أي عمل إعلامي ستنشأ حوله ملاحظات شرعية في المقام الأول، ثم ملاحظات موضوعية وفنية في المقام الثاني، وأعلم أن كثيراً من الأعمال الإعلامية سيحتاج إلى تكييف شرعي واجتهاد وشيء من المرونة،

لكن ذلك لا يدرك أكثره إلا عن طريق العمل؛ فهو يُكتشف اكتشافاً، ولا يبنى نموذجه الأمثل في فراغ، المهم ألا نقتل الوقت في التنظير أو في طلب الإجماع في قضايا تأباه طبيعتها.

إن كثيراً من الدعاة يملكون أموالاً، ويقومون باستثمارها في مجالات النقل أو الغذاء أو العقار؛ وقلما فكروا في استثمارها في مجال يدر الربح ويخدم الدعوة في آن واحد.

٢ ـ يعاني العمل الدعوي في كثير من المجتمعات الإسلامية من قلة الوسائل الإعلامية المستخدمة أو المتاحة، وفي كثير من الأحيان لا يتاح إلا خطبة الجمعة وبشكل محدود ومقنَّن، وهذه القلة تعود إلى عاملين: الأول هو ضعف الإمكانات وقلة القادرين على توظيف الموجود منها. والثاني هو فقر الخيال اللازم لبناء المجال الحيوي المطلوب لجعل التدين والالتزام ثقافة للناس.

وفي هذا الصدد يمكن القول: إن هناك أنشطة كثيرة ووسائل إعلامية متاحة يمكن الاستفادة منها إذا نحن قررنا فعلاً تهيئة المناخ المساعد على نجاح الأعمال الدعوية؛ إذ بالإمكان استخدام الملصقات والإعلانات في الصحف واللوحات و(اليافطات) والهاتف ومحطات الإذاعة والتلفاز وإقامة (المهرجانات) في المناسبات المختلفة... في بث الأفكار التي تحارب الرذيلة، وتؤكد الترابط الاجتماعي من أمثال الحث على إقامة الصلاة والحرص على صلاة الجماعة وصلة الرحم والقرض الحسن وكفالة الأيتام ومناصرة المظلوم والحرص على لقمة الحلال والاقتصاد في استهلاك الماء والكهرباء والمحافظة على البيئة وتشييد المرافق العامة والمحافظة عليها وغير هذا كثير كثير، مما يساهم في بناء المجتمع الفاضل والأمة الملتزمة. إن جعل هذه المسائل حاضرة في حسّ الناس من صُلب العمل الدعوي، وهو مهمل في أكثر الأحيان!.

٣ ـ يمكن القول: إنه في العقدين الأخيرين تكاثفت الكتابات الإسلامية في المجال الحضاري بشكل عام، ومنه المجال الفكري والتنظيري، واتجهت

بعض الكتابات نحو استخدام الرؤية الفلسفية العميقة في محاولات تصور الواقع ـ المشتبك المعقد ـ وفي طرح الحلول له، وبدأ العديد من كتابنا يشعر بأن كثيراً من القراء والمستمعين لا يستطيعون استيعاب ما يُطرح إما لضعف خلفيتهم الثقافية، وإما لضعف القابلية العقلية لديهم في معاناة فهم الأمور الدقيقة. ولا يجوز بقاء تلك الهوة الشاسعة بين مفكري الأمة وجمهورها؛ ولعل تجسير تلك العلاقة يتم عن طريق تكثيف استخدام الوسائل الدعوية في هذا المجال، إذ يمكن لكاتب قصة قصيرة ـ مثلاً ـ أن يعبر عن قضية السنن الربانية وصرامتها أو يعبر عن مسألة تعقد الواقع وصعوبة الاستحواذ عليه، كما يمكن لكاتب مسلسلة إذاعية أن ينهل من التراث المادة التي تمكّنه من تصوير بعض المشكلات والأزمات التي تعرضت لها الأمة، وكيفية مواجهتها لها ورؤيتنا نحن لأسباب تلك الأزمات ولعمليات المواجهة. ويمكن لكاتب مسرحية أن يصور عمليات السلب والنهب وأشكال التآمر التي تعرض لها العالم الإسلامي في العصر الحديث على يد (الاستعمار)؛ لتعلم الأجيال بعضاً من أسباب مآسينا، وبعضاً من أخلاقيات أدعياء الرقي والتحضر. . . !

وقد شاهدنا بعض المسرحيات التي قام بتأليفها وإخراجها وتمثيلها بعض طلاب الجامعات، وقد تركت تلك المسرحيات أطيب الأثر في نفوس المشاهدين، ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن بعضها قد ترك من الانطباعات، وغرس من الأفكار ما لا يقوم به كتاب كامل بل كتب!.

ويوجد ثمة مجال رحب جداً لتبسيط الأفكار وكتابتها بأسلوب ميسر، وذلك هو مجال الكتابة للطفل؛ إذ يمكن من خلال قصص الأطفال غرس مبادئ التفكير المنطقي والشعور بالمسافات وبالزمان والتعريف بإشراطات العصر الحديث وأدبيات الفاعلية الحضارية المطلوبة. . .

إن المسرح و(السينما) والتلفاز والإذاعة والروايات والقصص أدوات ممتازة لتبسيط الفكر الراقي المعقَّد إذا وجد الاهتمام أولاً، وإذا وجدت الطبقة المتوسطة من المثقفين الذين يمثلون حلقة الوصل بين ذوي الثقافات العليا وذوي الثقافة الشعبية ثانياً.

والذي دعانا إلى هذا ما نعتقده من أن مبدعي الأفكار النقدية والبناءة لا يستطيعون ـ في كثير من الأحيان ـ القيام بتبسيط أفكارهم؛ فذاك في نظر كثير منهم لا يقل في مشقته عن تكليف أستاذ الجامعة بتدريس طالب في الابتدائي؛ كما أن من غير الصواب شغل كبار المفكرين بتعميم أفكارهم على الناس؛ ففي ذلك من قتل الوقت الكثير، إلى جانب الانصراف عن الأهم إلى المهم. والنظرة الموضوعية تقتضي مساعدة المبدعين على الإنتاج وإعفاءهم من كثير من تكاليف الحياة اليومية؛ حتى تنعم الأمة بثمار عبقريتهم...

ثانياً: خطبة الجمعة:

هل هناك شيء أعون للداعية على أداء واجبه وتبليغ رسالته من أن يشعر الناس بوجوب التوجه إلى المساجد في كل يوم جمعة؛ ليسمعوا من دعاتهم وعلمائهم ما يبصرهم في أمور دينهم ودنياهم؟ وهل هناك فرصة أعظم لتوحيد المفاهيم من أن يلتقي أهل البلدة أو أهل الحي الواحد؛ ليسمعوا بعض الأحكام أو الأفكار أو الملاحظات التي تكوِّن لديهم عقلية واحدة، وثقافة واحدة ومشاعر واحدة، وبالتالي مواقف مما يتفاعل على مسرح الحياة موحَّدة؟!.

هذه هي الفرصة العظيمة التي تتيحها خطبة الجمعة. لكن الأمر ـ كما نقول دائماً ـ أن الأمة حين تكون في حالة تخلف أو ركود فإن انتفاعها بمبادئها والإمكانات المتاحة لها يكون محدوداً أو معدوماً، وهذا ما نلاحظه بالنسبة لخطبة الجمعة. ونحن في البداية نقول: لنا أن نتصور سوء الوضع فيما لو لم يكن عندنا شيء اسمه: صلاة الجمعة؛ لا ريب أن الجهل سيكون أعظم والوعي أقل والترابط بين أهل الحي الواحد أضعف؛ لكن الذي يتوجع منه المسلم أن الأطنان من الورق التي تكتب عليها خطب الجمعة أسبوعياً لم تحقق إلا جزءاً يسيراً مما هو ممكن، ومما هو مرجو!!.

وهذه بعض الأفكار التي نظن أنها تساعد على أداء خطبة الجمعة لوظيفتها على وجه مقبول:

١ ـ الخطيب الجيد هو قارئ جيد:

يعرض الخطيب في كل أسبوع عقله وثقافته على الناس؛ ووسائل الإعلام أتاحت للناس اليوم قدراً كبيراً من المعلومات المتناثرة الجديدة، والتي تنتمي إلى الحقول المعرفية المختلفة. وهذا يمثل تحدياً لخطباء الجمعة الذين ركنوا إلى معلومات وإحصاءات قديمة عن واقعنا المعاصر، وإلى الذين اعتادوا أن يرددوا بعض الأمثلة والنماذج حول أمجادنا التاريخية أو حول مشكلاتنا ومشكلات الغرب مما نسخه الجديد، أو كثر تكراره، فصار مملولاً، أو مما صار مرفوضاً من قبل البنية العقلية والثقافية الجديدة.

والخطيب الناجح هو الذي يتابع الجديد متابعة جادة، ليشعر الناس بأنه متابع لما يجري على الساحة، ومتخذ أيضاً موقفاً منه.

لكن المهمة الأخطر التي على الداعية أن يقوم بها هي الاستفادة من المعلومات الجديدة في صياغة خطابه ومنحه المزيد من المنطقية والمنهجية والواقعية.

إن انفجار المعلومات وثورة الاتصالات أتاحا كماً هائلاً من الأخبار والمقولات، لكن الذي علينا نحن أن نقوم به هو تنظيم هذه المعلومات ودمجها ضمن طرحنا الفكري والدعوي، وتوظيفها لتعزيز الرؤية الإسلامية للحياة بطريقة متسقة وغير متعسفة.

٢ ـ الإيجاز:

بعض الخطباء يرى أن مشاغل الدنيا الكثيرة صرفت الناس عن تعلم العلم وسماع المواعظ، وكثير منهم يصلي في بيته، ولم يبق مجال لإسماعهم ما ينبغي أن يسمعوه إلا خطبة الجمعة؛ ومن ثم فإنه ينبغي اهتبال هذه الفرصة لإيصال كل ما نرغب في إيصاله إليهم، ولذا فإنه يعالج موضوعاً معيناً ثم يصير إلى التنبيه على كل القضايا التي جدّت خلال الأسبوع. . . .

والذي نريد أن نقوله: إن كون حضور صلاة الجمعة فرضاً قد يوحي لبعض المصلين أن الخطيب يستغل ذلك، ويلزمهم بسماع ما لا يجدون رغبة

في سماعه؛ مما يوجد بينه وبينهم حاجزاً نفسياً يصرفهم عن سماعه.

وقد ثبت من خلال بعض الدراسات أن العقل البشري لا يستطيع أن يتابع ما يلقى عليه بكفاءة أكثر من خمس عشرة دقيقة، ثم يتسرب إليه الكلال. وهذا يعني أن الحرص على إسماع الناس الكثير سيكون غير ذي فائدة.

الارتجال سبب أساسي في التطويل، حيث يصير الخطيب إلى الإفاضة في الشرح وذكر ما يعنُّ له من قصص وحوادث، كما أن المرتجل يصعب عليه تقدير ما يحتاجه موضوعه من الوقت.

ويحدث في بعض الأحيان أن يجد الخطيب بعض الشخصيات رفيعة المستوى مشدودة إليه؛ فيغريه ذلك بالإطناب ونسيان باقي المستمعين من المصلين!

وقلة الاهتمام بتحضير الخطبة عامل آخر في الإطالة؛ ويذكرون في هذا الصدد أن أحد الجنرالات أرسل رسالة مطولة إلى بعض مرؤوسيه، وقد اعتذر في آخرها لأنه لم يجد الوقت لكتابتها بطريقة موجزة!!

وعلى كل حال فإن من الممكن للخطيب أن يعقد مجلساً قصيراً بعد صلاة الجمعة يشرح فيه ما يرى ضرورة شرحه للناس. وعدد الحضور سوف يكشف عن صحة ظنه!. يحدث في حالات نادرة أن يكون الخطيب متميزاً جداً مما يجعل الحاضرين في مسجده من سوية خاصة، ويقدمون إليه من أماكن شتى؛ ولا ريب أن هذه الوضعية لها خصوصيتها لكن مع هذا فإن الاقتصاد يظل أمراً مطلوباً.

وهديه ﷺ في خطبه وكلامه عامة كان إيثار الإيجاز على التطويل. ولو أراد العادُّ أن يعد كلامه لاستطاع، وربما أعاد الكلمة مراراً حتى تعقل عنه.

٣ ـ ما بين الارتجال والقراءة:

للداعين إلى الارتجال حججهم البيِّنة، كما أن للخطبة المكتوبة أيضاً أنصارها. والحقيقة أن لكل منهما ميزاته التي لا تنكر. وقد ساد بين الناس

نوع من النظرة الدونية للذين يكتبون ما يقولونه على المنابر، وربما كان ذلك لوجود احتمال أن تكون الخطبة منسوخة من كتاب، أو تكون من كتابة أحد أصدقاء الخطيب.

إن الارتجال يدل ولا ريب على عدد من القدرات الذهنية والكلامية؛ لكن من الصعب على الخطيب مهما كان بارعاً أن يسلسل أفكاره، ويسوق شواهده على النحو الذي يكون ممكناً في حالة الخطبة المكتوبة. وربما تكون محفوظات الخطيب من الشواهد والنصوص محدودة مما يدفعه إلى الإقلال منها، ويكون بذلك قد حرم مستمعيه من بركة سماع الآيات والأحاديث التي تعد ماء الخطبة ورواءها، كما أن ذلك يخفِّض من درجة الوثوق بما يقوله؛ حيث إنه كلام عقلي طبيعي يحتمل الصواب والخطأ.

فإذا كان الخطيب مصراً على الارتجال فليكتب إذن قبل يوم الجمعة كل ما يريد قوله، ويحاول ترديده مرات عديدة حتى يطمئن إلى قدرته على ارتجال ذلك دون خلل.

لعل المذهب الوسط والأكثر قبولاً في هذه المسألة هو أن يمسك الخطيب بورقة صغيرة في يده، فيها رؤوس تقسيمات الموضوع إلى جانب بعض النصوص التي يريد إيرادها، وكذلك الأرقام الدقيقة التي سيدعم بها قوله، إلى جانب ما قد يكون لديه من ملاحظات وتنبيهات يود لفت نظر المصلين إليها. وبذلك يكون قد أمسك بخطام موضوعه، وسيطر على مفاصله إلى جانب التمكن من النظر في وجوه المصلين، وتمكين عيون المصلين من الالتقاء بعينه؛ وهذه ميزة كبرى؛ إذ إن العيون تقوم بمهمة تنظيم التفاعل الداخلي بين المتكلم وسامعيه، كما أنها تعطي للمعاني الملقاة بعداً جديداً إضافياً يزيدها وضوحاً وبياناً.

٤ ـ الكتب المؤلَّفة في خطب الجمعة:

نظراً لتفاوت أوضاع الخطباء وقدراتهم على الكلام ومخاطبة الناس، ونظراً إلى أن الجهل قد يكون متفشياً، فلا يوجد من يقوم بخطبة الجمعة فقد

وجد منذ قرون كثيرة من يقوم بتأليف خطب منبرية على عدد جُمَع السنة من أجل إسعاف بعض الخطباء بها. وهذا ولا شك أمر مطلوب ومفيد؛ لكن المشكلة سوء استخدام هذه الكتب؛ فالمؤلف يركز عادة على الموضوعات التي تهم البيئة التي ينتمي إليها؛ فقد يركز ـ مثلاً ـ على أكل (الربا) فيأتي خطيب فيلقي الموضوع على أسماع أهل قرية لم يسمعوا بالبنوك، ولا تعاملوا معها[1] . . .

كما أن المؤلف قد يعتمد مستوى من اللغة فيأتي خطيب، ويأخذ خطبة من الكتاب، ويلقيها في مسجد، مرتادوه من العامة وأشباههم وهكذا. . .

لعل الأنسب من كتاب يشتمل على عدد من الخطب الجاهزة على عدد أسابيع السنة هو أن تؤلف كتب تضم معلومات منظمة تخدم خطباء الجمعة في مجالات العقائد والعبادات والفكر والاجتماع والاقتصاد والثقافة والتربية والحوادث التاريخية وما شابه ذلك، مما يشكل المادة الخام التي يمكن لكل خطيب أن يأخذ منها حاجته، ثم يقوم هو بصياغة ذلك بأسلوبه الخاص وبحسب مستوى المصلين لديه.

٥ ـ خطبة لمداواة الجراح:

الحضارة الحديثة جعلت كلَّ شيء آنياً، وشغلت الناس بهمومهم اليومية وهذه الهموم أشكال وألوان، وهي في تزايد مستمر. ولا ريب أن بعض هذه الهموم سببه البعد عن الله ـ جل وعلا ـ ونسيان الدار الآخرة، كما أن سبب بعضها الحرص والطمع. . . لكن ذلك لا يغير من حقيقة أن المشغول لا يُشغل، ومن ثم فإن من العسير على كثير من الناس أن يعقل عن الدعاة أحاديثهم عن المبادئ والمثل والأخلاق والالتزام والتربية. . . وهم غارقون في هم العيش والرقي الاجتماعي والتحرر من الذل والتبعية وهمّ إيجاد مدرسة للأولاد. . .

---

(١) إن الأمر قد يتجاوز ذلك، فقد أخبرني بعض الأصدقاء أنهم صلوا في إحدى القرى فوجدوا الخطيب يدعو لأحد خلفاء بني العباس بالنصر والتمكين!! وما ذلك إلا لأن الكتاب ألف في زمان العباسيين.

ليس المطلوب من خطيب الجمعة أن يحل هذه المشكلات؛ فذاك شيء أكبر من طاقة الخطيب، لكن المطلوب منه شيئان:

الأول: أن يحاول أن يبثَّ في نفوس المصلين نوعاً من الاستعلاء على الصغائر من خلال ربطهم بالله تعالى وتذكر الموت والتوجه إلى معالي الأمور واتباع البناء المتدرج....

الثاني: تصور تسلسل منطقي لأسباب معاناة الناس وترتيبها في الذهن ومحاولة إبرازها؛ حيث إن لدى الناس جهلاً عظيماً في فهم أسباب شقائهم، ومن باب أولى في العلاقة المنطقية التي تربط بين تلك المشكلات؛ كما أن لديهم قدرة عظيمة على التكيف مع تلك المشكلات؛ فهم لا يعرفون أن الجهل والفوضى والكسل والعجلة وسوء التقدير هي الأمهات الكبرى لكل أشكال المعاناة. وما لم يحسِّن الإنسان من سجله في هذه القضايا أو بعضها على الأقل، فسيظل يتخبط دون أن يعرف فكاكاً مما هو فيه!.

ونقول من وجه آخر هل من الحكمة ـ مهما كان الظرف ـ أن نتحدث عن آداب الطعام أو فوائد السواك... والسامعون على جهل بعقيدة التوحيد أو كيفية الغسل الصحيح....؟ وهل من المفيد أن ننفخ روح العزة والإباء فيمن يعيش على ناصية الشارع، وفيمن يتسول لقمة العيش، ومن لا يجد عملاً إلا بأقسى الشروط...؟.

إن نباهة الداعية وثقافته المتميزة كفيلتان بتعريفه على استخدام الكلمة المناسبة للسامعين. إن وظيفة خطبة الجمعة هي الإرشاد إلى مقاطع الحق، ومداواة جراح الناس بالتهوين منها تارة، وبإعادة تفسيرها تارة، وبزرع بعض الأمل تارة، وبتقديم بعض العلاج تارة أخرى.

إن تعرف الداعية على طبيعة الأشياء ومنطقها، وتعرفه على محورية المشكلات وهامشيتها في حس الناس وشعورهم سوف يساعدانه على تقدير الموقف الصحيح من أزمات سامعيه.



المقدّمة الخامسة

في علاقات الدّاعية

١ ـ علاقات الداعية.

٢ ـ علاقات الدعاة بعضهم ببعض.

٣ ـ علاقات الدعاة بالحكام.

(١) علاقات الداعية

العلاقات التي يقيمها الناس بعضهم مع بعض تنقسم إلى قسمين: علاقات قهرية، تفرضها ظروف خارجة عن إرادتهم كالعلاقات بين الأرحام والجيران وزملاء العمل. . . وعلاقات اختيارية كتلك التي تتم بين الأصدقاء والشركاء. ودلالة العلاقات الأولى على شخصية المرء هامشية؛ إذ قد يكون الأب صالحاً، ولا يكون الابن أو الأخ كذلك. أما العلاقات ذات الدلالات الكبرى فهي العلاقات الاختيارية.

التعقيد الموجود في عصرنا هذا، وسعة العلاقات التي على المرء أن يقيمها أديا إلى إيجاد بدائل واختيارات كثيرة لم تكن موجودة من قبل، ويمكن القول: إن العلاقات هي فنُّ التوازنات، وإن كل علاقة يقيمها الداعية مع غيره هي انعكاس لوعيه ومبادئه ومصالح دعوته، ويمكن جعل سعة العلاقات الناجحة التي يقيمها الداعية مقياساً على نجاحه الدعوي وعلى نشاطه وعطائه وحركته، كما أنها دليل على قدرة الداعية على تمثل واقع الآخرين واستيعابه ثم التحرك في إطاره.

ولا نريد هنا أن نتحدث عن كل العلاقات التي يبنيها الدعاة مع الآخرين؛ فذاك حديث يطول، وقد كتب فيه الكثير؛ لكن الذي نريد أن نشير إلى بعض قضاياه وعقابيله هو علاقات الدعاة بعضهم مع بعض وعلاقات الدعاة بالحكام، وهذه العلاقات مهمة ومؤثرة في نجاح الداعية في مهمته التي ندب نفسه إليها.



(٢) علاقات الدعاة بعضهم ببعض

لا يكون الخلاف بين علماء أهل السنة والجماعة في الأصول ـ غالباً ـ، وإنما في الفروع، ومن ثم فإن هناك أرضاً مشتركة فسيحة يلتقي فيها على المستوى النظري والفكري جميع العاملين في الحقل الدعوي. لكن هذا الذي نقوله يتحقق حين يكون العاملون في ساحة دعوية واحدة في أحسن حالاتهم الفكرية والمزاجية، وفي حالة العافية من الأهواء والشهوات وضغط المصالح الخاصة والرؤى الجزئية. وهذا من حيث النظر ممكن، لكن على الصعيد العملي الواقعي فالأمر أعقد مما نظن؛ فعلى الرغم مما نقوله من وحدة الأصول والالتقاء في الهدف الأكبر، ووحدة المصير، والتحديات المشتركة إلا أن هناك من العوامل والظروف ما يمكن أن يؤدي إلى تحويل الساحة الدعوية إلى ساحة حرب أهلية!.

من ذلك اعتقاد بعض الدعاة ضرورة استحواذ الأفضل على الساحة وطرد المفضول منها. ومن ذلك ظن بعض الدعاة أن الخلاف الذي بينهم وبين بعض منافسيهم خلاف في الأصول لا في الفروع. ومن ذلك أيضاً نظر الداعية إلى أسلوب ووسائل غيره من الدعاة على أنها غير مشروعة، أو على أنها مجلبة للخراب والهدم..

ومنها الشكوك والظنون المتبادلة حول النزاهة والاستقامة والإخلاص.. ويزيد الطين بلة أن هناك من الخصوم والمنافسين من خارج الساحة الدعوية من يبذر الشك، ويضع بعض الدعاة في ظروف لا تدعو إلى الاطمئنان أو حسن الظن.

يضاف إلى كل ذلك رواسب الخلافات العائلية والقبلية والنقد الجارح

والتفاوت في العادات والتربية والأمزجة والحساسيات النفسية، وما إلى ذلك مما يشكل خلفيات غير مرئية وبنى عميقة لكثير من الخلافات التي تبدو خلافات لمصلحة الدعوة، وهي منها براء!.

ولعلنا نذكر في النقاط التالية بعض السمات والتصرفات التي تساعد على تحسين العلاقات بين الدعاة، وتخفيف التوتر بينهم:

١ ـ حاول أن ترسل رسالة طيبة كلما سنحت الفرصة:

حاجة الإنسان إلى تشجيع الآخرين واهتمامهم به حاجة متجذرة في التراث الثقافي ـ وربما الجيني ـ للبشرية؛ ومن الضروري لتشييد العلاقات الأخوية أن يحاول كل واحد منا استغلال أية مناسبة ليثبت لأخيه أنه مهتم به متضامن معه قادر على أن يساعده على بعض لأواء الحياة؛ كما أنه راغب في أن يشاركه أفراحه، ويجعل الفرحة فرحتين...

من المؤسف أننا نستخف بأشياء كثيرة، وهي في عين الآخرين مهمة وذات شأن، أي أننا لا نملك الحساسية الكافية لفهم أبعاد الموقف الشعوري للآخرين تجاه أحداث حياتهم الخاصة وتجاه موقفنا منها. إن ابتداء الأخ بالسلام شيء مرمَّز اجتماعياً وعرفياً، وقل نحو ذلك في الاستفسار عن صحته بالهاتف أو بزيارة شخصية؛ ومثل ذلك عرض خدمة عليه في مناسبة سعيدة أو إرسال باقة ورد ـ مثلاً ـ أو السؤال عن ابنه الذي يدرس خارج البلاد أو الثناء على محاضرة ألقاها، يشعر بالفائدة منها... مما لا يمكن حصره. وفي حديث مسلم: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق». وفي الحديث الذي أخرجه الشيخان: «يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرْسنَ شاة»[١].

وحين وفد كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ بعد أن أنزل الله توبته على الثلاثة الذين خُلِّفوا كان الصحابة قد تحلقوا حوله في

---

(١) أي لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها ولو كان ما لديها قليلاً. والفرسن من الشاة كالحافر من الدابة.

المسجد، قام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحه، وهنأه بتوبة الله عليه، فُسرَّ بذلك كعب سروراً عظيماً، وقال: والله ما قام رجل من المهاجرين غيره؛ فكان كعب لا ينساها لطلحة[1].

٢ ـ لنحاول اكتشاف الإيجابيات:

يروى أن عيسى ـ عليه السلام ـ مرَّ في نفر من أصحابه على شاة ميتة، فقال لهم: صفوها، فذكروا من كراهة رائحتها وبشاعة منظرها... فأراد أن يلفت انتباههم إلى شيء لم يقيموا له وزناً، فقال: لم يقل أحد منكم: ما أشد بياض أسنانها؟!

وهكذا فإن أي مسلم ـ مهما كان وضعه ـ له الكثير الكثير من الإيجابيات والفضائل، بل إنك لا تجد إنساناً على وجه هذه الأرض هو عبارة عن مجموعة من السيئات؛ وما أعظم العظة التي يقدمها لنا القرآن الكريم حين نص على الإنعام بالاصطفاء لكل واحد من أمة محمد ﷺ حيث قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[2]. يقول بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ما استبشرنا بآية في كتاب الله مثل استبشارنا بهذه الآية. إن الذي يعمل في حقل الدعوة، ونأخذ عليه بعض المآخذ له فضائل كثيرة قد لا نحصيها، أهمها فعل الواجبات أو السواد الأعظم منها وترك المحرمات أو السواد الأعظم منها. ونحن حين نضع اللوم على بعض الدعاة، أو نصفهم ببعض التقصير، لا نقصد إلى أنهم دون غيرهم من عامة الناس، بل إن نقدهم دليل استجماعهم سمات من النبل والخير والفضل يبرز معها ما يقع منهم من تقصير، فسيرتهم ثوب ناصع البياض يشينها أي شيء، وننشد لها دائماً أن تظل نقية تعكس نبل المقصد الذي ندبوا أنفسهم إليه.

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٢.

إن قدرة العقل البشري على اكتشاف السلبيات أعظم من قدرته على اكتشاف الإيجابيات، وعلينا نحن أن نجاهد لنوجهه نحو اكتشاف الخير الكامن في إخواننا، وتقديره لأصحابه.

٣ ـ لنشاور إخواننا في خصوصياتنا:

مهما كان لون النشاط الذي يقوم به الداعية، فإن الساحة الدعوية تظل واحدة وأشبه ببحيرة صغيرة، ما يُلقى فيها يؤثر في مجملها بصورة من الصور وقد أدت ظروف شتى إلى توسيع دوائر الخصوصيات لدى أكثر الدعاة، وربما اعتبر بعض الدعاة ـ أحياناً لغير سبب ـ نفسه مركز الدائرة وغيره الهامش، وعلى الآخرين أن يستشيروه، ويستفيدوا من خبرته، أما هو فلا يوجد في الساحة من يمكن أن يستفيد منه، إنها عقدة الأخ الأكبر أو الأقدم أو الأقوى!!.

إن من جملة المشكلات تحديد دوائر الخصوصيات؛ فما اعتبره شأناً خاصاً أجتهد فيه على النحو الذي أراه مناسباً، ينظر إليه غيري على أنه شأن عام، والمشورة فيه واجبة، إذ إنه يؤثر في الساحة برمتها...

ولا يخلو كلا النظرين من شيء من الصواب في أكثر الأحيان، لكن الذي نريد أن نقوله هنا هو مشاورة الإخوة والزملاء والشركاء فيما نعتبره شأناً خاصاً، كلما كان ذلك سائغاً إذ ليس المقصود من الشورى الاسترشاد والاهتداء إلى الرأي الأصوب دائماً، وإنما إيجاد الألفة بين الناس وزرع الثقة وإسقاط الكلفة وتقوية النسيج الاجتماعي والإيحاء للمستشار بأنه متميز، وأهل لأن يستفاد منه خارج مجاله الخاص...

كم يكون جميلاً أن يستشير الداعية أخاه في بعض المشكلات التي يواجهها، أو يستشيره في بعض الكتب التي تفيده في مجال معين....!

٤ ـ لا يجوز إلباس التحسسات الشخصية ثوب الفكر:

المهنة الواحدة والعمل المشترك يفرزان نوعاً من التنافس ووجهات النظر المتباينة والاحتكاك المزعج وسوء الفهم المتبادل...

وهذا كله طبيعي، ويمكن تأطيره وتهميشه واستيعابه بطريقة ما، لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان أننا نجد نوعاً من الغضاضة في الإعلان عن جوهر خلافاتنا وبيان أنها بسبب التنافس أو اختلاف الأمزجة. . .

ونرى آنذاك أن الأنسب عزو الجفاء والتقاطع السائد بيننا إلى خلاف في الفكر والمبدأ والأسلوب وتقدير الظروف. . . . وفي هذا تلبيس على النفس والناس وإخلال بالقيام لله بالقسط والعدل. ونظراً لتجذر هذه الوضعية في سلوك الناس قال أحدهم: «الخلاف الشخصي إذا طال أمده تحول إلى خلاف فكري». ولذا فإن علينا أن نميز بدقة بين الأمرين، وأن نحاول وضع كل في إطاره الصحيح. إن التحسسات النفسية تأخذ صفة المؤقَّت، أما الخلافات الفكرية فإنها أكثر ديمومة واستمراراً، ومن الظلم للدعوة والترابط الأخوي أن نحوِّل العارض الطارئ إلى أشياء ثابتة ولازمة.

٥ ـ المعرفة الكاملة صفح كامل:

يروى عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أعقل الناس أعذرهم للناس». وهذا القول سابق لزمانه لأنه كلام رجل من أعظم رجال (الاستراتيجية) في تاريخنا الإسلامي؛ إذ إن كثيراً من النَزَق والبَرَم الذي كان يبديه كثيرون في الأجيال السابقة ـ مردُّه إلى عدم القدرة على الإحاطة بالأسباب والظروف التي أدت إلى حصول حَدَث ما أو وضعية معيَّنة. التقدم الحضاري الموجود الآن جعل الناس أكثر تفهماً لأحوال بعضهم بعضاً، وبالتالي أكثر تسامحاً تجاه ما يرونه من تصرفات. . .

ليس المقصود من هذا الكلام أن نقرَّ كل ما نراه؛ فهذا ليس بصواب، لكن المقصود أن نحاول فهم الأسباب والجذور والخلفيات والنشأة التربوية والظروف المحيطة والضغوط المادية والأدبية التي تمارس من هنا وهناك وما إلى ذلك مما يؤدي إلى ولادة وضعية معينة، وإذا وقفنا على ذلك علمنا أن الوضع الذي نراه خاطئاً وضع قاهر لأصحابه من غير وجهة، وربما كان تضايقهم منه لا يقل عن تضايقنا، وقد نصل إلى نتيجة هي أن ما رأيناه من

أسباب وجذور... قد يضعنا في نفس الموقف الذي ننتقده فيما لو أحاط بنا...

إن الإرادة مهما كانت حرة وقوية، وإن العقل مهما كان مستنيراً فإن هناك ما يحدد حركتهما وفاعليتهما وتوجههما؛ وإن علينا أن نحاول تفهم ذلك وتقديره.

٦ ـ لنعزل تصرفاتنا عن مشاعرنا[١]:

ليس من الحكمة أن نُبعد رقابة وعينا عن مشاعرنا، وهذه الرقابة هي إحدى ما يميز الإنسان عن الحيوان. وليس من الحكمة ولا اللباقة ولا المصلحة أن تكون تصرفات الإنسان صدى لمشاعره في كل موضع وكل أوان؛ ففقه الموازنات يعلمنا تجاوز اللحظة الراهنة والنظر إلى الأمام، وتجاوز المسألة الصغيرة والتطلع إلى ما هو أكبر...

وقد أخرج البخاري من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «استأذن رجل، فقال: ائذنوا له فبئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله قلتَ الذي قلتَ، ثم ألنتَ له الكلام؟. قال: أيْ عائشة: إن شر الناس من تَركَه الناس ـ أو ودعه الناس ـ اتقاء فحشه»[٢]. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول؛ وذلك من أقوى أسباب الألفة. وقال بعضهم: المداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك[٣]. وفي هذا البيان غنى عن كل بيان.

---

(١) رجل الإدارة: ١٤٣.

(٢) فتح الباري ١٠: ٤٧١.

(٣) السابق ١٠: ٥٢٨، ٥٢٩.

٧ ـ تأسيس الأعمال المشتركة:

مهما قلنا إن الساحة الدعوية متسعة، وإن حاجتها أكثر مما هو موجود فيها فإن الدواعي للنزاع والصدام تظل موجودة. وإن مشاعرنا مهما تكن تجاه بعضنا بعضاً طيبة فإنها تحتاج إلى ما ينظمها وينمّيها ويجسدها. . . وإن خير ما يحقق هذا، ويمنع ذاك هو تأسيس الأعمال الدعوية المشتركة كالجمعيات والمدارس وبناء المبرات والمساجد والمؤسسات الإعلامية المختلفة إلى جانب اللقاءات الدعوية والحوارات الفكرية وكل ما من شأنه إشعار الجميع بأنهم شيء واحد، ويسعون إلى غاية محددة واحدة.

إن هذه الطريقة في تنظيم المصالح وتبادل المنافع هي المتبعة اليوم بين الدول؛ حيث تصير الحكومات المتعاونة إلى تأسيس المجالس واللجان التي تجتمع اجتماعات دورية، وتخطط للمشاريع المشتركة، وتسعى لتوحيد الرؤية في المجالات المختلفة.

وإن من المؤسف حقاً أن كثيراً من الدعاة لم يشعر بعدُ بمدى النفع الذي يعود عليه وعلى دعوته من وراء الأعمال المشتركة مع من يخالفونه في بعض أسلوبه أو وسائله! والدليل على صحة ما نقول هو كثرة الأعمال الفردية والضعيفة، وقلة الأعمال الجماعية الكبيرة!.

٨ ـ علينا أن نتذكر دائماً أن الهدف النهائي واحد:

لو استعرض الدعاة ـ على مختلف مناهجهم ـ مجمل الأهداف النهائية التي يسعون إليها لوجدوا أنهم يعملون ـ بوعي أو بغير وعي ـ من أجل تحقيق أهداف مشتركة؛ فالصحوة المباركة التي تشهدها أمة الإسلام اليوم قاربت بين المناهج إلى حد لا يستهان به، وجعلت المحكات النهائية لمجموعة الإحالات الفكرية والشعورية ـ واحدة أو تكاد.

ولا ريب أن الهدف الأعظم للجميع هو الفوز برضوان الله ـ جل وعلا ـ من خلال تحقيق مجموعة من الأهداف المختلفة من نحو التمكين لدين الله في الأرض ونشر أعلام الهداية فيها ونحو خدمة أوطان المسلمين، والسعي

إلى رفع مكانة أمة الإسلام بين الأمم، وتربية الناشئة وتزكية النفوس ونشر العلم الشرعي، وتحقيق الفروض الكفائية، والمساعدة على التخفيف من وطأة الجوع والجهل والمرض وشتى أنواع التخلف....

وهذه المجالات ذات الأهداف المحددة مستغرِقة لكل الجهود الدعوية المبذولة في الساحات العملية كافة؛ مما يعني أن الجميع يسيرون بالأمة نحو غايات واحدة ونهايات متجانسة.

صحيح أن مشاعرنا نحو بعضنا ونظرتنا إلى أعمال الآخرين لن تكون على هذا النحو، كما أن تقويمنا لأنشطة الآخرين لن تكون بمثل هذه البساطة، لكن علينا أن نعلم أن ما نخسره بسبب الخلاف، وما نستهلكه من طاقات وأوقات في الجدل العقيم حول صحة المناهج وصواب الأعمال... هو أكبر بكثير من خسائرنا بسبب اختلاف الأساليب والوسائل التي نختلف حولها. إن من الكياسة والفطنة ألا نضيِّع العمر في طلب الإجماع على مسائل لا تقبل بطبعها وحدة الرؤية والطريقة والوسيلة.

٩ ـ المناصرة والمناصحة أوانَ الشدة:

طريق الدعوة مملوء بالعقبات والتحديات، وأوقات المعاناة فيه أكثر من أوقات الراحة والاطمئنان. وحين يقع الداعية في شدة، أو يحتاج إلى معونة فإنه يأمل في مساعدة رفاق الطريق الطويل ومناصحتهم وتسديدهم، وقد جرت عادة كثير من الناس أن يتقاربوا في أوقات الرخاء، وينسى بعضهم بعضاً في أوقات الشدائد. ولا ريب أن بعض عذابات الطريق شيء لا بد منه؛ وحين يتعرض لها الداعية يكون بحاجة إلى من يصبِّره ويثبته... كما أن جزءاً من الآلام يحل بالدعاة بسبب أخطائهم وسوء تقديرهم للأمور؛ وهم آنذاك بحاجة إلى من يسددهم، ويبصرهم بعواقب الاجتهادات الخاطئة... وإن كثيراً من الكوارث التي أصابت الدعوة والدعاة كان من الممكن تلافيه لو أن العارفين منا بالموقف الصحيح نهضوا لمناصحة إخوانهم وثنيهم عن اندفاعهم نحو حرق المراحل أو القفز في الهواء أو سوء التقدير...

إن علينا أن نعود إلى أخلاق علمائنا وأئمتنا في تعاملهم مع بعضهم

بعضاً فيما نحن بصدده خاصة وفي شؤونهم عامة؛ حيث كانت مصلحة الإسلام العليا هي المسيطرة على حسِّهم وتصرفاتهم. ومما يروى في ذلك أنه لما حُمل الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون في محنة خلق القرآن سمع أبو جعفر الأنباري بذلك، فعبر الفرات، فوجد أحمد في الخان، فسلَّم عليه. فقال: يا أبا جعفر تعنّيت. فقال: ليس هذا بعناء، وقال له: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فواللَّهِ لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنَّ بإجابتك خلق كثير من خلق الله، وإن أنت لم تُجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله، ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله! ثم قال أحمد: يا أبا جعفر أعد عليَّ ما قلت. فأعدت عليه، فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله[1]. قد كان أبو جعفر يدرك خطر تساهل الإمام أحمد في هذا الموقف، وما قد يجره من البلاء على الأمة، فسار إليه يشدُّ من عضده، ويرفع من همته؛ لأن المسألة أكبر من أن تترك لأحمد يواجهها بمفرده، وإذا رأى العالم الرباني من أخيه انحرافاً، أو وجده في موقف خاطئ فإنه لم يكن ليسكت على ذلك، وإنما يأمره بتقوى الله، وينبهه إلى عاقبة ذلك؛ فحين دعا الحجاجُ علماء البصرة والكوفة، وجعل ينال من علي ـ رضي الله عنه ـ غضب الحسن البصريُّ لله، وجعل يثني على عليّ إلى أن أغضب الحجاج، فقام عن السرير مغضَباً، وخرج القوم. فقال عامر الشعبي ـ وكان جالساً معهم ـ: فأخذت بيد الحسن، فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير، وأوغرت صدره. فقال الحسن: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر هلاّ اتقيت الله!!. إن سُئلت فصدقت، أو سكت فَسلمت. فقال الشعبي: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشدُّ في التبعة![2].

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل: ٣٩١.

(٢) مناهج العلماء: ١٨٦.

إن مما يساعد على قبول النصيحة أن تكون سراً، وبصيغة لطيفة، ومن غير استعلاء وتكبر مع إخلاصها لله ـ جلَّ وعلا ـ وتحيُّن الوقت المناسب والفرصة السانحة لإسدائها.

١٠ ـ لا نقف مواقف التهم، ولا نسارع إلى الاتهام:

أخرج البخاري وغيره أن صفية زوج النبي ﷺ جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعةً، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ يقلبها ـ أي يردها إلى منزلها ـ حتى إذا بلغت باب المسجد مرَّ رجلان من الأنصار، فسلّما على النبي ﷺ فقال لهما: على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكَبُر عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغَ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً».

قال ابن حجر: وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان.

قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء، ومن يُقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم[١].

إن كثيرين منا يلقون الكلام على عواهنه دون مبالاة بما قد يفهمه الآخرون منه، كما أن بعضنا لا يلتزمون بما ينبغي أن يكون عليه العالم والداعية من حشمة وسمت وتنزهٍ عن خوارم المروءة، والبعد عن مواطن الشبه؛ مما يوقع الآخرين في غيبتهم، ويُضعف الاستفادة من علمهم وهديهم.

وإن علينا واجباً آخر هو عدم المسارعة إلى اتهام من عُرف عنه الخير لأدنى شبهة تعرض لنا؛ فإن الله تعالى أمرنا بالتثبت والتبين عند سماع الأخبار

(١) فتح الباري ٤: ٢٨٠.

والشائعات، حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[1]. وقد ثبت لدينا بالخبرة والتجربة أن القادرين على التزام الدقة في نقل الأخبار وفهمها على وجهها الصحيح، والتفريق بين الخبر والتحليل الشخصي من بعض الرواة ـ أن أولئك قليلون جداً، وقد جرت العادة أن يتدخل في ذلك الهوى أو سوء الفهم، أو هما معاً! مما يدعو العاقل المنصف إلى التحرز والأناة تجاه كل ما ينقل من أخبار الناس عامة والدعاة خاصة؛ حيث إنهم كثيراً ما يكونون مستهدفين.

وإذا علم الداعية أن جزءاً من نجاحه سيكون مستمداً من نجاح إخوانه فإنه سوف يسعى إلى نجاحهم وتقدمهم في مهامهم؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد.



(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٣) علاقات الدعاة مع الحكام

يوفر الإسلام عقيدة وشريعة، كما يوفر التاريخ والتراث والآمال والآلام والمصير المشترك، الأرضية والإطار والسياج الذي تتفاعل فيه القوى الاجتماعية المختلفة في حالات التوافق والتخالف والتنوع. وإن الأسباب التي تدعو إلى شيء من التوتر داخل المجتمع الواحد كثيرة ومتنوعة؛ إذ إن المبادئ العليا والأهداف المشتركة مهما أسبغت على الناس من مفاهيمها ومنطقيتها، ومهما عززت من مشاعر الوحدة والألفة فإن الصحيح أيضاً أن مفاهيمنا عن الحالة الراهنة، وعما ينبغي أن تؤول إليه ليست واحدة دائماً؛ كما أن كل واحد منا يرسم مجاله الخاص ومجاله الحيوي على انفراد، وإن كل عدوان عليه من أية جهة يثير تحفظه؛ كما أن أساليب معالجتنا للمشكلات ليست واحدة، وتحديدنا للمسؤولية عنها مختلف ومتفاوت. لهذه الأسباب وأسباب أخرى نجد أنه لا يوجد مجتمع على وجه الأرض ليس فيه شيء من التوتر والتعارض والتنازع حول أمور وقضايا كثيرة، وهذا ينسحب على المجتمعات المتقدمة والمتخلفة في آن واحد، كما ينسحب على المجتمعات الحاضرة والماضية بل إننا نخطو خطوة أخرى، فنقول ليس التماثل الاجتماعي التام أمارة على الصحة، ولا هو موضع غبطة لأي مجتمع من المجتمعات، بل علامة الشيخوخة والأخذ في الخمول والتحلل...

إن المجتمع السليم الحي يشتمل على توترات كثيرة؛ لكنه ينجح في إيقاف الخلافات عند حدود معينة، كما أنه يستغل تلك التوترات في تنويع المجتمع وإثرائه، وهو يعمل على الاستفادة منها في تجديد موازناته واكتشاف عيوبه وإبداع الحلول لها، ويحقق من خلالها سُنَّة (التدافع) التي تقي

المجتمعات البشرية من الانجراف نحو البعد الواحد، أو الوقوع تحت سيطرة قوة واحدة.

انطلاقاً من هذه المفاهيم نتقبل كثيراً مما يحصل في المجتمعات الإسلامية اليوم من الخلاف حول تحديد المشكلات التي تعاني منها الأمة، وحول أساليب الحل وضمانات كرامة الإنسان المسلم ونيل حقوقه كافة غير مبخوسة، وسواء أكان ذلك الخلاف بين الدعاة والمصلحين أو بين الدول بعضها مع بعض، أو بين هؤلاء وأولئك. وأعتقد أن بناء نوع من التفاهم بين جميع الأطراف، ضرورة حيوية من أجل تحقيق المصلحة العليا للأمة؛ وذلك يتطلب تضحية من الجميع وتنازلاً ومحاولات جادة للفهم المتبادل من لدن جميع الأطراف، وإنما نقول ذلك؛ لأن «العلاقة المتميزة بين السلطة والدين شرط لا غنى عنه لتأسيس الاجتماع المدني، أي لبناء مجتمعات متعاونة ومتضامنة بين أفرادها، وهو الإطار الضروري لإيجاد التواصل والتداول المعنوي والمادي، وبالتالي لنمو الحضارة وتقدمها»[1].

فالثقافة ـ أية ثقافة ـ تتهمش، وتتعرض للمحن ما لم تقم دولة بتبنيها ـ ولو على مستوى معين ـ وتنميتها ودعمها، والدولة تكتسب من وراء تبنيها لثقافة الأمة ومبادئها ما تحتاج إليه من ولاء ودعم في ضبطها لمجتمعها، وفي تنفيذها لخططها ومشاريعها. إن نجاح أية أمة بشكل فذ يعني نوعاً من النجاح في العلاقات بين العلماء والحكام، أو بين أهل الكتاب وأهل الحديد ـ كما يقول ابن تيمية ـ ونجد صدى هذا واضحاً في تاريخنا الإسلامي المديد؛ ففي حالات إقبال الإسلام والأمة معه كان هناك نوع من الإجماع على أولويات المرحلة وأهدافها، وفي حالات الأزمات والاختناقات الحضارية كان الصِّدام حول كل شيء وهو سيد الموقف، ويصدق في ذلك قول أحد المؤرخين: في حالات الانهيار يصعب تجنب الاقتتال بين الإخوة[2].

---

(١) نقد السياسة: ٢٣.

(٢) مختصر دراسة التاريخ ٤: ١٢٥.

الخلفية التاريخية:

لم يكن في زمان النبي ﷺ مجال لأي صراع بين مبادئ الدين وآلية الدولة؛ حيث كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ النبي المعصوم الذي يبلغ الناس أمر ربه، كما كان رئيس الدولة أيضاً والمرجع الأعلى في شئون الأمة، يسوس مصالحها، ويجهز جيوشها، ويقضي في حربها وسلمها وقضايا مالها واجتماعها... وبعد لحاقه بالرفيق الأعلى وقع الاختيار على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان في نظر الصحابة ـ رضي الله عليهم ـ أميزهم؛ فهو السابق بالصحبة والأقرب إلى رسول الله ﷺ والأكثر ورعاً والأغزر علماً... وحين ولِّي خطب خطبة كشف فيها عن التزامه بتحقيق مصلحة الجماعة في حدود الطاعة لله ـ تعالى ـ، وقد جاء فيها: إن أطعت فأعينوني، وإن عصيت فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم. لقد ولِّيتُ عليكم، ولست بخيركم... أفتظنون أني أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذاً لا أقوم بها (أي الحكم). إن رسول الله كان يُعصم بالوحي، وكان معه مَلَك. وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني، لكم علي أن لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، ألا فراعوني، فإن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوموني[1].

وبعد عهده لعمر بالخلافة ووفاته قام الرجل بالأمر على خير قيام، وكان كما قالت ابنة شعيب ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[2]. وقد اتسعت رقعة الدولة في زمانه اتساعاً عظيماً، وكانت المشكلة التي تواجه الخلفاء ـ على مستوى الأعوان ـ أن الجيل الذي رباه النبي ﷺ على عينه كان في تناقص مستمر، على حين كان الناس من عامة وخاصة؛ ممن لم يروه، ولم يقبسوا من نوره في زيادة مطردة؛ مما يعني اتجاهاً نحو القلة في الطراز الرفيع الذي يصلح لمساعدة

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢١٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٦.

الخلفاء الراشدين، إلى جانب اتجاه نحو الكثرة الكاثرة على مستوى من يحتاجون إلى رعاية وسياسة وضبط وتوجيه. . . لكن عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى جانب أنه رجل دولة من الطراز النادر والرفيع جداً كان قد سدَّ كل المنافذ التي يمكن أن يدخل عليه منها تشويش، بل سار في الرعية وفي نفسه سيرة عمرية فريدة قلما وُجِدت لدى أمة من الأمم في أي زمان من الأزمنة؛ حيث لزم التقشف في حياته الشخصية إلى جانب عدم استعانته بأحد أقربائه في شئون الدولة بالإضافة إلى علمه واجتهاده الواسعين، وغيرته على دين الله ومصالح الرعية ومحاسبة ولاته ومتابعتهم المتابعة الدقيقة؛ مما يعجز القلم عن وصفه[1].

إن رئاسة النبي ﷺ لدولة الإسلام وولاية صاحبيه من بعده على تلك الدرجة من الرفعة والسمو والنزاهة والكفاءة وثقة الناس واطمئنانهم. . . قد جعل الحسّ الإسلامي بالنسبة للدولة يتشكل على درجة عالية من المثالية، فالمسلمون يريدون من قادتهم أن يكونوا ساسة في أخلاق أنبياء وصديقين؛ ولذلك ظلت هذه الفترة المباركة من الحكم تضغط على كل الفترات التي جاءت بعدها وإلى يوم الناس هذا، وتولّدت لدى الناس حساسيات قوية ضد أي انحراف عن الصور الرائعة التي برزت في تلك الفترة. وحين ولّى المسلمون عثمان ـ رضي الله عنه ـ كانوا يرون أنَّهم ولَّوا خير رجل فيهم، وقد كان ظنهم في محله، لكن الناس غفلوا عن أمر مهم، هو أن القاعدة التي حكمها النبي ﷺ وصاحباه من بعده كانت على درجة سامية من الالتزام بأداء الواجبات والبعد عن الزيغ، وبالتالي فإن الدولة لم تكن بحاجة إلى التدخل الواسع في شؤونها، ولا استخدام سياسات القسوة والشدة معها، لكن الأمر قد اختلف بعد ذلك. . . ومما يروى في هذا أن بعض الناس قال لعلي ـ رضي الله عنه ـ إنك لا تسير فينا سيرة الشيخين أبي بكر وعمر؟ فقال: نعم، الشيخان كانا أميرين على أمثالي، وأنا أمير على أمثالكم!.

---

(١) انظر في هذا التحول الاقتصادي والاجتماعي: ٢٢ وما بعدها.

ومن ثم فإن الناس ـ ومنهم بعض أكابر الصحابة ـ أخذوا على عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعض سياساته في تعيين الولاة والتصرف بأموال بيت المال، مما هو معروف ومشهور في كتب التاريخ[١].

من ذلك اليوم بدأ الناس يشعرون بنوع من المفارقة بين سياسات الدولة وبين ما يقرؤونه في كتابهم وسنة نبيهم وما خبروه وسمعوه من سلوك النبي ﷺ وصاحبيه في أمور الحكم والدولة.

ومع تقدم الأيام كان الوعي المسلم حول قضية السياسة والدولة يزداد ارتباكاً، وصار للعلماء في التعامل مع الحكام مناهج ومقولات عديدة، كما صار هناك تأصيلات فقهية كثيرة حول حدود الطاعة الواجبة لولي الأمر وحول مخالفته والخروج عليه بالسلاح وبغيره، وحول ولاية الوظائف للدولة وقبول العطاء منها، وما شاكل ذلك...

خذ مثلاً على ما نقول موقفهم من قبول أعطيات الخلفاء والأمراء؛ فأبو ذر ـ الصحابي الجليل ـ كان يقول للأحنف بن قيس: «خذ العطاء ما كان نحلة، فإذا كان أثمان دينكم فدعوه». وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «إذا أُعطينا قبلنا، وإذا مُنعنا لم نسأل»[٢].

وكان الإمام مالك لا يتأثم من الأخذ من الخلفاء؛ لأنه مال المسلمين[٣]. أما الإمام أحمد فإنه لما بعث له المتوكل عشرة آلاف درهم مع أحد حجابه امتنع من أخذها وقبولها. فقال له الحاجب: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك في قبولها. فأخذها الإمام أحمد ووزعها، ولم يبق منها شيئاً حتى الكيس الذي كانت فيه تصدَّق به، ولم يعط لأهله منها شيئاً وهم في غاية الفقر والحاجة[٤].

---

(١) انظر فتح الباري ٥٦:٧، والبداية والنهاية ١٧٧:٧، والخلافة أو الملك: ٦٤ وما بعدها.

(٢) الإحياء ١٣٦:٢.

(٣) مناهج العلماء: ١٤٣.

(٤) السابق: ١٤٤.

وروي أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل وخلف بنيه، ولا يكلمهم أيضاً؛ لأنهم أخذوا جائزة السلطان[1].

وهكذا فبعضهم قبل الأعطية، وانتفع بها، وبعضهم أخذها، وتصدق بها، وبعضهم ردها بعنف، وبعضهم ردها رداً جميلاً...

بناء الأرضية المشتركة:

ستستطيع كل الأطراف الفاعلة في حياة المسلمين أن تعمل الكثير في حالة واحدة، هي (الشعور بالمسؤولية) أمام قيّوم السموات والأرض يوم يلقاه الواحد منا فرداً، ويسأله عن مجموعات الإمكانات التي وضعها بين يديه كيف تصرف فيها، وعلى أي وجه استغلّها واستثمرها... وقد أخذ الله العهد على أهل العلم أن يصدعوا بالحق ويعلموا الناس أمور دينهم حتى لا تنحرف الأمة عن منهج ربها، وحتى لا تنحدر إلى مستنقعات الهمجية والانحطاط، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[3]. فالشعور بالمسؤولية أمام الله ـ تعالى ـ سوف يدفع أهل العلم إلى بيان الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من شروط ريادة الأمة ومسؤوليتها.

أما الدولة فإن عليها إشاعة العدل وإيصال الحقوق إلى أصحابها وحماية البيضة وحفظ الأمن وتطبيق الشرع ومساعدة الناس على حل مشكلاتهم[4]... ولهم على جميع أفراد الأمة الطاعة بالمعروف. وتشترك

---

(١) البداية والنهاية ١٠: ٣٤٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٨، ٧٩.

(٤) انظر حول مبادئ الحكم في الإسلام: الخلافة أو الملك: ٣٧.

الأمة مع علمائها وحكامها في مهمة كبرى هي القيام بأمر الله ـ تعالى ـ والتمكين لدينه في الأرض ونشر أعلام الهداية في العالمين.

لكن المشكل دائماً ليس في تحديد هذه الوظائف وإنما في طريقة التطبيق بشكل لا يلحق الضرر بأي جانب من جوانب الحياة الإسلامية، كما لا يوقع أي طرف في العنت والحَرَج، بمعنى ألا يتم بيان الحق ولا تسيير شئون الدولة بطريقة صماء كثيفة، وإنما بالشفافية الكاملة وروح التفاوض والتشاور والتسامح؛ بما يحقق الإيجابيات المرجوة، ويحفظ على الأمة تماسكها والتفافها حول مصالحها العليا.

وفي تصوري أن كثيراً من الشروط والحدود التي وضعها بعض الفقهاء مما ينبغي توفره في الحاكم المسلم وكيفيات إدارته للدولة وكذلك التفاصيل التي وضعت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأساليبه ـ كل ذلك لا يمكن تطبيقه بطريقة صارمة، بل إنَّ هناك مساحات واسعة للحاكم يتحرك فيها لتحقيق المصالح المرسلة، وما يراه ضرورياً لحفظ كيان الأمة؛ حيث لا يوجد في العالم كله أمة تستطيع أن تحدد كل تحركات حاكمها وتصرفاته وإجراءاته... كما أن كثيراً من قضايا الدعوة يقوم على التقدير الشخصي للداعية أو الجماعة، وهذا التقدير قد يكون صحيحاً وقد لا يكون. ومن ثم فإن اعتماد روح المراجعة والنقد البنّاء المنصف مع تحمل المسؤولية إلى جانب المصارحة والتعاون والالتزام العام بالإسلام وأحكامه والأهداف الكبرى للأمة هو الضمان للممارسة الصحيحة في حياتنا الاجتماعية.

في ظل التخلف المريع الذي تعيشه أمة الإسلام وفي ظل الاتصال الكوني الهائل صار الاستقلال الوطني التام أمراً في غاية الصعوبة؛ فالحرية ليست شعاراً يُرفع، وإنما هي في جوهرها عبارة عن القدرة على الاختيار، وليس ثمة اختيار ما لم يكن هناك بدائل، والتخلف الذي نعانيه جعل البدائل أمامنا محدودة جداً... ومن هنا فإن حكام المسلمين سيضطرون إلى موازنات دقيقة، وسيتعرضون لضغوط مختلفة، كما أن من المستحيل تلبية كل

المطالب التي يدندن بها الناس دون معرفتهم بالإمكانات المتاحة. إن المهم أن تنجح في إقامة تحالف وطني خفي يوسِّع مساحات المناورة في تعاملنا مع الأعداء، ومع أولئك الذين بنوا خطط نجاحهم على استمرار تخلفنا.

إن الفهم المتبادل لطبيعة الدولة وطبيعة الدعوة مهم في إقامة ذلك التحالف، وفي تخفيف توترات التنافس ـ عندما تخلص النيات ـ وإن مما ينبغي أن يكون معروفاً أنه لا توجد دولة تستغني عن عصري الإقناع والإكراه معاً، فإنجازاتها هي وسيلتها لإقناع الناس بجدارتها وكفاءتها في فرض رؤيتها التحضرية على الناس. وعنصر القسر والإكراه ضروري لضبط حركة كل أولئك الذين حرموا من التّربية القويمة، وأولئك الذين يريدون التمتع بخيرات المجتمع دون تقديم أي شيء له. . .

إن المجتمع الفاضل هو ذاك الذي يقوم بشؤونه أو بأكثرها دون الحاجة إلى تدخل الدولة، ولكن مهما كان الأمر، فسيظل هناك استخدام للقوة لكن الدولة الفاضلة الناجحة أيضاً هي التي تحل أزماتها الداخلية، وتديرها بأقل قدر ممكن من استخدام العنف والإكراه. والمهم في هذا أن القدر الذي يستخدم في ضبط المجتمع يكون عادلاً ومكافئاً لحجم الجناية في إطار توجيهات الشريعة الغراء.

والدعوة إلى الله بطبعها وبما هي اتصال بالناس تعد ـ في نظر الدولة ـ مؤسّسة لسلطة منافسة؛ فقد تقعَّد في البنى العميقة للسياسة أن كل ما هو فردي إذا صار جماعياً صار سياسياً بقطع النظر عن أهدافه ومدى خطورته على كيان الدولة. والمقصود من هذا البيان وذاك أن يستطيع كل طرف رؤية نفسه من وجهة نظر الآخر؛ لأن هذا هو السبيل الأمثل للتفهم العميق، وللوصول إلى بعض المحكات النهائية. . .

وإذا استعرضنا التاريخ، وما خلَّفه في الرصيد الشعوري للأمة وجدنا أن الناس ظلوا يعطون ولاءهم لشيء اسمه (أمة الإسلام) بما يجسده هذا المعنى من رابطة العقيدة والانتماء إلى التاريخ والتراث والغيرة على المصلحة العامة

وكرامة المسلم وأمنه ومستقبله... وسيعطي الناس ولاءهم لأية دولة ما دامت تستطيع العمل على هذه المحاور وتحقيق الإنجازات التي تدور في محورها، وتعززها في وعي المسلم وواقعه المعاش. إن في أغوار نفسية المسلم اليوم جرحاً عميقاً من وراء ما يراه من ذل المسلم في كل بقاع الأرض وهدر دمه والتآمر عليه والمتاجرة به وبمستقبله، وإنه يحتاج إلى الدولة التي ترفع من شأنه، وتواسيه.

إن مما شرطه عصر الاتصال الكوني أن الكل يساوي الجزء، وأن الجزء يساوي الكل فمكانة الفرد في العالم جزء من مكانة شعبه ونفوذ حكومته الدولي، ومكانة أية دولة وأي شعب من إنجازات أبنائه ونبوغهم وسلوكهم... وإن شعور أية أمة بالتأنق ينبع من تناغمها الاجتماعي والمدني وحلها لمشكلاتها بالوسائل السلمية مع بقاء شيء من طاقتها لمساعدة الآخرين على التخفف من مشكلاتهم. ولا ينبغي لداعية أن يظن أن بإمكانه أن يشيد صرح الدين في وطن مهين، أو في ظل حرب أهلية أو بين أقوام طحنتهم الحاجة والقلة والذلة والانحسار الحضاري... كما أنه لا ينبغي لحكومة أن تظن أن العيش خارج هموم الأمة وتطلعاتها ومبادئها الكبرى سوف يسمح بأي إنجاز تاريخي، أو أنه سوف يمكن من تحقيق أية مكانة دولية...

إن المشكلات الداخلية دائماً هي تحديات الكبار، وإن الانكفاء على الداخل واستثمار إمكاناته لصدِّ العدوان الخارجي هو أيضاً حيلة الكبار وفن العظماء!.

إذا لم يستطع أهل الرأي والخبرة، وأهل السلطان والنفوذ أن يندمجوا في كلٍ واحد، فإن عليهم أن يتعلموا كيف يتعايشون، أي كيف يعملون من خلال الموازنات المحسوبة، ومن خلال التضحية في سبيل الشأن العام والمصلحة العليا. ولعل النظر التاريخي يفضي إلى هذه النتيجة، ولعل ذلك كان من أكبر المشكلات والأزمات التي عانت منها أمة الإسلام في تاريخها المرير. إن الفرق بين الاندماج والمعايشة هو الفرق بين التلاحم المصيري

وبين الاختلاط الشكلي، لكي يظل هذا أفضل من استهلاك طاقات الأمة في المكائد والمؤامرات الداخلية!.

إن شفافية الدولة وسعة قاعدتها والتزامها بعقيدة الأمة وهمومها من أهم العوامل التي تساعد على الاندماج الاجتماعي، والتي تخفف من التوتر الداخلي في أمة هي أحوج ما تكون إلى وحدة الفكرة ووحدة الموقف. والله ولينا.



المقدمة السادسة

في الدّعوة الفرديّة والجماعيّة

١ ـ الدعوة الفردية.

٢ ـ الدعوة الجماعية.

٣ ـ في بنية الجماعة الدعوية.

(١) الدعوة الفردية

إن الناظر في جملة النصوص الشرعية، وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه يرى رأي العين أن كل مسلم مكلف بأن يقوم بشيء من الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بحسب الوسع والطاقة، بل إن مجرد الالتزام العملي بالشعائر الإسلامية يعد ضرباً مهماً من ضروب الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ طالما كان لسان الحال أبلغ من لسان المقال.

ولذا فإنني أرى أن الأصل هو الدعوة (الفردية) حيث إنها الصورة الفطرية والبسيطة والقليلة الكلفة، والتي لا تحتاج إلى أية مواءمة... وحين يجد المسلم مجالاً للدعوة إلى الله ـ تعالى ـ فإن عليه أن يخوض غماره ولو كان وحده، ولا يُطلب منه أن ينتظر أحداً؛ إنها المبادرة الفردية التي تُعدُّ بحق المقياس الدقيق لحيوية المجتمع ووعيه بأهدافه ومسؤولياته.

ومن المؤسف أن كثيراً من الجماعات تنظر إلى أولئك الناشطين بصورة فردية نظرة تشكك أو استخفاف أو استغراب؛ لأنها ترى أن الدعوة الفردية غير ذات معنى أو قليلة الجدوى أو غير طبيعية....

وهذه النظرة بعيدة عن الصواب، وعن الموضوعية، وهي فضلاً عن أنها ليست مؤصَّلة شرعاً غيرُ ممكنة التطبيق، حيث إن هناك كثيراً من الناس لا يصلحون للعمل الجماعي لأسباب عديدة، منها ضعف حاسة الانضباط والانصياع لديهم، ومنها الاعتداد الزائد بالرأي الشخصي، ومنها الانحراف ـ أحياناً ـ في المزاج إلى ما هنالك من دواع تجعل بعض من يعمل في الحقل الدعوي يرى أن نشاطه المنفرد مناسب له.

ويضاف إلى هذا أن بعض الأمراض والمشكلات التي تعاني منها بعض

الجماعات تنفِّر الآخرين من التعاون معها، أو الانضمام إليها، بل يكون في الانضمام إليها نوع من القيود دون أدنى مقابل من التحفيز أو التوجيه.

ومن جهة أخرى فإن لكل جماعة شروطها ـ المكتوبة وغير المكتوبة ـ فيمن يصلح للانضمام إليها، وقد يجد كثير من الناس أنفسهم غير مؤهَّلين لأن ينضووا في ظل أية جماعة إسلامية.

وقبل هذا وبعده فإن كثيراً من الأعمال الدعوية يمكن للإنسان أن يمارسه بنفسه دون مساعدة أحد؛ ونحن ننظر إلى الجماعات على أنها وسائل لا غايات، فإذا كان بالإمكان أداء الواجب ونشر الخير من غيرها على الوجه المطلوب لم يكن هناك ما يدعو إلى الاستيحاش من العمل الفردي.

وقد قام في تاريخنا المعاصر أشخاص كثيرون بأعمال جليلة على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل والحركة؛ وربما قلنا: إنَّ بعضها كان من الضخامة على نحو تعجز عنه جماعة بل جماعات!.

ومجالات العمل الفردي أكثر من أن تحصى؛ فالدرس الجيد، والخطبة الممتازة، والكتاب الناجح، والصلة الفردية ببعض الأشخاص، ومساعدة الناس على اجتياز بعض الصعوبات، وإصلاح ذات البين، والمنافحة عن الإسلام، وكثير من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك يمكن أن يتم بصورة فردية، بل إن كثيراً منها لا يكون إلا كذلك. لا يعني هذا أننا ندعو أهل الخير إلى اعتزال بعضهم بعضاً والاستبداد بالرأي والسلبية؛ فهذه سمات لا تُحمد في العامة فضلاً عن الخاصة. ومما ينبغي تأكيده في هذا الموضع أن طبيعة العمل الدعوي تؤسس مجالاً خاصاً للداعية، كما تؤسس علاقات كثيرة، وهذا وذاك يسببان حساسيات بين العاملين في الساحة الواحدة، ويجعل المجالات الرحبة ضيِّقة، كما يجعل إمكانات الاحتكاك والتصادم واردة، ومن ثم فإنه لا بد للداعية من التحلي بعدد من الصفات، إلى جانب القيام بتصرفات عديدة من أجل بقاء الساحة الدعوية في حالة من التصافي والوئام؛ كأن يحاول فهم إخوانه في الساحة من زاوية رؤيتهم لأنفسهم، وليس من خلال رؤيته الخاصة، وكأن يصبر على الأذى وسوء

الظن والاتهامات وسوء الفهم من قبل إخوانه؛ إذ إن كثيراً من ذلك لا ينفع معه المواقف المتوترة، وإنما يترك للأيام لتثبت زيفه.

ومن ذلك البحث عن صيغ للتعاون مع الجماعات والأفراد الموجودين في الساحة؛ حتى يشعر الجميع أنهم يسعون إلى غاية واحدة. ومن المشاهد المؤلمة في هذا أنك ترى الدعاة في المدينة الواحدة، وقد أعطى كل منهم ولاءه لجماعة من الجماعات التي قد تكون خارج مدينته، أما علاقته مع الدعاة في مدينته فهي علاقة تشاحن وتنافس! وهذا مع أن التعاون والعمل المشترك البنّاء لا يتم غالباً، إلا مع الذين يعيشون معه في بلدة واحدة.

إن فكرة تشكيل التيار الواحد ـ رغم تعدد الجماعات ـ ما زالت غائبة عن الساحة الدعوية، إذ يسيطر على كثيرين منا مقولة: إما أن تكون معي أو نسخة مني أو تابعاً لي وإلا فأنت منافس!! مع أن اللائق بطبيعة الأعمال الدعوية ـ القائمة في أكثر الأمر على الاجتهاد ـ هو أن تكون المقولة: نُشكِّل تياراً واحداً مع احترام الخصوصيات، ونخدم هدفاً واحداً كبيراً وإن اختلفت الوسائل والأهداف المرحلية.

ومهما اتسعت الساحة الدعوية فإن شيئاً من التنسيق والتفاهم يظل أمراً ملحاً، وإلا فإن الصدام سيقع لا محالة ما دام هناك نشاطات متعددة ومناهج وأساليب وموازنات متفاوتة.

إن شيئاً من المشاورة والمناصحة بين الدعاة يخفف من التوتر وسوء الفهم والتنافس فوق ما نظن، وأكثر مما نعتقد.

وأظن أن جعل الأعمال الدعوية متوجهة نحو البناء الحضاري العام هو الذي سوف يوسع مجالات العمل الدعوي، ويتيح لنا تنوعاً هائلاً من الأنشطة الخيرة التي لن نجدها إذا كان الهدف من دعوتنا بناء جماعة أو السيطرة التعليمية على مسجد أو حي، أو ما شابه ذلك من الأهداف المحدودة.



(٢) الدعوة الجماعية

مما فطر الله ـ تعالى ـ الخلق عليه حاجة بعضهم إلى بعض على صعيد قضاء مصالحهم كافة، فكما أن هناك قضايا كثيرة يمكن للمرء أن يقوم بها دون مساعدة أحد كذلك هناك قضايا ومشروعات ومهمات كثيرة لا يستطيع المرء القيام بها بشكل منفرد، ويحتاج إلى مساعدة الآخرين في أمور الدين والدنيا. ولذا فإن أي مجتمع في الأرض لا يخلو من الأعمال الجماعية، بل إن تنظيم العمل وتقسيمه من أكبر أسباب الرقي والتقدم المادي الذي نشهده اليوم.

في القضايا الإنسانية يظل وضع الحدود الفاصلة بين الأوضاع والحالات المختلفة دائماً صعباً حيث تكون أوساطها ذات تغير تدريجي غير منظور أحياناً؛ ولذا فقد نختلف اختلافاً واسعاً عند تحديد عمل، هل هو فردي أو جماعي، كما قد نختلف هل الصلة القائمة بين خمسة من الناس كافية لعدِّهم (جماعة) أو أن الجماعة شيء آخر؟ وعلاقات الناس ودورانهم في فلك بعضهم بعضاً ومجموعة الأعراف والنظم التي تحكم تلك العلاقات، كل ذلك ينتج لنا صوراً من الجماعات والمجموعات التي لا تدخل تحت الحصر... ومن هنا فإن عجبي لا ينقضي من فريقين وقفا موقفاً متضاداً من مشروعية قيام الجماعات الإسلامية: الفريق الذي يعتقد بوجوب انضمام المسلم إلى جماعة يعمل معها ومن خلالها، وهذا الفريق قد لا يصرح بالوجوب لكن تقويمه للأعمال الدعوية وطريقة تفكيره وإحالاته المنطقية، كل ذلك ينطق باعتقاد وجوب ذلك.

أما الفريق الثاني فهم أولئك الذين يحرّمون على الناس تشكيل الجماعات والأحزاب لما رأوا من تعصب وتفريق للكلمة ـ في بعض الأحيان ـ وأخطاء صغيرة وكبيرة...

مع أن أدنى تأمل يؤدي إلى استحالة منع تنفيذ ذلك على الأرض لما ذكرناه من قبل. وأزعم أن مصدر القولين واحد، هو الفقر في الخيال، والتعامل مع الأشياء بحرفية دونها حرفية القطار في التزام السكك الحديد!!.

إن وجود الجماعات الإسلامية أشبه شيء بالمذاهب الفقهية من حيث إن كلاً منهما قائم على الاجتهاد؛ فكما أنه لا يمكن لأهل مذهب من المذاهب الأربعة أن يلزموا أتباع باقي المذاهب باتباعهم كذلك لا يستطيع قادة جماعة أن يلزموا أعضاء باقي الجماعات بالالتحاق بهم. وكما أنه لا يستطيع أحد منع عالم من الاجتهاد ـ المؤصَّل ـ وتشكيل مدرسة من حوله كذلك لا يستطيع أحد منع مجموعة من الناس من الاتفاق ـ في إطار أهل السنة والجماعة ـ على بعض الأهداف المشروعة والسعي لتحقيقها. وكما أنه لا يصح حمل جميع الناس على التقليد المذهبي كذلك لا يصح إلزام الناس بالالتحاق بأية جماعة من الجماعات وهكذا..

ولو أننا أردنا منع أي عمل قد يصاحبه شيء من الشر أو المفسدة أو الخطأ؛ لوجب شل حركة الحياة اليومية؛ لأن الخير المحض نادر، كما أن الشر المحض نادر أيضاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معيَّن فلا ريب أن الناس يحتاجون إلى من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون؛ وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر، ولا يتعين ذلك في شخص معيَّن، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها.... وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان...»[1].

وقال أيضاً: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزَّب، أي

---

(١) الفتاوى ١١: ٥١١، ٥١٢.

تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر به الله ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم. وإن كانوا قد زادوا في ذلك، ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله»[1].

والناظر في حال كثير من الجماعات الإسلامية يجد أن أهدافها العامة مشروعة، ومما يرضي الله ورسوله، لكن عند التطبيق والتنفيذ تظهر أخطاء وانحرافات، والمطلوب من أعضائها ومن المسلمين حولها المعاونة في الخير والمناصحة في الخطأ والنقد البنّاء والإرشاد والتسديد ومقاربة الصواب على قدر الوسع والمكنة.



(١) السابق ١١: ٩٢. وانظر أيضاً ١١: ٨٩.

(٣) في بنية الجماعة الدعوية

ليس المجتمع هو الفرد المتكرر ـ كما يرى بعضهم ـ لسبب ظاهر، هو أن الفرد لا يتكرر، إذ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل كل واحد منا عبارة عن مخطوطة فريدة لا نظير لها، ومن ثم فإن القوانين التي تحكم سيرورة الفرد، تختلف كثيراً عن القوانين والملابسات والإفرازات التي تحكم وتنتج عن اجتماع الناس بعضهم مع بعض؛ وإن مما يقي الجماعات كثيراً من المخاطر إلى جانب منحها القوة والفاعلية ـ أن يعي أبناؤها طبيعة الاجتماع الإنساني والسنن المبثوثة فيه بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية المصاحبة له، والأمراض والعلل التي يفرزها، ولعلنا نذكر بعض ذلك في النقاط التالية[١]:

١ ـ الجماعات تعيد للمجتمع توازنه:

يحافظ المجتمع على توازناته العميقة من خلال آليات كثيرة، من جملتها دوران عدد كبير من أفراده داخل أطر جماعية، وتحت توجيه قيادة واحدة؛ والحياة الحضرية التي تعم العالم شيئاً فشيئاً حطَّمت كثيراً من الترابطات القديمة وعلى رأسها (القبيلة) فمفاهيم الحياة الحديثة وطبيعة حياة المدن الكبرى كل أولئك جعل الانتماء القبلي غير كاف لتوجيه نشاط الفرد أو إشباع حاجة النزوع إلى العيش ضمن دائرة اجتماعية خاصة؛ ومن هنا فإننا نجد العالم بطوله وعرضه يعجُّ بالجماعات والنقابات والجمعيات والاتحادات والأحزاب. . . التي تعمل على خدمة الحياة الحديثة بوجه من الوجوه.

المهم في كل هذا أن تقوم الجماعات الإسلامية بواجبها في توجيه

---

(١) أفدنا كثيراً مما ذكرناه هنا من كتاب (دينامية الجماعات).

الأمة نحو أهدافها الكبرى، وأن تساعد على تنشيط المجتمع وخدمته وحل مشكلاته بما ينسجم مع طبيعتها القائمة على الانتماء الطوعي. وقد حدث في عصرنا الحديث أن قامت جماعات إسلامية، ظاهرها الارتكاز على مبادئ وأهداف محددة، وحقيقتها تجديد مفاهيم (القبيلة) بكل ما تعنيه من توارث للزعامات وانتصار للعصبيات العرقية والقطرية والطرائقية؛ فهي تحيي الولاء القبلي من جديد، وتحول العلاقات التي ينبغي أن تقوم على الإقناع والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ـ إلى علاقات متكلّسَة، لا تقبل صرفاً ولا عدلاً، وصار الانتقال من جماعة إلى أخرى أشبه بمن انتسب إلى غير أبيه! لكن هذه الجماعات تعمل ضد منطق التاريخ، وهو كفيل بأن يجعلها يوماً ما من (خردواته)!.

٢ ـ لا شيء يغني عن وضوح الهدف المشترك وملاءمته:

لم يتعلم الإنسان من الحيوان التضحية اللاإرادية في سبيل الجماعة، ولا يمكن أن يتم ذلك لأن عنصر الإرادة الحرة يجعل مصلحة الفرد وأهدافه غير متطابقة دائماً مع أهداف الجماعة ومصالحها، ومن ثم فإن العضو في الجماعة تشوب علاقته بها شيء من التوتر؛ فهو يحبها، ويرغب في الاندماج فيها؛ لكنه في الوقت نفسه يخاف منها أن تمحو معالم شخصيته المستقلة، وأن تعتدي على مجاله الخاص الذي لن يتطابق دائماً مع مجال الجماعة مهما بلغت درجة تفاني العضو واندماجه، وفي هذه الحال فإن من أشد ما يجذب العضو نحو جماعته هو وضوح الهدف المشترك ومطابقته للمستوى الوسطي للجماعة.

وفي زحمة العمل وكثرة المشاغل والمشكلات التي تعيشها الجماعة فإن الهدف قد يُدرك بطريقة رتيبة أو طريقة مبتذلة، وفي كلتا الحالتين يفقد الهدف قدرته على إثارة الحماسة لدى أعضاء الجماعة، وتفقد الجماعة بذلك قدراً كبيراً من تماسكها وتلاحمها، وتفقد بذلك أيضاً أهم موارد قوتها وحيويتها. وتعمد الجماعة آنذاك إلى ابتكار وسائل مصطنعة للحفاظ على تماسكها كأن تقوم بخطوات عملية ذات مخاطرة ومجازفة، أو افتعال مشكلات مع الجهات الأخرى، أو تلجأ إلى القمع الداخلي. . . .

ومن هنا فإن جزءاً من واجبات أية جماعة ينبغي أن ينصرف إلى جعل أهدافها دائماً حية وواضحة في ذاكرة أتباعها، وما ذلك بالأمر السهل دائماً. لا يكفي وضوح الهدف ليكون مركز جذب لأعضاء الجماعة، بل لا بد إلى جانب ذلك من كون الهدف مناسباً وملائماً للمستوى الوسطي للجماعة؛ فالهدف الكبير الذي يشعر معظم أفراد الجماعة أنهم عاجزون عن تحقيقه يفقد أيضاً فاعليته في تحريكهم ورفعهم؛ ولا يختلف الأمر في حالة كون الهدف متواضعاً، لا يثير تحدياً للأغلبية.

وفي هذا الصدد نجد أن كثيراً من الجماعات الإسلامية وضعت أهدافاً غير محددة من نحو التمكين لدين الله في الأرض، أو كسب رضوان الله - تعالى -، أو نشر العلم الشرعي؛ مما هو طيب ونبيل لكنه عائم، ولا يمكن قياسه. وإن كثيراً من الدعاة يريدون تغيير العالم كله دون أن يكون لهم من الأسباب والوسائل ما يغير قرية واحدة! ليس تطلع أية جماعة إلى تحقيق هدف كبير بالأمر المذموم، لكن المطلوب آنذاك التوسل إليه بتحقيق عدد من الأهداف المرحلية المحدودة. إن فتور العضو وتقوقعه داخل الجماعة له أسبابه ودواعيه، وإن على قيادة كل جماعة أن تتحسَّس ذلك؛ حتى لا يكون وجود أعضائها فيها شكلياً.

٣ - التجمعات الخاصة تعرِّض وحدة الجماعة للخطر:

يطلق مصطلح (الشللية) لدى الجماعات الإسلامية على المجموعات الخاصة التي تتكوَّن بدافع الألفة، أو حول زعيم نافذ بدافع الانجذاب الشخصي، أو تلك التي تتكون على أساس الانتماء لعائلة أو بلدة. . . . ونحن في البداية لا ننكر أن وجود شيء من هذا طبيعي في كثير من الأحيان؛ لكن تغافل الجماعة عن هذه التجمعات، وتركها تنمو وتكبر سيؤدي إلى نتائج غير حميدة. إن تضخم الولاءات الخاصة ذو دلالات سيئة، منها: عدم وضوح الهدف المشترك، أو ضعف جاذبيته، ومنها ضعف تلاحم القيادة مع القاعدة، وضعف النسيج الداخلي الذي يجعل من الأعضاء كلاً واحداً؛ كما يفعل (النول) بالخيوط، ومنها عدم قدرة الجماعة على تحويل التوترات

داخل الجماعة إلى توازن ثابت، وعجزها عن فهم المتغيرات الحادثة خارج الجماعة.. والمشكلة أن زعماء (الشلل) يشكلون عند تأزمات الجماعة ومحنها الكبرى مفاصل تفكك الجماعة وانهيارها مثل ما حدث في جماعات كثيرة ـ كما أنهم يحدثون بلبلة داخل الجماعة من خلال إيجاد تفسيرات جانبية وخاصة لأوامر الجماعة، كما أنهم كثيراً ما يتقاعسون عن تنفيذ تعليماتها. وعلى كل حال فإن ذلك دليل على وجود قصور أو أخطاء بنيوية، وإن النظر إليه بعين اليقظة برهان على إمكانات القدرة على المراجعة والتصحيح.

٤ ـ ليس كبر حجم الجماعة دليلاً على النجاح دائماً:

نقول دائماً: إن وحدة الخلق تدل على وحدة الخالق ـ سبحانه ـ، وإن كثيراً من قوانين النبات تنطبق على الإنسان والحيوان، كما أن كثيراً من قوانينهما ينطبق عليه، إن الشجرة تكرس الجانب الأكبر من مواردها لبناء وصيانة هيكلها الذي يكلفها غالياً، أما العشبة فترضى بالقليل نتيجة لتواضع جهازها الإنباتي.. إن الزواحف الضخمة انقرضت في نهاية الدهر الجيولوجي الأول نتيجة لفرط ضخامتها وهشاشة بيضها، فلم يبق منها اليوم إلا هياكلها[١].

وقل نحواً من هذا في الجماعة عندما تتضخم أعدادها، فإن ذلك قد يكون علامة مرض لا صحة؛ فالأحزاب والجماعات التي تصل إلى سدة الحكم تتكاثر أعدادها بطريقة سرطانية؛ لأن أتباعها الجدد يكونون من أهل المنافع والمغانم الذي يكثرون عند الطمع، ويقلون عند الفزع. وربما كثر عدد جماعة ما لا لأنها الأمثل والأفضل؛ ولكن لأنها تشكل رأس حربة المعارضة أو لأنها تطلق شعارات عريضة في الإصلاح أو لأنها (أحلى الوحشين) كما يقال في بعض الأحيان.

---

(١) عودة الوفاق: ٤٧، ٤٨.

إن من مشكلات ضخامة الحجم ضعف القدرة على التأقلم مع المتغيرات الجديدة والخوف من القرارات الجريئة التي تكون ضرورية في بعض الأحيان؛ وذلك لأن الهمَّ الأكبر للجماعة آنذاك لا ينصرف إلى نوعية ما ينبغي عليها أن تنجزه، وإنما إلى المحافظة على كيانها. لكن يمكن أن يقال أيضاً إن الجماعات الصغيرة يكون إحساسها بخطورة القرارات الطائشة والحادة ضعيفاً؛ مما يعني أن تكون الجماعة الكبرى أكثر حكمة وتعقلاً. وهذا أيضاً صحيح.

في بعض الأحيان يكون كسب الأنصار سهلاً، ولا سيما حين تساير الجماعة المعتقدات والعادات السائدة بدل أن تصحِّحها، بمعنى أن ثمن كثرة العدد كان فقد الوظيفة الإصلاحية التي هي المسوغ الأكبر لوجود أية جماعة. وحين تكون شروط القبول في الجماعة قاسية، فإن ذلك يعني قلة الأعضاء الذين ينتسبون إليها؛ لكن نوعيتهم تكون خاصة ومرموقة.

وفي المقابل فإن ضخامة عدد الجماعة تبعثها إلى أن تخفف من شروط العضوية فيها؛ لأنها آنذاك تقترب من أن تكون نموذجاً مصغراً عن المجتمع الذي تعيش فيه. أي أنها تفقد كثيراً من التميز الذي يمنحها الجاذبية، ويعطيها حق الدعوة والإصلاح باعتبارها بنية ذات نوعية خاصة.

إن الذي يمكن للجماعة أن تفاخر به هو وضوح أهدافها وجمعها بين التماسك والفاعلية، إلى جانب تفوق إنجازاتها بالنسبة إلى أعداد أتباعها، وقبل ذلك التزامها وامتلاكها لرؤية إصلاحية شاملة.

٥ ـ التهديد الخارجي حافز على تضامن الجماعة:

إن كل محنة تحمل في طياتها منحة، وإن ما تلاقيه أية جماعة من تهديد ومنافسة خارجية قد يجعلها تنحرف عن مسارها، أو تخسر بعض أتباعها، لكن الشيء المؤكد أن التحديات الخارجية تبلور وعي الجماعة بذاتها، كما أنها تضعها أمام عدد من المحكات النهائية والضرورية لجعل منهجها يتخلص من كل العوائق والزيادات التي يركمها عليه الزمن؛ لكن

الفائدة المباشرة والتلقائية التي تجنيها الجماعة هي تعزيز تضامنها الداخلي، ونسيانها لخلافاتها أو تأجيلها إلى أمد، بل إن كثيراً من الجماعات ـ كما هو شأن الأفراد ـ تبحث عن منافس خارجي، وقد تقوم بنوع من العدوانية تجاه الآخرين من أجل تعزيز تلاحمها الداخلي أو التعبير عنه.

ويمكن القول بعد هذا: إن الأحزاب والجماعات تفقد الكثير من توترها وتلاحمها عندما تنتقل من المعارضة إلى السلطة؛ لأن التهديد الخارجي يضعف أو ينعدم، كما يمكن أن يقال أيضاً: إن التهديد الذي تمارسه جماعة ضد أخرى يمنح الجماعة المهدَّدة تماسكاً مصطنعاً ربما كانت لا تستحقه، وقد تلجأ إحدى الجماعات كي تخفف التوتر بينها وبين جماعة أخرى إلى التحالف معها ضد عدو مشترك؛ لكن هذا ـ كما أثبتت التجارب ـ ليس إلا علاجاً مؤقتاً لا أكثر.

٦ ـ الثقة الزائدة بالنفس تحول دون التفوق على الذات:

شيء من ثقة أية جماعة بمنهجها ومنجزاتها ضروري لاستمرارها، لكن المشكلة هي الثقة الزائدة التي تجعل الجماعة تشعر بالتفرد والامتياز على غيرها، ومن السهل على أية جماعة أن تعدد إنجازاتها وخصائصها وتضحياتها.

ومن السهل أيضاً على أية جماعة ـ وكذلك الأفراد ـ أن تجد نفسها متقدمة ومتفوقة على جماعات أخرى كثيرة؛ لكن العسير دائماً هو التفوق على الذات وتجاوزها، وذلك بالشعور أن يومها أفضل من أمسها، وأنها تمتلك قدرة متزايدة على تلافي الأخطاء التي وقعت فيها في السابق. إنَّ هذه الحالة أشبه شيء بـ(التوبة النصوح) التي تعني الانتقال من حالة رديئة إلى وضع أفضل وأسلم.

إن قدم الجماعة أو إنجازها الكبير أو حنكتها في التعامل مع الطوارئ، أو حجمها... كل ذلك مدعاة إلى الاعتداد بالنفس والشعور بالتفوق. وهنا تبدو فضيلة الشكوى من سوء الأحوال، وفضيلة النقد الذي يمارسه بعض

أعضاء الجماعة؛ ومع أن هؤلاء يوضعون عادة موضع الارتياب إلا أن الصحيح أنهم يسهمون بصورة فعالة في إحساس الجماعة بعدم الرضا عن النفس، وضرورة إحسان التصرف بالإمكانات المتاحة.

٧ ـ تنضج الجماعة عندما تتحول الأنظمة فيها إلى عادات:

تحوُّلُ كثير من الأشياء إلى عادات يكون بالغ الضرر في كثير من الأحيان وذلك كما في العبادات، وكما في طريقة إدراك الجماعة لأهدافها..... لكن تحول الأنظمة في حياة أية جماعة من قوانين لها طابع القسر والإكراه إلى عادات ومفهومات يتشربها الفرد، ويمتثل لها يعد شيئاً ضرورياً لتماسك الجماعة وفاعليتها في أنشطتها المختلفة. ولا ريب أن في كل جماعة عدداً من النظم والقوانين الداخلية التي تحدد شكل العلاقات بين أفراد الجماعة، مثل طريقة اختيار قادة الجماعة ومجلس شوراها، ومثل شروط العضوية والترقي وأشكال الجزاءات والعقوبات...

ومن الواضح أن تلك النظم يظل كمالها نسبياً مهما كانت عبقرية وشفافية واضعيها، ومن ثم فإن تسليط العقل عليها سيجعلها موضع نقد، وسيجعل الامتثال لها جزئياً، لكن حين تستطيع الجماعة رفع أعضائها إلى مستوى أدبياتها، وحين تجعل علاقتهم بها علاقة حب وتضحية وإخلاص فإن روح العمل الجماعي تسري في كيان كل عضو، فيعمل ويطيع وينفذ ويضحي دون قسر من شخص أو نظام، وهذا ما يشاهده المتأمل في المجتمع المدني في حياة النبي ﷺ حيث كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ينفذون تعاليم الإسلام دون شعور ـ في كثير من الأحيان ـ بمرتبية ما ينفذونه، وهل هو من باب الواجب أو المستحب...

٨ ـ الجمع بين فضيلتي الوعي والكرم ضروري في ترابط الجماعة:

حين يختار فرد ما العمل ضمن جماعة، فإنه يلزم نفسه بعدد من القيود التي توجبها طبيعة العمل الجماعي، كما أن كل واحد في الجماعة يشعر تجاه الآخرين فيها بمشاعر خاصة تجعله يتوقع منهم العطف والمؤازرة والروح

المجانية. . . لا يمكن لجماعة تقوم الرابطة الأساسية بين أفرادها على الالتزام الأدبي أن تنظم تضحيات أفرادها، وتحولها إلى واجبات إلزامية، ومن ثم فإن تحلي كل فرد في الجماعة بالكرم الذاتي تجاه إخوانه يعد ضرورياً لتقوية الترابط الداخلي على نحو ما نجده من كرم الأنصار وإيثارهم لإخوانهم المهاجرين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ. إن كرم الفرد وتطوعه عنوان رضاه عن جماعته واندماجه فيها أيضاً. وأشكال الكرم أكثر من أن تحصى؛ فقد يكون الموافقة على استلام زمام القيادة في ظروف حرجة، وقد يكون التبرع بجزء من المال أو الوقت أو. . .

لكن هذا هو شق المطلوب، أما الشق الثاني فهو الوعي بمسيرة الجماعة وأهدافها ومشكلاتها. . . . وهذا الوعي ليس مسؤولية الصفوة، وإنما هو مسؤولية كل عضو ـ على قدر الاستطاعة ـ إن كرم العضو واندماجه دون وعي قد يحوله إلى إمَّعة أو سلعة للمتاجرة، وقد يجعله أداة لتكريس الانحراف، ما لم يجمع إلى ذلك اليقظة التامة نحو وظيفته الكاملة داخل جماعته وخارجها. إن ذلك الوعي ليس مهماً لحفظ مصلحة الفرد بقدر ما هو مهم لحفظ كيان الجماعة وضمان سلامة توجهها. والذي يحدث في كثير من الأحيان أن أكثر أعضاء الجماعة يعدون أنفسهم جنود تنفيذ، ويكلون ما عدا ذلك لرجالات الصف الأول والثاني، لكنهم يكتشفون بعد مدة أن ذلك لم يكن صواباً حيث يفقدون وزنهم في تصحيح مسار الجماعة، ويجدون أنفسهم في بعض الأحيان مرغمين على الانصياع لتوجهات وقرارات غير صحيحة ولا مقنعة؛ ولا يتجلى ذلك إلا في الأزمات العميقة التي تتعرض لها الجماعة؛ ومن ثم فإن جنود التنفيذ هؤلاء يضجون بالشكوى دون أدنى فائدة، مما يدفعهم إلى الانسلاخ عن الجماعة أو العمل بطريقة تجعل العضو الذي داخل الجماعة لا يختلف كثيراً عن العضو الذي في خارجها!!.

إن من مصلحة أية جماعة أن تربي العضو الذي يجمع إلى الطاعة التبصر والوعي والإلمام بالمخاطر والمشكلات التي تعاني منها جماعته؛ فذاك هو الضمانة الوحيدة لاستمراره وحيويته وبقائه ضمن إطارها.

٩ ـ لا جماعة بدون شورى:

لم يعد بإمكان أحد أن يقود أعضاء جماعته بعيداً عن الأعراف والمفاهيم التي أصبحت جزءاً من روح العصر، وكان من أهم مفاهيم عصرنا اعتماد عنصر المناقشة والمشاورة في كل ما يخص الجماعة وأعضاءها؛ حيث إن درجة استقلالية الشخصية والاعتبار الخاص بالذات في تصاعد مستمر، وبما أن عصرنا هو عصر التبدلات السريعة، فإن من الحيوي لكل جماعة حريصة على حفظ توازنها في حمى التطورات الهائلة أن تؤهل أعضاءها لاستيعاب التغيرات الخارجية التي تضغط عليها والاستجابات الداخلية التي عليها أن تقوم بها. . .

وقد أجريت دراسات عديدة حول أثر المناقشة والمشاركة في إحداث تغيير معين. ولعلنا نستعرض في هذا الصدد إحدى الدراسات التي أجريت حول معرفة أهمية العوامل النفسية والاجتماعية في الإنتاج، وذلك في أثناء إدخال آلات الحياكة الجديدة تدريجياً في أحد المصانع، وقد قسِّم العمال إلى ثلاث مجموعات: مجموعة شرح لها استعمال الآلات، وجرى حثهم على بذل جهدهم مع إعلامهم بأن الأنظمة الجديدة سوف تضعها الأجهزة المختصة.

أما الثانية فقد جرى أمامها عرض أسباب التغييرات التقنية الجديدة، ثم دُعي العمال إلى تعيين مفوَّضين عنهم يساهمون مع مصلحة وسائل العمل في وضع أنظمة بعد فترة من التجربة.

أما المجموعة الثالثة فقد دعيت بكاملها إلى المساهمة في وضع الأنظمة. وقد كانت النتائج كما يلي: المجموعة الأولى أبدت تذمراً شديداً تبلور بترك اثنين من العمال العمل، وباحتجاجات كثيرة.

أما المجموعة الثانية فقد كان سلوكها مُرضياً على الرغم من بعض القلق والمناقشات.

أما المجموعة الثالثة فكانت المعنويات فيها ممتازة، ولم تبرز لديها أية

مشكلة[1] هذا كله يعني أن تعميق الشورى في صنع قرارات الجماعة ورسم سياساتها يعد أحد المرتكزات الأساسية في تنشيط الأعضاء وإثارة حماستهم وتقليل اعتراضاتهم.

١٠ ـ مصداقية كل جماعة تتبلور في تحويل شعاراتها إلى واقع ملموس:

تطرح كل جماعة من الجماعات الإسلامية مجموعة من الأهداف والمقولات والسياسات والتوجهات التي تعكس في مجملها أولويات الجماعة وبنيتها الدعوية وتطلعاتها نحو المستقبل. وإذا نظرنا في حال أصحاب الدعوات والأحزاب والاتجاهات على مستوى العالم وجدنا أنها في جملتها تدعو إلى بعض الفضائل ـ ولو ظاهرياً ـ كما أنها تحاول أن تضفي على سياساتها قدراً من المنطقية؛ وقد دلتنا التجربة على أنه ما من دعوة توفرت لها دعاية مناسبة إلا استطاعت اجتذاب أنصار لها؛ لكن التحدي الذي ظل يواجه الدعوات قاطبة على مدار التاريخ هو تجسيد الأفكار والمبادئ والنظم التي تدعو إليها في حركتها اليومية، وفي المشروعات الحضارية. هذا المحك لا يكشف فقط عن مصداقية تلك المبادئ، لكنه إلى جانب ذلك يشعر الجماعة بمدى مناسبة الشعارات الكبرى لطاقاتها المذخورة، ومدى قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. وقد جرت العادة أن يتحول كل مبدأ عسر تجسيده في الواقع إلى شعار يجهر أصحابه به في كل مناسبة لكنه في كل مرة يترك مرارة في الفم بما يولده من إحساس بالفارق بينه وبين الواقع المعيش.

وفي هذا الصدد نجد مفارقات كثيرة في حياة كثير من الجماعات الإسلامية، حيث إن أكثر الجماعات تدعو إلى تعميق الشورى في حياة الأمة لكن قياداتها لا تستشير قواعدها؛ كما أنها تدعو إلى استغلال طاقات الأمة، وهي لم تستطع استغلال طاقات أفرادها الذين يمثلون الصفوة!. وهي تدعو إلى تحسين اقتصاد الأمة، لكنها لم تستطع إقامة مشروع واحد ناجح

---

(١) دينامية الجماعات: ٦٣.

وهكذا. . . عندما تصبح المبادئ في واد والممارسة في واد آخر فإن الدعوات تستوي في نظر كثير من الناس.

إن أدواء كثير من الجماعات الإسلامية عبارة عن مشتقات من أدواء المجتمعات التي تعيش فيها، ومن ثمة فإن كل ما تبذله من جهد في رقي محيطها ينعكس على وضعيتها الخاصة بالإيجاب.

وليس من المصلحة تصوير الفوارق بشكل مضخّم بين الجماعة وبين محيطها؛ فتوحي إلى أعضائها برقيها وانحطاط مجتمعها؛ لأن ذلك ليس صحيحاً في كل الأحوال، وعلى كل المستويات؛ ولأنها بذلك قد تجني على أعضائها في حالات تفكك إطارها التنظيمي حيث يضيع أعضاؤها اليائسون من صلاح مجتمعهم وصلاحية جماعتهم!.

ونحن لا نغفل هنا شكوى بعض الجماعات الإسلامية من أن فساد محيطها أثَّر في إنجاز مشروعاتها، وتحقيق طموحاتها؛ فذلك صحيح إلى حد بعيد؛ لكن الذي ينبغي أن يقال: إن ترتيب أولويات إصلاح المحيط والمجتمع العام والتبشير بها هو من مسؤولياتها الدعوية والإصلاحية، وهي أولى الناس بفهم ذلك والتكيف معه.

١١ ـ لماذا تنقسم الجماعة الواحدة؟

لا بد من القول ابتداء: إن وحدة الجماعة وانقسامها شيء نسبي، فقد تبدو الجماعة ـ وكذلك الدول والشعوب ـ كياناً واحداً؛ لكن فيه مدارس وتيارات ومجموعات من الكيانات الخاصة الصغيرة، وهذه باعتبارٍ ما قد تجعل الجماعة الواحدة جماعات؛ وفي المقابل فإن مجموعة من الجماعات قد تُجري بينها من التنسيق والتعاون والتفاهم ما يجعلها بمعنىً من المعاني كالجماعة الواحدة مع أنها كيانات مختلفة وهكذا. . .

إذن بالإمكان القول: إنه لا ينبغي الاعتماد في الحكم على وحدة جماعةٍ ما أو انقسامها على الشكل الظاهري، وإنما على ما يلي:

أ ـ مدى قدرة الجماعة على تأطير خلافاتها الداخلية، تلك الخلافات التي لا تخلو منها جماعة؛ وليس الخلاف شيئاً سيئاً دائماً، بل إنه علامة حيوية الجماعة ومحاولتها التعرف على ذاتها وحدودها، لكن السيئ هو أن تتضخم الخلافات بصورة تعيق حركة الجماعة، وقدرتها على اتخاذ القرارات في وقتها المناسب.

ب ـ شكل علاقة القاعدة بالقيادة مرواز مهم في هذا الباب؛ فالجماعة الواحدة تكون علاقتها بقيادتها قائمة على الوضوح التام؛ حيث تعرف القاعدة اختصاصات قيادتها وحدود طاعتها الواجبة، كما تعرف مجالات حركتها الحرة ومدى ما فُوِّض إليها من تدبير الشؤون وتنفيذها...

كذلك تكون الجماعة واحدة حين تكون علاقة القاعدة بالقيادة شفافة؛ فأحوال القيادة واضحة ونقاط ضعفها وقوتها جلية، وفي المقابل فإن القاعدة لا تنطوي على التآمر أو حياكة المكائد، وإنما تصارح قياداتها بما تشكو منه وتعانيه، وتبسط متطلبات العلاقة بينهما بكل وضوح.

جـ ـ قدرة الجماعة على التحرك صوب أهدافها مؤشر مهم على عافيتها وصلابة تلاحمها؛ فالجماعة الواحدة تختلف حول الوسائل والأساليب الناجعة، لكن لا تختلف أبداً حول أهدافها الكبرى؛ لأن الخلاف حول الهدف الأساسي، كاف في تحويل الجماعة الواحدة إلى جماعات، بما يتركه من اختلاف في السياسات ومنهاج العمل وطبيعة العلاقة مع المحيط...

ومن ثم فإن تحسس الجماعة لأهدافها الكبرى، ومحاولة جعلها حاضرة في أذهان أعضائها يعد من الأهمية بمكان لتصليب تماسكها وتوحدها.

ولا بد من القول بعد هذا: إن من الطبيعي أن يكثر الاجتهاد والاختلاف كلما زادت أعداد الجماعة، واتسعت الرقعة الجغرافية؛ لأن ذلك مصدر كبير للتنوع، ومؤشر على ليونة شروط العضوية داخل الجماعة، وهذا كله يجعلها قريبة من تمثيل المجتمع الذي تعيش فيه، والذي لا يخلو أبداً من الخلافات الجذرية، وأحياناً حول كل شيء..

إن نظام الجماعة يجب أن يميل إلى (اللامركزية) كلما تضخمت قاعدة الجماعة، وإلا فإن الانشقاق سيكون مآلها كما أن سعة القاعدة تتطلب بالضرورة توسيع مجالات النشاط والإكثار من الأهداف المرحلية التي تصب في النهاية في محيط الهدف الأكبر.

وعلى الجماعة أن تتقبل التنوع والخلافات الصغيرة بصدر رحب، وإذا نُكبت بانشقاق كبير فإن بإمكان الجماعة أن تتلافى آثاره أو كثيراً منها من خلال إرساء علاقات جديدة بين الفريقين، تقوم على تنمية المشترك واحترام الخصوصيات والإعذار والتفهم المتبادل. . . وإن الإصرار على إظهار إطار معين من التوحد لن يعيد الجماعة إلى وحدتها لكنه سوف يزيد في تمزيقها.

إن علينا أن نعترف أن معرفتنا بـ(علم نفس الجماعات) ما زالت محدودة، كما أن فهمنا لسنن الله ـ تعالى ـ التي تحكم مجتمع الدعوة تحتاج إلى مزيد من الاكتشاف. وعلى الله قصد السبيل.



المقدمة السابعة

قواعد في المنهج الدعوي

قواعد في المنهج الدعوي

يعرّف بعض الباحثين مناهج الدعوة بأنها: «نظم الدعوة وخططها المرسومة»[1].

وقد يعرَّف المنهج بالمعنى العلمي بأنه: «مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معين لبلوغ هدف معين»[2].

ونحن نقصد هنا بالمنهج الدعوي «مجموعة القواعد والمعلومات المترابطة والمتسلسلة التي تشكل قناعات الداعية، وتوجِّه حركته».

وكما ألمعنا سابقاً فإننا نحاول أن نسد بعض الثغرات، ونكمّل بعض الأعمال التي تناولت مسائل الدعوة وفق منهجية خاصة لا نرمي فيها إلى التفصيل على الطريقة المألوفة، وإنما نود التنبيه إلى بعض النقاط الأساسية في المنهج الدعوي، والتي تساعد في إيجاد طيف ثقافي مؤثر في حركة الداعية، وإن كان يصعب لمسه في كل الأحيان، وسنركز تلك الأسس في بعض المقولات العامة، ونتولى شرحها وفق ما آثرناه في هذا الكتاب من أسلوب، وذلك فيما يلي:

١ ـ المنهج يساعدنا على اختصار المراحل:

حين لا يملك الإنسان منهجاً فإن هذا يعني أن سبيله إلى الفهم سيكون التجربة، أي التعلم من خلال الخطأ والصواب، وهذا يعني عدم الاستفادة من

(١) المدخل إلى علم الدعوة: ٤٦.

(٢) انظر الموسوعة الفلسفية: ٤٧١.

الثوابت والمؤشرات التي أكرم الله بها هذه الأمة من خلال نصوص الكتاب والسنة، كما يعني عدم الاستفادة من مركوم الخبرات الأممية المتاح الاطلاع عليه اليوم لكل من أراد ذلك.

والخبرة التي يكتسبها المرء من خلال تجاربه وتجارب غيره تساعده على التعرف على ما يمكن اختصاره وتجاوزه من مراحل الطريق، تماماً كما استفادت الشعوب التي دخلت عصر الصناعة حديثاً؛ فهي لم تحتج أن تمر بمرحلة القطار البخاري ولا تصنيع المعدات الضخمة ذات الكفاءة المنخفضة، وإنما دخلت إلى عصر (الإلكترون) وصناعة المعلومات مباشرة. وهذا أحد الأهداف الكبرى لقصّ القرآن الكريم مناهج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والأساليب التي اتبعوها، والنتائج التي حصلوا عليها؛ كي نكتشف من وراء ذلك كله الطريق الأقصر، وكيلا تروعنا ضآلة الاستجابة في بعض الأحيان...

إن المنهج والخبرة المتراكمة يساعدان - باختصار - على أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون.

في عالمنا الإسلامي اليوم تجارب دعوية مختلفة، استخدم فيها أساليب ووسائل مختلفة، وقد مر على بعضها قرابة سبعين سنة، وهي مدة ليست قصيرة، والمأمول أن تكون حصيلة العبرة والعظة منها ضخمة؛ وقد استفادت بعض الجماعات فعلاً منها، وغيّرت في ضوئها بعض أساليبها، وقبل ذلك قناعاتها الدعوية؛ لكننا نشاهد شباباً كثراً يغمضون أعينهم عن التاريخ بأكمله، ويجرّون إخوانهم إلى الدمار المحقق دون أدنى محاولة للاعتبار، ومن السهل عليهم أن يضفوا طابع الخصوصية على التجارب الأخرى، حتى يقولوا حالنا وظروفنا غير ظروف أولئك، وبالتالي فإن النتائج سوف تكون مختلفة. والظروف حقاً تختلف لكن تبقى هناك قواسم مشتركة وسنن عامة تضع أعمالنا وأنشطتنا في أطر أشمل، مهما تفاوتت في بعض القسمات، وبعض الجماعات نجحت في التأثير في كثير من الأفراد لكنها لم تستطع التغيير في المناخ العام شيئاً بسبب انحسار فهمها للإصلاح وتداعياته وترابطاته فأدى ذلك

إلى إصلاح أشخاص معزولين عن عصرهم فهماً وتأثيراً، ولم تستطع تلك الجماعات إلى اليوم تقويم نتائج أعمالها والاهتداء إلى الأسلوب الأمثل.

٢ ـ اكتشاف المنهج أسهل من اكتشاف صواب الحركة به:

لم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بلَّغ الرسالة، وأقام الحجة، وأرسى معالم واضحة في كل ما يصلح شأني الدنيا والآخرة، وفهم تلك المعالم ليس فوق الوسع؛ لكنها من السعة والمرونة في موقع يتطلب فهمها الكامل الراقي أهلية جيدة من الدعاة؛ فهذا الدين جاء ليسع الإنسان مهما ترامت أمداء الزمان والمكان، وفي ذلك من التنوع والثراء والخصوصيات ما يقتضي استخداماً واسعاً لأشكال من الآليات والبدائل والموازنات. . . .

ومع هذا فإننا نزعم أن الفهم الجيد للمنهج الرباني في إصلاح الخلق ودعوتهم يظل أسهل من محددات وملابسات التحرك به وتنزيله على الواقع المعيش وأحوال الناس الكثيرة التعقيد؛ ولعل ذلك يعود إلى أن الله تعالى أقام على عباده الحجة بأن بيَّن لهم ما يريده منهم على المستوى العام لكنه ـ جلَّ شأنه ـ أوكل إليهم من باب الابتلاء، اكتشاف الأساليب والآليات والوسائل التي تُحيل ذلك المنهج إلى واقع حي؛ تماماً على النحو الذي حكم به من حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل، وتكليف الناس بفهمه وتدبره.

وأسباب صعوبة فقه الحركة بالمنهج تعود إلى تعقيد الواقع الذي تتم فيه الحركة، وأول تعقيد فيه صعوبة الاستحواذ عليه واختراقه؛ فكثير منه لا يعرفه إلا أولئك الذين يساهمون في صنعه؛ وليس للدعاة الحظ الأوفر من ذلك؛ كما أن تشابك جوانبه العقدية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتفاعلها على نحو يصعب تشخيصه أو التنبؤ به، كل ذلك يفرض على الداعية موازنات وترتيب أولويات وتنازلات كثيرة ومتعددة إلى جانب التصلب في بعض المسائل؛ وهذه لا يحسنها إلا القلة القليلة من ذوي الكفاءة النادرة.

والذي نريد أن نخلص إليه هو أن اكتشاف الداعية للمنهج الرباني لا يعني بالضرورة صواب الحركة به؛ كما أن هناك من دعاة الفساد من لا يعرف

عن المنهج الأقوم شيئاً لكنه يعرف من أين تؤكل الكتف، ويحسن الدخول والخروج، فيحقق بعض النجاح على الرغم من ضلاله. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يصح القول: إن اكتشاف المنهج الدعوي الأمثل هو نصف المطلوب، أما النصف الثاني فيتمثل في فهم الأساليب والوسائل والخطط والآليات التي يجب استخدامها في نشر الدعوة، وهذا يحتاج إلى أمور عديدة منها:

أ ـ الإلمام الجيد بالعلوم الإنسانية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتربية والاقتصاد وبناء الرأي العام والعلوم السياسية...

ب ـ الحوار المستمر بين فصائل العمل الإسلامي ومؤسساته المختلفة من أجل تدارس الإنجازات والتجارب ومحاولة استشفاف الواقع.

جـ ـ إيجاد آليات للحصول على الأرقام والإحصاءات التي تقرب الواقع إلى الذهن، وتحوِّله من مادة هلامية متفلتة إلى مادة ملموسة يمكن القبض عليها.

د ـ التأمل والتفكير المستمران في التداعيات والترابطات والتقاطعات القائمة بين المجالات والأوضاع المختلفة، ومحاولة الوصول إلى بعض المحكات والمقولات النهائية في طرق الدعوة والإصلاح.

إن بعض الدعاة يزكي نفسه وجماعته من خلال اعتقاده أنه على المنهج الصحيح؛ غير منتبه إلى أنه قد يسيء إلى هذا الدين، وإلى القضية التي يعيش من أجلها من خلال جهله بأصول التحرك بالمنهج القويم، وعجزه عن تحويل المبادئ إلى سياسات وبرامج وأهداف محددة تمكن مباشرتها والعمل عليها.

٣ ـ سلفية المنهج وعصرية المواجهة[١]:

السلفية المنشودة، هي سلفية المنهج، أي العودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسنة وقواعد تفسير النصوص لدى القرون الثلاثة الأولى، إلى جانب روح العطاء والمجانية وشفافية البصيرة التي كان يتحلى بها السلف الصالح.

---

(١) انظر الثوابت والمتغيرات: ٣١١.

ونقصد بعصرية المواجهة أن ندرك محاور المعارك القائمة بين الإسلام وأهله من جهة، وبين الفلسفات والنظم العلمانية والمادية من جهة أخرى؛ وأن ندرك إلى جانب ذلك القضايا الأكثر إلحاحاً والأشد حاجة إلى أن نستثمر جهودنا الدعوية فيها. ولا شك أن هذه القضايا تختلف من بلد إلى آخر، وبين عصر وعصر. وتعني المعاصرة أيضاً أن نستخدم الأساليب والوسائل المعاصرة في خدمة المنهج الذي نؤمن به، ومعالجة القضايا التي نتصدى لمواجهتها؛ فليس من المبشرات بالنجاح أن ينتقل الداعية على دابة، وينتقل منافسه المبشر في (حوّامة)! وليس من المعاصرة أن نواجه المعامل والمختبرات الموجودة لدى المنافسين بالمدارس والكتاتيب التي تقام تحت ظلال الأشجار، وليس من المعاصرة أن نواجه الغزو الإعلامي الرهيب بالشجب والاستنكار دون أن نمتلك القنوات والشبكات الإعلامية التي تنشر الهدي الرباني في أنحاء المعمورة.

إن كثيراً من الدعاة يجاهد في غير عدوّ، وينشغل بمهاجمة فرق ومذاهب ومعتقدات لا يوجد أدنى رصيد لها على الساحة، ولا يملك أية خبرة في الأفكار الهدامة التي تستأصل أمة الإسلام، وتجهض حيويتها، وتحرفها عن طريقها؛ فضلاً عن أن يمتلك الوسائل لمقاومتها. وقد رأيت في المدة الأخيرة عدداً من الكتب التي تتحدث عن اليهود في الكتاب والسنة، ولم نشاهد كتباً قيّمة تبحث عن بنية التنظيم اليهودي العالمي المعاصر، ولا في الآليات المستخدمة لديهم في اختراق الدول والمؤسسات، ولا في الأفكار السائدة لديهم أو المشكلات التي تجابههم؛ أي تجري الكتابة في كل ما هو معلوم مشهور، ويجري الإعراض عن بيان ما نحتاج إليه في مواجهتنا المعاصرة معهم! وعلينا بعد هذا وذاك أن ندرك أن امتلاك المعاصرة في ماهية المواجهة ليس بالأمر اليسير؛ فذاك متوقف على درجة مناسبة من المرونة الذهنية، وعلى توفر إمكانات معينة إلى جانب شيء من الشفافية والحساسية الراقية، وكل ذلك يحتاج إلى تدعيم وتعزيز في الشخصية الإسلامية المعاصرة؛ لكن الاستعداد لكل ذلك موجود؛ وبشائر التقدم تلوح.

٤ ـ خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الخلف:

الداعية رجل يمتلك رؤية خاصة للأوضاع المحيطة به، وهذه الرؤية ستجعله تارة مع التيار، وتارة ضده، ولكنَّ بعض الدعاة يقرر أن يجعلها معركة حامية الوطيس مهما كانت النتائج، وربما يخسر علاقات ومكاسب دعوية، وربما أعطى انطباعاً خاطئاً عنه، وربما أدت مواصلة السير إلى انتكاسات خطيرة للدعوة لا تتعافى منها إلا بعد أمد بعيد! ويظن بعض الإخوة أن ذلك من صلابة الداعية وثباته على المبدأ، مع أن السيرة العطرة مليئة بالأدلة العملية التي تدل على أن المطلوب من الداعية ليس تسجيل المواقف ولا البرهنة على الغيرة على الدعوة وإنما استهداف مصلحة الدعوة وتحقيق المكاسب لها. إن المطلوب هو نوع من المراوحة بين (الاستراتيجية) و(التكتيك)، ولا يمكن لخطة بعيدة المدى أن تحقق أهدافها ما لم تشتمل على مناطق فراغ يتحرك فيها الداعية على خلاف توجُّه تلك الخطة لكن بما يخدمها من وجه خفي... وإن (التكتيك) الجيد لا يتأتى إلا إذا كان في إطار (استراتيجية) جيدة، وهكذا فإن الخطوة التي نخطوها إلى الوراء هي في الحقيقة خطوة إلى الأمام وإن ظهر خلاف ذلك.

٥ ـ لا بد من التنوع، ولا بد من دفع ضريبته:

التماثل يفضي إلى الرتابة، في حين يؤدي التنوع إلى التبادل والثراء، وليس هذا في شأن الدعوة، وإنما في كل شأن، إن القاعدة الذهبية في الاقتصاد، كما في (البيئة) هي قاعدة التنوع والاستغلال المتزامن لعدد من الإمكانات، واتباع عدد من الإجراءات التي يتم اختيار كل منها تبعاً لـ(الاستراتيجية) المطبَّقة.

في الاقتصاد ـ مثلاً ـ يُعدّ (المنتج الوحيد) في الصناعة أو الزراعة أو التعدين أمارة على التخلف، ويسبب في الوقت نفسه إرباكاً ضخماً للدولة، ويضعها تحت رحمة تقلبات الأسواق العالمية[١].

---

(١) انظر عودة الوفاق: ٢٢٢.

وتجمح في نفوس الناس في بعض الأحيان رغبة في التخصص المفرط، فيندفعون إلى الإغراق في لون من ألوان الدعوة أو النشاط أو الحركة؛ ومع أننا لا نغض الطرف عن فضيلة الإتقان الذي يتيحه التخصص إلا أن مجال الأعمال الدعوية يخضع في وجوده وتفاعلاته لعدد من الأنظمة المفتوحة؛ مما يجعل التنبؤ بمستقبل أي نشاط دعوي أمراً في غاية الصعوبة؛ ومن ثم فإن تلوين الأنشطة الدعوية وتعميمها على كل جوانب الحياة يعد أفضل صمام أمان لاستمرارها واقتدارها على التكيف، واستفادتها من مختلف الفرص والظروف الكثيرة والمتقلبة، وما لم يتجه الدعاة إلى تنويع استثمار جهودهم الدعوية في عدد واسع من الأنشطة والمجالات فربما يجد الداعية نفسه ـ في لمحة عين ـ وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وصار محروماً من الحركة في المجال الذي تخصص فيه. . .ويقال مثل هذا في حركات التحرر الوطني التي تكافح من أجل إخراج المستعمر من بلادها؛ فإن بعضها ركز على الجهد العسكري، وأهمل سواه، ونتيجة لقرار دولي أو ظروف داخلية حرجة وجدت نفسها أمام طريق مسدود، فتمزقت إرباً، وصار ثوارها يبحثون عن لقمة العيش، أو تحولوا إلى مستثمرين لجهادهم الطويل في مسائل ليست من الجهاد ولا التحرر في شيء!!.

لكن لـ(الشمول) دائماً ضريبته التي لا بد من دفعها عن طيب خاطر[1]؛ حيث إن هناك الذين تعودوا الاشتغال بقضايا جزئية يستحيل التقدم فيها إلا من خلال المسائل والنظم التي تتبعها، وهؤلاء يُدِلُّون على غيرهم ـ عادة ـ بالعمق وحسن الفهم وسبر أغوار الأمور، وينظرون إلى أصحاب الاهتمامات العامة بشيء من الاستخفاف! وهناك الذين اتخذوا الدعوة مهنة لهم، يعيشون من ورائها، وهؤلاء يعدون غيرهم ـ في بعض الأحيان ـ متطفلين على الدعوة، ما داموا لم يتفرغوا لها!.

وهناك الذين اتخذوا من التنسك والتربية الروحية سفينة نوح ـ عليه

(١) انظر في هذا: المسار: ٥١.

السلام ـ لإنقاذ الأمة؛ فلا يرون الجهود في غير ذلك سوى نوع من العجز أو إضاعة الوقت، وهناك وهناك. . .

لكن التجربة الحضارية ستعلِّم الجميع ـ ولو بعد حين ـ أن وضع البَيْض في سلة واحدة، ليس من الحكمة، ولا مما يُتفاخر به!.

٦ ـ لدينا مشكلات لا يحلها إلا الزمن:

البطء هو قانون التغيُّر، وأكثر ما يتجلى ذلك في المسائل النفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ولا تخفق محاولات التسريع وحرق المراحل في شيء كإخفاقها في هذه القضايا، والسبب في ذلك أن لكل واحد من الناس وضعية خاصة متفردة، في كل شيء، ومن ثم فإن استجابته للمثيرات ستكون أيضاً فريدة ومميزة؛ ولذا فإن علينا أن نتذرع بالكثير من الصبر حتى نلمس التغير المرغوب، وكثيراً ما أظهرْنا البَرَم من أحوال أمتنا وأوضاعها التي لا تسر صديقاً، ولا تغيظ عدواً، لكن ذلك لم يغير من واقع الحال شيئاً؛ فيكون الموقف السديد إذن هو المصابرة، وامتلاك قوة الانتظار؛ فضيق الأفق الموجود لدى كثير من الناس لا يمكن أن ينتهي بقراءة عشرة كتب تتحدث عن الشمولية والكون الرحب وتعقد المؤثرات؛ لأن في داخلنا آلية لرد أو تأويل كل ما يفد علينا مما يخالف بنيتنا الفكرية والثقافية العميقة، ومن ثم فإن نزول الأفكار من أعالي النظر لتتخمَّر في بؤر الشعور وأغوار (اللاشعور) يحتاج إلى زمن، والزمن وحده هو (الشرارة) التي ستلهب تفاعلات الجديد مع قديمنا الراسخ.

وقُلْ نحواً من ذلك في عجز كثيرين منا عن التخلص من الشعور بالتآمر الذي غرس في أعماقنا الاتكالية، وتعليق أخطائنا وخطايانا على شماعات الآخرين. .

وقل مثله في ضَعف الفاعلية لدى المسلم وضعف المبادرة الفردية والثقة بالنفس. .

إن مما يدعونا إلى الصبر في طريق الخلاص أن هذه الأدواء لم توجد

في يوم وليلة، وإنما نتيجة تراكم بطيء وغير منظور؛ وحين يتأتى للأمة الشفاء منها فإنها ستمتلك وضعية مشرقة ربما تستمر معها قروناً من الزمان.

٧ ـ نصف نجاحنا من وراء جهودنا والنصف الثاني من أخطاء الآخرين:

لا تعيش الدعوة إلى الإسلام وقيمه ومبادئه في فراغ عقائدي، كما قد يُتوهم، فعصر الاتصال الكوني لم يترك شبراً من الأرض لا تزدحم فيه العقائد والأفكار والرؤى والخطط الإصلاحية المختلفة، وهذه المزدحمات مرتبط بعضها ببعض بعلاقات توازنية وسيطرة متبادلة، وهي تتنازع جميعاً على احتلال مساحة واحدة، وكسب بشرٍ معيَّنين إلى صفوفها؛ وهذا يعني أن إخفاق أحد المتنافسين، سوف يصب مباشرة في رصيد الآخرين الذين يتنازعون معه؛ ولذا فإننا نعتقد أن الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها التيارات العلمانية والقومية والاشتراكية قد دفعت بأعداد ضخمة من الناس نحو الاعتقاد بأن الإسلام هو الملاذ الأخير؛ وهذا يعني من جهة ثانية أنه إذا ما ارتكب الدعاة أخطاء فادحة في أساليب طرحهم لدعوتهم، ومعالجة مشكلات بلادهم فإن كثيراً من الكسب الشعبي سوف يتحول إلى غيرهم بصورة بطيئة؛ ليكسب الآخرون أتباعاً وأنصاراً لم يتعبوا في جمعهم، وربما لم يخاطبوهم! هذه الحقيقة تفتح أعيننا على أمرين، الأول: عدم الفرح بانتصارات لم نخض معاركها، وإنما هي نتائج لمعارك خاسرة خاضها غيرنا. والثاني: اليقظة الشديدة تجاه أحاسيس (رجل الشارع) وتقويمه للأنشطة الدعوية المتاحة؛ إذ إن حكمه السلبي سوف يعني على الأمد البعيد انحسار تأثير الجهود الدعوية، واتجاه الناس نحو دعوات أخرى أكثر جاذبية.

٨ ـ إذا قمنا بالواجب لم نكن مسؤولين عن النتائج[1]:

يمكن القول إن المطلوب من الداعية أن يخلص في دعوته لله ـ جل وعلا ـ، فلا يقصد من ورائها عَرَضاً زائلاً ولا مصلحة خاصة، وأن يبذل

---

(١) أصول الدعوة: ٤١٦.

جهده في اتباع الأسلوب المناسب، واستخدام الوسيلة التي تخدم الأسلوب بشكل صحيح، إلى جانب الاستعانة بكل خبرته الدعوية... فإذا ما فعل الداعية كل ذلك في الإطار الشرعي والعرفي، ولم يحصل على النتائج المرجوة فإن عليه أن يكون راضي النفس مطمئناً إلى ما قسمه الله ـ تعالى ـ من توفيق وتيسير ونجاح؛ فالله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، وقد بذل هو ما في وسعه ومكنته. ومن المعلوم أن الأعمال الدعوية تخضع لعدد من الأنظمة المفتوحة، واستجابة الناس للدعوة ـ على كل المستويات وفي كل الصور ـ تخضع لاعتبارات خارجة عن إرادة الداعية، وتارة عن إرادة المدعو... إن نتائج الأنشطة الدعوية أشبه ما تكون بنتائج معركة حربية، مهما بلغ الاستعداد الجيد لها فإنه يظل في حسابات القادة حدوث الهزيمة أو الانسحاب أو الخسائر الفادحة... وعلينا بعد هذا وذاك أن نفرق بين خسائر نتجت من جرّاء عقبات الطريق وتكاليفه الطبيعية، ومن جرّاء اجتهاد مؤصل قام به من يسوغ له الاجتهاد، وبين خسائر حدثت نتيجة مغامرات غير محسوبة، أو نتيجة ضعف في المعلومات اللازمة أو نتيجة اجتهاد لا يستند إلى أية حجة من شرع أو علم أو خبرة، أو من جرّاء فتاوى من أشخاص هم أبعد شيء عن المجال الذي اجتهدوا فيه..

وقد حدث في حالات عديدة أن خُطّط لمعارك كبرى قادةٌ لم يمسكوا بأيديهم قطعة سلاح في يوم من الأيام، كما حدث أن اشتغل بالسياسة، ودخل لججها دعاة لم يقرءوا يوماً كتاباً واحداً في العلوم السياسية وهكذا... ثم يأتي من يقول لك: قد اجتهدنا، وهذا حظنا، أو هكذا أراد الله ـ تعالى ـ!!.

ومن العجيب أننا نسلِّم بوجوب ألا يُجري عملية جراحية إلا طبيب، وألا يخطط لنفق أو جسر إلا مهندس، لكننا لا نرى مثل ذلك في الأعمال الدعوية، وكأن العمل الدعوي كلأ مباح يرتع فيه من شاء دون أدنى قيد أو شرط!!.

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٦.

وعلى كل حال فإن من الممكن جبر الكسر وتلافي الخسائر إذا كان ثمة بعض الأصول والقواعد المعتمدة في عمليتي المراجعة والمحاسبة؛ وحين لا يكون ثمة منهج ولا أهداف واضحة ولا آليات لإيقاف الخطأ عند الحدود الخطرة، ولا شيء اسمه ميزانية أو حساب ربح وخسارة، ولا شيء اسمه خبرة حضارية أو اعتبار بسنن الله في الدعوات الماضية، فإن النتائج سوف تكون مروِّعة، وهذا ما يحدث لبعض الدعاة والدعوات اليوم!!.

٩ ـ التوازن بين الواقع والمثال:

المنهج الرباني منهج وسط، وأمة الإسلام كذلك أمة وسط. ومكمن أكثر الفضائل هو الوسط وليس الأطراف، ومهمة الداعية أن يكون في نقطة التوازن في أمور أكثر من أن تحصى، لعل من أهمها التوازن المنهجي بين المثالية المجنحة والواقعية العاجزة، ومهما حاولنا وضع الضوابط والمؤشرات لتحديد كل منهما، فإن الحصيلة ستكون نسبية تختلف بين مسألة وأخرى، ومن شخص إلى آخر، لكن المهم على كل حال أن يجمع المنهج الدعوي بين الواقعية والمثالية في آن واحد؛ ويمكن القول: إن الواقعية تتمثل في فهم ما ينبغي إنجازه، وفهم الإمكانات المتاحة لذلك مع تصور صحيح للعقبات التي تحول دون ذلك من غير شطط، ولا إفراط أو تفريط، مع حساب نسبة معقولة للمفاجآت والأخطاء التي قد تقع.

أما المثالية فتكمن بصورة أساسية في حجم الأهداف التي يسعى الداعية إلى تحقيقها، وفي كفاءة الأساليب والوسائل التي سوف يستخدمها، والخدمات المجانية غير المنظورة التي سوف يقدمها المتعاطفون مع الدعوة، وفي مدى السيولة والسهولة التي ستكتنف خطة التنفيذ. أو بعبارة أخرى تكمن المثالية في المسافة الفاصلة بين الإمكانات والأهداف.

ولا بد لنا من الواقعية في كل ما يتصل بالدعوة، وإلا كانت خطط الدعوة كلها كمن يرسم في فراغ، وكان المنظرون كمن استغرق في أحلام اليقظة!

لا بد للدعوة من شيء من المثالية، أي تجاوز الآفاق التي ترسمها الإمكانات المتاحة، وهذا التجاوز ضروري لبث الأمل وبعث البشرى في نفوس العاملين وشباب الصحوة، وهذا أو ذاك منهج قرآني ونبوي معروف، أدلته أكثر من أن تحصى، وهو إلى جانب ذلك منهج منطقي واقعي؛ فحساب النتائج بدقة مستحيل في مجال الدعوة ـ كما أسلفنا ـ وانتظار التوفيق والعون والتسديد والبركة من الله تعالى متوقع ومأمول، حيث جرت عوائد الله الحسنى لعباده المتقين بأن يمدهم بألوان من النجاح والتقدم، لم يكونوا يتوقعونها، ولا يعرفون مداها. والمهم بعد هذا أن تبنى الخطط على المحسوس والملموس الكائن من الإمكانيات، وأن تتشبع روح المسلم ونفسه بالأمل والتشوف إلى رحمة الله ـ تعالى ـ وعونه.

ومما يساعد في إحداث هذا التوازن فهم الواقع بشكل جيد، ومعرفة مجموعة التوجهات والارتباطات والقوى الفاعلة في المجتمع، إلى جانب استشراف حجم ما يمكن أن يضعه المحيط العالمي من عقبات، أو يقدمه من تسهيلات ـ بحسب نوعية النشاط الدعوي ـ، ويضاف إلى هذا الإيمان المطلق بصحة المبادئ التي ندعو إليها وضخامة رصيدها في فطرة الإنسان إلى جانب كونها أصح أساس موجود على وجه الأرض لإصلاح حال البشرية وتحسين مستقبلها وعواقب أمرها.

وتظل الشفافية والخبرة الحضارية التوأم الذي لا يفترق على صعيد فقه الخطوة المناسبة.

١٠ ـ بين النظرية والتطبيق مفارقة أبدية:

المنهج الرباني الذي شرفنا الله ـ تعالى ـ بحمله ينتمي إلى دائرة المطلق؛ فهو فوق الزمان وفوق المكان، ومن تلك الدائرة يستمد خلوده وثباته، وحين نضع الخطط، ونبذل الجهود في سبيل تجسيده في واقع الحياة المعاش نكون قد نقلناه من تلك الدائرة إلى دائرة الإمكانات البشرية التي مهما كانت عظيمة فإنها في النهاية محدودة وضئيلة، ثم إن المجالات التي سيهيمن

فيها المنهج ليست شاغرة ولا فارغة، وإنما هي مملوءة برواسب ومصالح وأفكار وعقائد وتوجهات وشهوات، لا تنسجم في أكثر الأحوال مع ذلك المنهج؛ مما يعني أن إحالة النظرية إلى واقع تحتاج إلى اجتهاد وجهود وكفاح طويل، وخلال ذلك سيلجأ الداعية إلى شيء من الموازنات وترتيب الأولويات وغض الطرف عن بعض الجزئيات، وكل ذلك يمثل في التحليل النهائي نوعاً من المفارقة بين النظرية والتطبيق. ومن هنا نفهم السر الأكبر لما قضى الله ـ تعالى ـ به من اتصاف الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالعصمة حيث يكون سلوكهم ترجمة أمينة لرسالتهم، أي من أجل ألا يقع أي نوع من المفارقة بين سلوكهم وبين ما يدعون إليه.

وإنما نقول هذا حتى لا يرتاع الداعية مما يشاهده من مفارقات بين حال الدعاة وأقوالهم؛ فشيء من ذلك على صعيد السنن والمكروهات وصغائر الذنوب مألوف الحدوث، ومما يعسر تفاديه لدى كثير من الخيرين؛ ونعدّ مطالبة الدعاة بالتماثل التام بين ما يدعون إليه وبين ما يتجسد في حياتهم ـ نوعاً من التعنت والمثالية الزائدة؛ وقد رأينا كثيراً من الدعاة ينعون على إخوانهم ألواناً من التوسع في متاع الدنيا، ثم إذا بهم يقعون فيما أخذوه على غيرهم!.

ويضاف إلى هذا أن كثيراً من طلاب العلم وأبناء الدعوات ينظرون إلى أنفسهم بعين الاتهام بالتقصير، ولا يشعرون بأنهم دعاة؛ ثم يأتي من ينظر إليهم نظرة مثالية؛ ويحملهم على أساسها أعباء سلوكية إضافية كتلك التي تطلب من الصديقين وكبار العلماء والدعاة؛ وفي هذا نوع من الإجحاف!.

إن نبينا ﷺ هو المربي الأعظم، وقد خالطه، وقبس من هديه أعداد كبيرة من الصحابة؛ لكن درجات انتفاعهم بذلك متفاوتة إلى حد بعيد؛ وذلك يجسِّد بوضوح الحالة التي يمكن أن تنتج عن تنزيل المنهج الرباني على واقع الناس ذي التنوع والتعقيد الشديدين.

١١ ـ القدرة على تقديم البديل هي محك النجاح:

لا شيء أسهل من النقد والكشف عن العيوب والمثالب؛ فالتنوع

الضخم في الرؤى والأفهام والمعايير. . . يتيح لكل واحد منا وجهة نظر خاصة حيال أشياء كثيرة، لا حصر لها؛ فالحسناء لا تعدم ذامّاً، وإذا كان الواحد منا يؤلف الكتاب، ولا يخرجه للناس إلا بعد أن يرضى عنه تمام الرضا، ثم إذا أعاد النظر فيه بعد سنة غيَّر وبدَّل، وقدَّم وأخّر، فماذا تكون الحال إذا نظر فيه غير مؤلفه؟!.

لكن المهم في كل الأحوال هو تقديم البديل الأصلح والأنفع الذي يخدم مقاصد الشريعة الكبرى، ويكون إلى جانب ذلك خالياً من النقود التي نوجهها للأوضاع السيئة الموجودة في أكثر من مجال من مجالات الحياة؛ ليس من العسير أن نوجِّه النقد إلى نظام التعليم القائم الآن، وليس من العسير أن ندعو إلى إعادة نظام تعليم الإجازات والكتاتيب؛ لكن المهم دائماً هو صلاحية ذلك لعصرنا ووفاؤه بمتطلبات الحياة الحضرية التي يعيش فيها الناس.

من السهل أن ندعو إلى تطبيق (الديموقراطية) أو نقدها والتشنيع عليها، وكل من هذين موجود الآن عند بعض الجماعات الإسلامية، وعند الداعين إليها شيء من الصواب، وعند الرافضين لها أيضاً، لكن الحيوي والمهم هو بلورة نظام يحقق مبادئ الشريعة ويصلح أحوال الناس، ويتمتع بالشفافية، وتكون السيادة فيه للدستور الإسلامي، دون أن تكون فيه المعائب التي تؤخذ على الديموقراطية في الشرق والغرب، وإن الملاحظ أن كثيراً من الدعاة يعرفون المبادئ الإسلامية بصورة ممتازة، لكن المشكلة تكمن في اكتفاء كثير منهم بالمبادئ عن النظم؛ ومن ثم فإن ما تبلور منها إلى الآن ليس كافياً؛ بل هو أقل من القليل؛ مع أن مضمار الاختبار الحقيقي لأصحاب الدعوات هو تحويل المبادئ التي يدعون إليها إلى سياسات ونظم وإجراءات ملموسة وعملية. . .

إنني أشعر أن مطالبنا ـ في بعض الأحيان ـ متناقضة، كما أن أساليبنا وخططنا تفتقر إلى التناسق والانسجام؛ وكل ذلك بسبب ضعف الخبرة العملية في الإصلاح والبناء الحضاري.

١٢ ـ من القلق إلى السكينة:

في عصر يسود فيه الخوف من المستقبل والخوف من الموت ومن المرض، وحب السيطرة على كل شيء وامتلاكه ـ ولو بدون مؤهلات ـ اكتسبت مسألة (الأمن النفسي) للمدعوين أهمية خاصة؛ إذ إن هاجس الخوف من كل شيء يحول دون اهتمام الناس بما نقوله لهم؛ ولعلنا نقول بصدق: إن سمة (اللامبالاة) هي السمة الأكثر انتشاراً في عالم اليوم نتيجة الفوضوية والعدمية والشك وفقدان الإطار المرجعي. . . فكثير من الناس يدفعه الخوف إلى مزيد من الاهتمام بالمادة والتشبث بها، وتحمله (اللامبالاة) على الزهد في كل النصائح والمواعظ التي تلقى على سمعه[١].

ومن هنا فإن من أهم أساسيات المنهج استهداف إشاعة السكينة والطمأنينة في نفوس الناس، وذلك لا يتم من خلال نصحهم بالتنازل عن حقوقهم ونسيان آلامهم، وإنما من خلال أمور عدة:

أ ـ تدعيم الجانب الروحي وإفساح مجال واسع له في الخطاب الإسلامي؛ وذلك بالحث على الإكثار من العبادات ومراقبة الله ـ تعالى ـ والتنزه عن المخالفات الشرعية، والقراءة في سير بعض السلف الذين عرف عنهم الورع والتنسك، مع الحذر الشديد من الجنوح نحو الخرافة، والتفلت من القيود الشرعية، وإغفال جانب الفكر والعقل؛ وذلك لأن التجربة علمتنا أن انجذاب الإنسان نحو الروحانيات قد لا يقف عند أية حدود، وبذلك يحدث الإجحاف بقضايا كثيرة مهمة.

ب ـ مساعدة الناس على الوصول إلى حقوقهم؛ فعلى خلاف ما يُظن فإن الحاجات ستظل ملحة ومسيطرة على المشاعر ما لم تُشبَع، وتُروى؛ فالذي يتطلع إلى أن يكون له دور في النقد أو الإصلاح سيظل مشغوفاً بذلك حتى يتاح له ما يريده، والشعوب التي تطالب بشيء من الحكم الذاتي أو

---

(١) عدم اهتمام (الياباني) بما وراء المادة هو السبب الأساسي في ضعف انتشار الإسلام في اليابان بصورة قلَّ نظيرها.

الحكم اللامركزي ستظل تطالب بذلك وتقاتل من أجله حتى تحصل عليه؛ لكن هؤلاء جميعاً حين يحصلون على ما يريدون سوف يشعرون أن الشغف بذلك لم يكن يخلو من مبالغة، بل ربما شعروا أن ذلك كان ورطة، وكانت مغارمه أكبر من مغانمه، لكن ما العمل إذا كانت طبيعة الناس تميل إلى التعلق بالأوهام والجري وراء السراب!. فنيل الناس لحقوقهم المشروعة أو ما يظنونه كذلك عامل مهم من عوامل الطمأنينة.

جـ ـ الترابط الاجتماعي عامل مهم في سكينة النفوس؛ إذ من الحيوي لكل واحد فينا أن يشعر أنه لا يواجه لأواء الحياة بشكل منفرد، وأنه سيظل في حياة الناس أشياء كثيرة أجمل من المادة والمكاسب الشخصية؛ وهذا يحتاج إلى شيء من التضحية بالوقت والمال والجهد، ومَنْ غير الدعاة أولى بكل ذلك؟!.

١٣ ـ بناء الإيجابية ضرورة عصرية[١]:

لا يستطيع المسلم اليوم أن يعيش عصره بكفاءة وفاعلية ما لم يتحلَّ بصفة مهمة هي (الإيجابية)؛ فعصر الاتصال الكوني فرض مواصفات خاصة ودرجة من الإنتاجية عالية لكل أولئك الذين يريدون قيادة الركب فيه وأولئك الذين لا يرضون العيش على حواشيه وهوامشه. وظاهر كلمة (الإيجابية) أنها مقابلة لكلمة (سلبية)، وهي كذلك، لكننا نريد منها هنا أكثر من مجرد الاستجابة أو المبادرة؛ ولعلنا نختزل ما نريد منها في النقاط التالية:

أ ـ مسلم اليوم بحاجة إلى الشعور بقدرته على التغيير، تغيير نفسه وتغيير محيطه ورؤيته للأشياء، وهذا الشعور هو الشعور الذي يضار الإحساس بالعجز والاستسلام والتصلب الفكري والحركي. وقد علمنا القرآن الكريم أن شرط تغيير العالم هو أن نغير ما بداخلنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٢]. وينطلق الشعور بإمكانية التغيير من إدراك أن الله ـ جل

(١) انظر كتاب الإنسان والتفكير الإيجابي؛ ففيه بعض الأفكار الجيدة في هذا.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

جلاله ـ قضى على هذا الكون من حولنا أن يتقلب في أحوال مختلفة، وأن يظل في حالة من الصيرورة المستمرة؛ كما ينطلق أيضاً من مبدأ الاستفادة من التجارب السابقة التي خضناها، أو رأيناها، ومن مبدأ ضرورة انتقال الإنسان من الخضوع للغرائز إلى مرحلة استلهام الحق والخير والفضيلة وتمثلها في السلوك من جديد.

لا بد أن نزرع في نفس كل مسلم أن الرتابة نوع من العدم، وأن الاستسلام للأخطاء والقنوع بالحالة الحاضرة نوع من الخروج من المحيط الحي إلى محيط الجماد! ولا يستطيع الدعاة بث هذه الفكرة ما لم يُلْمَس فيهم روح التجديد، والقدرة على مغالبة الذات والعادات والتفوق عليها، وتحديث أساليب الدعوة والخطاب بصورة مستمرة.

ب ـ من الإيجابية أن يحاول المسلم تحسين صورته الذاتية أمام نفسه، إذ ليس المهم ـ في جوهر الأمر ـ نظري للعالم، ولا نظر الناس لي، لكن المهم هو كيف أرى أنا نفسي، وهذا ما نلمحه في قوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[1]. فالمهم ليس ما نُقنع الناسَ به عنا، لكن المهم ما نعرفه نحن عن أنفسنا. إن الصورة الذاتية لكل منا هي محصلة المواقف المتنوعة التي يتخذها كل فرد انطلاقاً من قدراته وخبراته في كل المجالات التي يتعرض لها. وعلى مقدار إشراق تلك الصورة، وما تحققه من رضا نفسي يكون امتداد تأثيرنا في الآخرين الذي هو المجال الرحب لاستخدام إمكاناتنا الحقيقية[2].

ومما لا يحتاج إلى بيان أن صورتنا عن أنفسنا لا يمكن أن تتحسن من خلال رؤى كاذبة أو نجاحات لم نحققها، أو إيحاءات، مصدرها بعض الذين يحترفون الثناء. . . .، وإنما من خلال ما يتراكم من أعمال صالحات ومواقف مشرِّفة وفعالية عالية، وهذا ما يرشدنا إليه الكتاب العزيز في غير موضع منه،

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ١٤، ١٥.

(٢) انظر السابق: ٦٩.

كما في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾[2].

ويقال من وجه آخر إن اكتشاف الذات قد يتوقف على اكتشاف الآخر في مواضع كثيرة؛ فأصحاب اليمين يقيِّمون أنفسهم من خلال معرفتهم بالسابقين وأصحاب الشمال، والجيد يعرف نفسه من خلال معرفته بالممتاز والضعيف. لكن المهم على كل حال أن نملك العزيمة على الترقي والكدح المستمر بغية مزيد من الثقة بالنفس والرضا عن وضعيتها.

جـ ـ من الحيوي في أي منهج دعوي أن يوجِّه الناس إلى استثمار طاقاتهم الداخلية بطريقة طوعية؛ وإن دفع الناس للعمل عن طريق التهديد كان مستخدماً منذ انبثاق أول مجتمع منظَّم، ولقد استخدمت (الجندية) هذا الأسلوب قروناً متطاولة، وثبت عقمه؛ فالعمل الذي يتم إنجازه تحت ظروف الضغط والإكراه لا يبلغ أبداً ذروته، ولا يُبذل فيه أبداً أقصى جهد ممكن، وإنما يُبذل ما يكفي فقط لاستمرار العمل!.

وبالإضافة إلى هذا فإن الضغط على الناس في سبيل مزيد من العمل يرفع من درجة التوتر النفسي، ويولِّد الحقد والكراهية والإحجام عن العطاء وتحطيم المعنويات وكسر شوكة النفس...

والطريق الآخر لتفجير الطاقات الكامنة ورفع الكفاءة هو جذب الناس إلى العمل الجاد من خلال القدوة الحسنة، وحث الآخرين على أن يرسموا أهدافهم بأنفسهم، ثم يبحثوا عن الوسائل التي تحققها، كما أن توسيع مساحة الراحة النفسية تتيح للطاقات والإمكانات أن تتفتح، وتأخذ طريقها إلى التحقق.

وإن للخيال فضيلة كبرى في تخفيف التوتر، وبعث الإنسان نحو العمل والإنجاز، إن علينا أن نعلم أن الفاعلية قيمة، وأن القيمة لا تُفرض ولكنها

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة محمد: الآية ١٧.

تجذب، ولذا كان لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وإن أحوال الدعاة هي التي يمكن أن تكون مصدر إلهام لكثير من الناس.

د ـ الصحة النفسية شرط أساسي لولادة الإيجابية، فلا يمكن أن يكون المرء إيجابياً، وهو يشعر بنوع من (القرف الوجودي) أو الحسد أو الغيرة أو الخمول النفسي أو الحقد على الناس.. ومن ثم كان للتزكية وتنقية السرائر المكانة العظمى في الإسلام، إنه (القلب السليم) الذي على المسلم أن يحمله بين جوانحه في تعامله مع ربه والناس من حوله. وحين يقع المسلم في الخطيئة فإن شعوره بذلك يعد علامة على أن قلبه ما زال حياً لم تُجهز عليه سهام المعاصي، لكن استمرار الشعور بذلك قد يحطم الإنسان، ومن ثم فإن الله ـ تعالى ـ شرع التوبة لغسل ذلك الشعور، والإحساس بالتطهر والتجدد واستئناف حياة الطاعة، والعودة إلى طريق الرشاد والسداد.

إن المداومة على ذكر الله ـ تعالى ـ ومناجاته هي التي تخفف من أمراض النفوس الكثيرة التي تتولد من ضياع الأهداف تارة، ومن الحرص على الدنيا تارة أخرى.

هـ ـ من مفردات الإيجابية الجاهزية للعطاء وتعدي النفع للآخرين، الذي يمثل من وجه آخر مصدراً ثرياً للراحة والاطمئنان النفسي والسعادة الذاتية. وحين تكون الأمة في حالة (سواء) فكري وحضاري فإن احترامها وتقديرها لا ينصرف أبداً إلى أولئك الذين يملكون ما لا يملك غيرهم، ويتصرفون بما يعجز عنه سواهم، وإنما ينصرف إلى أولئك الذين استطاعوا تجاوز عقبة (نفسي نفسي)، وصارت هموم الآخرين هي همهم الأكبر، فأياديهم دائماً مبسوطة بالخير والنفع، وإذا لم يسمح الظرف بذلك؛ فأبدانهم ممتهنة في خدمة إخوانهم، ووجوههم تتلألأ دائماً بالبشر والتبسم والبشاشة؛ فذاك من القربات والصدقات أيضاً، كما في قوله ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[1] وقوله: «كل سلامى من الناس عليه صدقة

---

(١) أخرجه مسلم.

كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1].

و ـ المبادرة الفردية هي سفينة النجاة في حالة انحطاط الأمة، وتربيتها لدى الناس جزء من منهجيتنا في بناء الإيجابية. وتعني المبادرة ترفع أفراد من الأمة على مستواها وسقف حيويتها، واندفاعهم نحو ما يتمنى الناس حصوله، لكنهم يفقدون العزم والإرادة للبدء به. قد علمتنا التجربة أن معظم الناس يحبون الخير، ويقدِّرون فاعليه، وهم على استعداد للمشاركة في مشاريعه، لكن المشكلة الكبرى هي أن المستعدين فيهم لخطو الخطوة الأولى، ووضع أول لبنة قلة قليلة، وهذه القلة هي ملح المجتمع وبركته، إنهم أناس يحبون الخير، ويثقون في أنفسهم، ويحبون خدمة جماعتهم، وهم إلى جانب ذلك مستعدون لتحمل نتائج مبادراتهم، وما قد تجره عليهم من مشكلات ومتاعب. إن علينا أن نعترف أن حرصنا على أن يكون كل شيء وفق نظام محدد، واحتياطاتنا الشديدة لكل شيء، والتعليم التلقيني، والحرص على أن يكون لكل شيء نموذجٌ سالف ـ إن كل ذلك أدى إلى خشية المسلم من أن يكون في الطليعة، وصار كل واحد منا يقول في داخله: «ليبدأ غيري» و«علينا أن ننتظر لنرى النتائج»!! وهذا أدى إلى المؤاخذة الشديدة لكل من يبادر إلى خير، ثم يخفق فيه، أو تكون عواقبه على غير ما يريد، مع أن هذا المبادر لو لم يكن له سوى فضل الانتصاب بين الأموات لكفى!.

ز ـ الصمود والاستمرار، وعدم الخوف من الإخفاق أعمدة أساسية في خلق الإيجابية، وعبادات الإسلام وتكاليفه تصب جميعها في تنمية إرادة الصمود، حيث يظل المسلم يلاحق هدفاً واحداً طول حياته بفعل الخيرات، وترك المنكرات، وهذا الهدف هو نيل رضوان الله ـ تعالى ـ والفوز بالجنة.

إن ما نراه من نجاحات في عالم الواقع ليس وليد المحاولة الأولى، بل

---

(١) متفق عليه.

إن هناك مئات بل ألوف التجارب المخففة التي سبقت النجاح الكبير، وهم يذكرون أن (أديسون) واجه في بحثه الدؤوب عن (سلك الملفّ) المناسب لصناعة المصباح الكهربائي ثلاثة آلاف حالة إخفاق ـ وهي بالطبع ثلاثة آلاف عقبة مؤقتة ـ قبل أن يتوصل إلى المادة المناسبة! بعد ثلاثة آلاف محاولة يمكن لأي رجل عادي أن يعترف بالهزيمة، إن كان لا يتمتع بخاصية الصبر والإصرار على الظفر غير المحدود![1].

إن علينا أن نشجع من غير ملل كل أولئك الذين يصرون على عملية (المحاولة ـ والخطأ) وأولئك الذين يملكون الإرادة الحديدية للاستمرار في طريق البناء والإصلاح والخير إلى آخره مهما كانت التكاليف.

ح ـ من مفردات الإيجابية القدرة على التحكم في عواطفنا، وهمومنا، وهذا في الحقيقة ليس إيجابية فقط، وإنما هو نوع من تجاوز الغريزة؛ وهذا التجاوز يعبر في اتساعه عن مدى المسافة الفاصلة بين إنسان ما، وبين الحيوان؛ فالحيوان لا يستطيع السيطرة على غرائزه، ولا تأخير رغباته، كما أنه لا يقوى على المخاطرة... ونعني بالسيطرة هنا أن يلبس المسلم لكل حالة لبوسها؛ فليس من الإيجابية أن يحمل الموظف هموم بيته وأولاده ومشكلاته الخاصة إلى مكتبه أو مدرسته أو مصنعه. فالأداء الكفء يتطلب موظفاً في أحسن أحواله، وفي أعلى درجات لياقته النفسية والجسمية، والناس لا يعذرون الموظف الذي ينام على مكتبه، ولا الأستاذ الذي لم يحضِّر درسه... كذلك ليس من الإيجابية أن يزعج المسلم أهل بيته بمشكلاته مع طلابه أو زملائه أو مراجعيه، ولا يمكن للمرء أن يحصل على هذا الخلق الكريم ـ الذي هو تعبير عن العطاء في أسمى صوره ـ إلا من خلال تنظيم شؤون البيت وشؤون العمل، وإلا من خلال تدريب العاطفة وآلية الضبط الداخلي لديه، وإلا فسوف يشعر أهل العمل وأهل البيت معاً بنقص مقدرته وضآلة كفاءته...

---

(١) الإنسان والتفكير الإيجابي: ١٦١.

هذه القضية التي تحدثنا عنها لا يمكن جعلها حية في حياة الناس إلا من خلال تبني الدعاة والمناهج الدعوية لها وجعلها جزءاً من الخطاب الدعوي، وجزءاً مهماً من اهتمامات الدعاة.

١٤ ـ من الهموم إلى المفاهيم ثم الآليات:

هذه قضية مهمة في بناء الداعية وبناء المنهج معاً، وتنبع أهميتها من طبيعة ترابطها ومنطقها، وكون كل مرحلة منها تفضي إلى الأخرى، وهي من بعد ذلك مراحل ضرورية لا بد أن يعبرها كل منهج من المناهج.

تعبِّر المرحلة الأولى عن إدراك واضعي المنهج الدعوي لطبيعة الإصابات والمشكلات التي تعاني منها أمة الإسلام في واقعنا المعاصر، وهذا الإدراك سوف يثير ـ ولا ريب ـ الهموم والشجون لدى أهل الغيرة على المصلحة العامة. ولا يشترط لحدوث ذلك أن يكون واقع الأمة سيئاً؛ إذ ما من مجتمع ولا أمة ولا حضارة تخلو من معاناة ومشكلات ـ وإن كانت طبيعتها ودرجتها تختلف ـ وهي بالتالي بحاجة إلى من يفكر وينصب من أجلها، وأعتقد أن نسبة الذين يحملون الهمَّ العام لدينا لا بأس بها، لكن مدى إدراكهم لحجم المشكلة متفاوت إلى حد بعيد جداً؛ وذلك لقلة الأرقام والإحصاءات التي تصور واقعنا في جوانبه المختلفة، ولضعف حركة التثقيف ووسائله، ولعدم القدرة على صياغة (إشكاليات) متقاربة (نلملم) من خلالها الواقع بصورة جيدة، ولأسباب أخرى عديدة...

ويمكن القول بكلمة واحدة: إن التخلف على الصعد المادية الذي يحيط بأمة الإسلام هو الذي يحول دون فهم جيد للواقع، وتكوين صور ذهنية واضحة عنه. ولذا فإن كثيراً من همومنا لا يعدو أن يكون عبارة عن جأر بشكوى مبهمة من سوء الأحوال والظروف ليس أكثر...

وحين يتم إدراك الواقع بشكل جيد فإن المرحلة الثانية التي ينبغي أن تُسلم إليها المرحلة الأولى هي مرحلة صياغة (المفاهيم)، والمفاهيم عبارة عن أفكار كبرى تتسم بنسبة عالية من الاستقرار والثبات. وهي في جوهرها

عبارة عن رموز تتبدى في مجموعة من المقولات العامة التي تشكل في النهاية أطراً للتواصل والممارسة والتقويم. . .

وهذه المفاهيم نوعان: نوع يتصل بطبيعة أمراض الأمَّة ومشكلاتها، وهي تعبير حي عن سيطرة واضعيها على القضايا التي تصدوا لاستيعابها وتمثلها، كما أنها تعبير نشط عن جملة الإحالات الذهنية والشعورية التي انتهى إليها واضعو المنهج خلال محاولاتهم سبر أغوار الواقع واختراقه.

أما النوع الثاني من المفاهيم فيتصل بصنوف العلاج الذي يراه أطباء المجتمع في الصعد الحياتية كافة. ويمكن القول: إن العلاج الناجع لا يكون إلا بعد تشخيص جيد، وإن نصف الحل لأي مشكلة يكمن في تشخيصها، وكل مشكلة تشخَّص تشخيصاً جيداً هي مشكلة محلولة جزئياً.

وأهم ما ينبغي صياغته في مفاهيم محددة أمران:

الأول: في ترتيب أولويات الحل؛ إذ من المعروف أن هناك نوعاً من الارتباط المتسلسل بين العلل المختلفة؛ فالتفكك الاجتماعي والتأزم الاقتصادي والانهيار الأخلاقي والسياسي كل ذلك عبارة عن مشكلات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، ولا بد من معرفة رأس الخيط فيها، ومعرفة مدى تبعية كل منها للأخرى، وتحديد المشكلة التي إذا حُلَّت حُلَّ معها تلقائياً عدد من المشكلات الأخرى، وتحديد المشكلة التي يتوقف حلها على غيرها، تماماً كما في ترابط علل الجسم البشري فقد لا يتم حل مشكلات أمراض المفاصل وضغط الدم والسكر والقلب إلا عن طريق تخفيف الوزن، فيكون ذلك هو المفتاح لحلها أو التخفيف منها بشكل شبه تلقائي.

والثاني: هو مقدار الجهد الذي تحتاجه كل مشكلة من المشكلات أو قل كل مجال من المجالات، وتحقيق ذلك يعني أننا أدركنا مدى العطب الذي أصاب ذلك المجال، ومدى المسافة الفاصلة بينه وبين الحالة الطبيعية المنشودة، وما يتطلبه ذلك من إمكانات وطاقات واستثمارات. . . والناظر في أحوال العالم الإسلامي يجد أن معاناة بعضه تتركز في التأزم الاقتصادي

ومعاناة أجزاء أخرى في الانحباس السياسي أو التحلل الأخلاقي وهكذا. . .

كما أنه لا يوجد بلد في الدنيا ـ مسلم وغير مسلم ـ لا يعاني من جميع المشكلات التي تخطر على البال لكن بنسب ومقادير متفاوتة؛ والإدراك الجيد يحاول تحديد المركزي منها وفصله عن الحدودي والهامشي.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة (الآليات)، ونعني بها تنزيل المفاهيم العلاجية في خطط وأساليب ووسائل وإجراءات محددة، أي في كل ما يمكِّن من قطع المسافة الفاصلة بين الواقع والمأمول.

ويمكن القول: إن كسبنا في المرحلة الثانية والثالثة ما زال متواضعاً، وذلك لأن المرحلة الأولى لم تنضج بعدُ النضج المطلوب للانتقال إلى المرحلة الثانية والثالثة، ويتم التعامل الآن مع المراحل الثلاث بصورة مندغمة ومتداخلة، وفي هذا خلل كبير! والواجب هو صب كل الجهود والإمكانات المتاحة في بلورة المرحلة الأولى، مرحلة الفهم العميق لواقع الأمة بكل امتداداته وترابطاته وتداعياته وإحالاته حتى إذا شعرنا بالتشبع التام انتقلنا إلى المرحلة الثانية وهكذا. . .

وهذا التقسيم فني من أجل الدراسة والبحث، ولا نعني به إيقاف الجهود الإصلاحية وتجميدها، حتى يتم إنضاج المرحلة الأولى، فذاك غير ممكن وطلبه غير منطقي، لكن المراد أن تتجه الجهود العلمية والبحثية بشكل مكثف نحو ذلك، وعندنا اليوم ألوف المدارس والجامعات الإسلامية التي يمكنها أن تقوم بجهد واسع ومشكور في هذا المضمار. . . أما طريقة البحث الجارية الآن فإنها قد وسَّعت رقعة المعالجة إلى درجة أنه ما عاد معها بالإمكان بحث شيء من ذلك إلا بصورة سطحية ومبتسرَة وعامة.

إن النقلة المطلوبة في بحوث المنهج تتمثل في نقل أولويات البحث من المبادئ إلى البرامج، ومن (يجب) إلى (كيف)؛ والله المستعان.

المقدمة الثامنة

مفاهيم على طريق الإصلاح

١ ـ الإصلاح.

٢ ـ مفاهيم على طريق الإصلاح.

(١) الإصلاح

قضية الإصلاح أكبر قضية في حياة البشرية، وهي المهمة الكبرى للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وخلفائهم من العلماء وذوي الاهتمام بالشأن العام؛ ذلك أن طبيعة الإنسان وطبيعة الاجتماع البشري، وما يتولد عنهما من عقابيل بالإضافة إلى حاجة الإنسان إلى الإطار التوجيهي. كل ذلك وأسباب أخرى يوجب على البشرية أن تظل في حالة من التوتر الدائم لعلاج أخطائها وتقويم مسيرتها، ومقاربة منهج الفطرة والاستجابة لأمر الله والاهتداء بهديه.

قضية الإصلاح هذه إلى جانب أنها أهم قضية في حياة الناس هي أعقد قضية أيضاً، ويتجلى الابتلاء فيها في أتم صوره ومعانيه بسبب أن الإنسان عاجز عن القبض على الحقيقة دفعة واحدة، كما أنه عاجز عن الإلمام بالشأن الإنساني كله من جميع جوانبه وأبعاده؛ فهو حين يظن أنه أصلح جانباً من جوانب الحياة لا يدري بالتحديد مدى الفساد والضرر الذي يمكن أن يلحقه بالجوانب الأخرى، وقد لا يظهر له ذلك إلا بعد مدة طويلة. أضف إلى ذلك تفاوت الخلفية العقائدية والثقافية والمزاجية لدى المصلحين، واختلاف زاوية الرؤية.... كل ذلك يجعل الجهود الإصلاحية مشتَّتة، وأحياناً متصادمة، يُجهض بعضها بعضاً.

والإصلاح نوعان: نوع بسيط؛ لأنه يعالج قضية محدودة، كالإصلاح بين متخاصمين، أو استئصال الفساد من مدرسة أو مؤسسة... وهذا يمكن لكثيرين القيام به، فهو عملية جراحية صغرى ومحدودة.

ونوع معقَّد، وهو ذلك الطرح الفكري والمنهج الحركي اللذان يستهدفان إصلاح الحياة العامة في المجالات الفكرية والتربوية والتعليمية

والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية. . . . وهذا النوع هو المراد عند الإطلاق، وهو الداء الذي أعيا الأطباء، وحيَّر الحكماء. . .

ولا ينبغي أن يطلق لقب (مصلح) إلا على من اتسم بسمتين:

الأولى: امتلاكه رؤية شاملة لحال المجتمع الذي يهتم بشأنه على صعيد الإمكانات والمشكلات ومداخل الحلول والعقبات التي تعترضها وتأثيرات المحيط الخارجي في الوضع الداخلي، والقوى المحلية المنافسة التي تطرح وجهة نظر أخرى. . .

الثانية: امتلاك منهج للحركة تتجسد فيه رؤياه الإصلاحية، ويتابع جهوده على هديه. . . ولا يشترط بالطبع أن يكون منهج الحركة لديه أو الإطار النظري للإصلاح صحيحاً، فاعتقاده ناتج عن اجتهاد، وليس عن أدلة قطعية، وهو بذلك يفارق المفكر الذي يمتلك الرؤية لكنه لا يباشر عملية التغيير والتقويم التي يمتلك قواعدها، كما أنه يفارق الداعية الذي يقوم بالدعوة إلى الخير دون أن يمتلك رؤية شاملة لما ينبغي أن تكون عليه الحال.

لذلك كانت كلمة (مصلح) كلمة كبيرة لا تطلق في كل بلد إلا على الرجل والرجلين، وإن كنا نعتقد أن المفكرين والمصلحين درجات عديدة.

لا نريد هنا أن نعرض لسمات المصلحين والمجددين ـ فذاك تنظير لا حاجة له ـ وإنما نريد أن نقول إن المصلح لا يوجد إلا عندما يتحلى بصفتين:

الأولى: تشبعه بالرجاء والأمل في إمكانية حدوث الإصلاح والقضاء على الفساد والانحراف، أما اليائسون فإنهم يرون عملية الإصلاح أشبه بالقيام بطلاء سفينة آخذة في طريقها نحو القاع!!.

والثانية: هي امتلاك حساسية عالية نحو بعض ضرورات التغيير؛ فحين ينذر المصلح ويحذر من أخطار الواقع المعيش يكون غيره غارقاً في الملذات، أو مشغولاً بالتوافه، أو لا يكون هنا ولا هناك!!.

وسنعرض في الصفحات التالية لبعض المفاهيم التي تبلورت لدينا في مسائل الإصلاح مع الاعتراف بالقصور والتقصير، وكون ما نقوله لا يعدو أن يكون اجتهاداً يحتمل الخطأ والصواب، إنما المراد أن نثري الساحة الدعوية بالأفكار الإيجابية؛ والتجربة سوف تثبت إلى أي مدى يمكن أن يستفاد منها؛ وعلى الله قصد السبيل.



(٢) مفاهيم على طريق الإصلاح

١ ـ السلام والنظام شرطان أساسيان لوضع الأمة في الوضع المنتج:

تعاليم الشريعة السمحة توفر الإطار العام للسلام الفردي والاجتماعي، كما توفر الكثير من المبادئ والمفردات التي تشكل النظم الحياتية كافة. وأولى درجات السلام سلام المسلم مع نفسه، وقبل ذلك مع ربه ثم مع مجتمعه الذي يعيش فيه؛ ولا يتحقق هذا السلام إلا من خلال الاستقامة أولاً ثم تنمية الشعور الإيجابي بين أفراد المجتمع كل تجاه الآخر، وتقوم الدولة بدور فاعل في تحقيق التناسق والتناغم الاجتماعي إلى جانب تنظيم حقول التبادل والتعاون. . . . وحين يوجد السلام يمكن للنظام أن يقوم[1]، أما في حالات الحرب الأهلية، أو حالات الانهيار الاجتماعي فإن النظام وسيادة القانون ومبادئ الحقوق والواجبات تصبح جميعاً في مهب الريح!.

إن الشريعة الغراء بأحكامها وأدبياتها، وبما تتفرد به من قداسة وتقدير في نفوس المسلمين هي النظام الأصلح والأقوم لتأمين المصالح الكبرى للناس، وإلى أن تنعم جميع الشعوب الإسلامية بذلك فإن من مصلحة الدعوة ومصلحة الناس عامة أن يكون هناك نوع من الانضباط العام والامتثال لقوانين وتنظيمات محددة؛ لأن هذا أحد المداخل المهمة للقيام بالإصلاحات اللازمة. إن القانون مهما كان غير عادل يظل خيراً من حالة لا يحكم فيها أي قانون؛ حيث يأكل القوي الضعيف، وتسود المخاوف على النفس والعرض والمال. ولنا في العالم الغربي عبرة؛ فالنظم التي تحكمهم بعيدة عن هدي

(١) انظر نقد السياسة: ١٨٣.

الإسلام، لكن الضعيف ـ في أكثر الأحيان ـ يستطيع الوصول إلى حقه، والمظلوم يجد مرجعاً لرفع ظلامته، والمصالح العامة للناس مصونة إلى حد بعيد. ولك أن تقارن هذا مع بعض الدول التي عمتها الفوضى مثل الصومال وأفغانستان مع أنها مسلمة، لكن انعدام النظام جعل كل القيم تتوارى، وجعل كل الوحوش تسرح وتمرح!!.

لا تستطيع أمة أن تتقدم قيد أنملة، بل ولا تستطيع أن تحافظ على إنجازاتها الموجودة ما لم يعم السلام الداخلي والأمن، وهما اللذان يوفران لسلطة العرف والقانون المناخ اللازم لرسوخهما وحمايتهما للمجتمع من النكوص على عقبيه.

٢ ـ لا إنجازات خارج نطاق الأمة:

لا تملك (العامة) وجماهير الناس خطاباً منمقاً، ولا مشاعر منظمة، لكنهم يملكون المشاعر الصادقة والحدس الذي لا يكذب، وهم حين يظهرون نوعاً من (الحرون) الثقافي والبرود العاطفي يكونون غالباً على حق.

ومهما حاولت الحكومات أو حاول مثقفو الصفوة إطلاق الشعارت ورسم الخطط وتسويق التنظيرات، فإن مآل ذلك إلى الجمود والبوار ما لم يستطع كسب قاعدة شعبية جيدة إلى جانبه؛ فالجماهير الواسعة هي التي ستتولى التنفيذ، وهي التي تستطيع تعطيله، وتجربتنا الحضارية العريضة شاهد على ذلك؛ فقضية الجهاد والفتوح كانت أخطر القضايا التي تمس الأمة كلها في صدر الإسلام، وقد انفعل بها ولها الناس انفعالاً منقطع النظير، الشيوخ والشباب والنساء والأطفال الأصحاء والمرضى، الجميع يريد أن يكون له شرف المشاركة وشرف الشهادة، ولذلك كانت الإنجازات أقرب إلى الخيال، حيث فتح المسلمون في أقل من نصف قرن ما يزيد على أربعين ألفاً من المدن والقرى والقلاع والحصون!.

وفي أيامنا هذه طرحت قضايا كثيرة، واستُنهضت الأمة لخوض معارك مصيرية، لكنها قابلت ذلك ببرود شديد؛ لأن الخبز المروَّج له ليس من

قمحها؛ ولأن صرخات الإهابة والاستغاثة ليس فيها شيء من رنين صوت بلال!

وكأنهم بذلك يقولون: كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو حمل كاذب! فهل يعي المنظِّرون المهتمون بالشأن العام هذه الحقيقة أو أنهم سيظلون في حرب لا هوادة فيها ضد جنودهم وأهليهم؟!.

٣ ـ التستر على الأخطاء يشجع على تكريرها:

ننظر دائماً إلى مجتمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على أنه مجتمع مثالي، وهذه نظرة في محلها، لكن المصادر الموثوقة تدلنا على أنه وقع في ذلك المجتمع بعض المآثم والمخالفات، وهذا أيضاً لا ريب فيه؛ فالصحابة لا يدَّعون العصمة، ولا تُدعى لهم، وإذا كان هذا صحيحاً فإن وجود أخطاء ومخالفات لدى الجماعات والمجتمعات والهيئات أمر طبيعي وملموس، والله ـ تعالى ـ يفرح بأوبة عبده إليه، مع أن التوبة دليل خطأ سابق من صاحبها؛ لأن التوبة لا تكون إلا بعد صحوة، ومن وراء سمو، أما الذنب فإنه خضوع للغرائز؛ وفي الحديث: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»[1].

بعض الجماعات ارتكبت أخطاء فادحة في حق نفسها ودعوتها وأمتها، لكنها لا تملك أية شجاعة أدبية لوضع النقاط على الحروف، وبيان أوجه القصور التي أدت إلى تلك الأخطاء فضلاً عن أن تحاسب الذين تسببوا في ذلك!.

وفي كثير من الأحيان تكون الحجة: أننا لا نريد كشف أوراقنا أمام أعداء الخارج، ولا تقديم مادة دسمة مكشوفة لمنافسي الداخل!. وهذا مخالف للمنهج القرآني؛ فقد عتب القرآن الكريم على النبي ﷺ بعضاً مما فعل، أو حدَّث نفسه به ـ كما في قصة زينب ـ وقال للصفوة الخيرة من هذه

(١) متفق عليه.

الأمة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1].

ولست أدري كيف يمكن لنا أن نبحث في العلاج أو نتناول الدواء، ونحن ما زلنا ننكر أننا نعاني من أية متاعب!!.

إن التستر على الأخطاء لا يلغيها، لكنه يساعد على نموها وتكريرها؛ وتتمثل النتائج بعد ذلك في نوع من الانفجار الذي يذهب بالصالح والطالح، وفي حالات تشبه الكشف المتأخر لما يدمره السرطان من بنية شخص من الناس!.

يقول أحد جنرالات الحرب العالمية الثانية: «إن الحرب نفسها لم تكن خطأً لكنها كانت نتيجة لتراكم ثلاثين سنة من الأخطاء»!.

صحيح أننا قد نستر فضائح مجتمعنا عن أعين مجتمعات أخرى لبعض الوقت، لكن العاقبة سوف تكون سقوطنا في أعين أنفسنا، وانهيارنا من الداخل، والانهيار من الداخل دائماً هو أنكى أنواع الانهيار!.

٤ ـ ليس التحضر سوى قشرة، والطبيعة البدائية دائماً في الأعماق:

يختلف الإنسان المتحضر عن الإنسان البدائي بذلك القدر الهائل من المعرفة والعادات التي اكتسبها، غير أن الإنسان الطبيعي ما يزال يرقد تحت تلك الطباع المكتسبة، ولم يصبه تغيير من الناحية العملية. إن الخصال المكتسبة أبعد من أن تلقَّح، أو أن تنقل نفسها بالوراثة كما يظن بعض الناس عادة... إن الطبيعة البدائية وإن تبدت خامدة مكبوتة ـ تبقى في أعماق الشعور.... إنها تظل تنبض بالحياة في أرقى المجتمعات حضارة[2]. هذه البدائية الكامنة تظل مستعدة للوثوب والطفو على السطح في الوقت الذي تجد فيه الفرصة المواتية، والفرصة المناسبة تتمثل في ضعف القيم وخلخلة النظام وانتشار الظلم، والعدوان على المجال الحيوي للفرد أو الجماعة وفي حالات

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٢) مختصر دراسة التاريخ ٣: ١٩٢.

القصور الاجتماعي، وحالات الرفاه الزائد والمعيشة السهلة. . . وإن شئت أن تقول: في حالات التراخي في الكفاح من أجل الوجود.

ما نشاهده اليوم من تصرفات (الصرب) مواطني يوغسلافيا السابقة شاهد حي على ما نقول، والفظائع التي جرت في (رواندا) دليل ملموس على أن تورط الإنسان في الوحشية ونكوصه إلى أخلاق الغابة شيء في متناول يده بصورة دائمة! هذا كله يعني أن الخيار الوحيد أمام الأمة حتى تحافظ على مكتسباتها المادية والمدنية هو أن تعطي للصحة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية الأولوية العليا، وأن تشجع كل الأفكار والمبادرات التي بإمكانها أن تؤدي إلى نوع من التقدم في هذه الأصعدة. علينا أن نشجع كل أولئك الذين تجاوزوا همومهم الشخصية لينشغلوا بهموم الآخرين، وأن نضع الجوائز والحوافز، وأن نسمي الشوارع بأسماء أولئك الذين يقدمون أفكاراً أصيلة تساعد الأمة على النهوض من كبوتها، كما أن علينا أن نحجِّم أولئك الجهلة وذوي الأطماع الذين يتعيَّشون على مصائب الأمة، ويترعرعون في المال الحرام، كما تترعرع الجرذان في مياه المجاري!!.

٥ ـ تفقد الأفكار زخمها حين يشك أنها لأغراض سياسية:

إذا ألقينا بنظرنا على الساحات العالمية في الغرب والشرق والشمال والجنوب وجدنا المناداة بالإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد ـ قائمة على قدم وساق؛ والإصلاح ـ لا شك ـ مطلب شعبي عام، وكثير من الناس يجري خلف ما يقال إلى آخر الطريق؛ لكن إحساس الناس بأن ما يقال، وما يُطالب به من إصلاحات ـ يندرج ضمن المناورات والمزايدات السياسية ـ كاف لفقد ذلك الكثيرَ من البريق والجاذبية، وفي تاريخنا الإسلامي اشتغلت فرق إسلامية بالسياسة، فكان ذلك على حساب فتوحاتها الروحية.

من المهم جداً ألا نجعل المصالح العامة مطية للحصول على مكاسب سياسية أو منافع شخصية، فذاك قادح في الإخلاص وفي المصداقية، وهو بالتالي لا يؤدي إلى الإصلاح، لكنه يؤدي إلى نوع من انحباس السبل،

والزهادة في كلمة الخير. لا يعني هذا بالطبع عدم مشروعية السعي إلى الوصول إلى مواضع اتخاذ القرار، لكنه يعني ضرورة عدم خلط الأوراق وإلباس الأشياء غير لبوسها الحقيقي.

٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانة كافية لتهميش ثقافة الانحراف:

لأمة الإسلام أن تفاخر بأشياء كثيرة، من جملتها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا المبدأ العظيم الذي تتسع دلالاته لمعان نبيلة كثيرة، ليس أهمها أن الأمة التي تتواصى بالخير، وتتناهى عن الشر أمة متضامنة متلاحمة يقظة، تعرف الخطأ من الصواب، وتحاول تشجيع الخير ومحاصرة الشر، وهي إلى جانب ذلك تقف مع الحق ومع الضعيف والمظلوم، وتأخذ على يد الباغي والجاني حتى ترده إلى جادة الصواب.

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل واضح على التفاف الأمة حول أمر الله؛ فالحسن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه؛ ووظيفة الأمة أن تمتثل لأمر الله، وتصوغ أعرافها وتقاليدها ومواقفها على مقتضاه.

وقد دلت الخبرة الحضارية على أن الثقافة تظل مهمَّشة وجانبية ما لم تتحول إلى سلوك، أي ما لم تتعمم وتتجسد في الحياة المعاشة؛ وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحول دون نشر الأفكار الشاذة والخاطئة في أرجاء المجتمع، وتلجئها إلى أضيق الطرق. كما أن الأخطاء تظل قابلة للتكرار والتوسع ما لم يجر التنبيه عليها بصورة دائمة، وهذه الحسبة العظيمة هي التي تؤدي هذا الدور الخطير.

إن انعدام التناهي عن الشر يؤدي بالمجتمع إلى التفكك والانحلال، حيث يتصرف فيه كل فرد وفق هواه ووفق مصلحته؛ والمجتمع الذي يفعل فيه كل فرد ما يحلو له ليس مجتمعاً ـ كما يقول مالك بن نبي ـ وإنما هو مجتمع في طريقه إلى التكوين، أو بقايا مجتمع آخذ في الانسحاب ليصبح من (خردوات) التاريخ!.

ولا بد من أداء هذا المبدأ العظيم على وجه الحكمة ووفق الشروط والآداب التي ذكرها أهل العلم، وإلا فقد يجهض، ويتحول إلى أداة هدم وتحلل واقتتال داخلي. لكن الممارسة الخاطئة له من قبل بعض الناس لا يمكن أن تكون مسوغاً للتضييق والتشنيع على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ وإنما المطلوب هو إشاعة ثقافة وآداب هذا العمل الجليل، وإيجاد الأطر الفنية والإدارية التي ترعاه وتجسِّد مفاهيمه بشرط ألا تحوِّله إلى أعمال شكلية تفقد الروح والمضمون.

٧ ـ العمل الشعبي الخيري لا يغني عن النظم الصالحة، لكنه يكملها:

حين يحكم الناس بغير ما أنزل الله، ويجري إبعاد أحكام الشريعة عن واقع الحياة فإن أعمال الخير لا تتوقف، وتتجه القوى الخيرة في المجتمع إلى استثمار خبراتها وطاقتها في الأعمال الخيرية الشعبية، من نحو بناء المساجد وكفالة الأيتام وإطعام الفقراء وبناء المدارس الشرعية... وهذه ـ ولا شك ـ أعمال مطلوبة في كل مكان وفي كل ظرف، لكن علينا أن نتذكر أن هذه الأعمال لا يمكن أن تكون أساسية في حياة الأمة، ولا يمكن أن تسد الفراغ الذي يتركه تعطيل أحكام الشريعة الغراء، بل هي أعمال تكميلية إضافية ومؤازرة للجهد الأكبر الذي تبذله الدولة المسلمة في الميادين الاجتماعية المختلفة، وهذا واضح جداً في أوربا وأمريكا إذ إن الجاليات الإسلامية هناك لا تستطيع إلا توفير جزء يسير من حاجاتها من المدارس والمساجد بسبب أن الدول هناك لا تقوم بأي جهد لتلبية تلك الحاجات.

ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك بالقول: إن ثقافة (أعمال الخير) تتهمش وتضمر لدى كثير من الناس ما لم توجد النظم والقوانين التي تدعمها وتجسدها، وتحميها من غول (المادة) الذي يبتلع اليوم كل شيء.

٨ ـ بطالة شبابنا أخطر من المؤامرة علينا:

أن يتآمر علينا الشرق والغرب فذاك هو الطبيعي، ما دمنا في عالم تنازع البقاء، وما دامت الحيتان تتغذى بالأسماك، والأسماك بالديدان. والحل ليس

بإقناع الغرب بمعاملتنا برفق وعطف؛ فذاك غير ممكن، لكن الحل يكمن في أن تكبر السمكة الصغيرة؛ لتصبح أكبر من فم الحوت وأسرع حركة منه، وأن تغدو أمة الإسلام رقماً صعباً في الموازين الدولية، تجاهله مشكلة ومواجهته مشكلة أكبر! وهذا لن يأتي من خلال الجأر بالشكوى، وإنما من خلال العمل الدؤوب، ومن خلال الأعمال الصغيرة التي يقوم بها كل واحد منا.

إن ما يروع الغيور أن كثيراً من شبابنا يقضون أوقاتاً طويلة في الحديث عن حقد الغرب ونذالته ومؤامراته على أمة الإسلام، وهم في الوقت نفسه عاطلون عن أي عمل نافع. لدينا مرضى يحتاجون إلى رعاية، وجهلة يحتاجون إلى تعليم، وشباب يحتاجون إلى تدريب، وشوارع تحتاج إلى رصف، وأشجار تحتاج إلى سقاية، وأراضي بور تحتاج إلى زراعة وفرص اقتصادية ضخمة تحتاج إلى من يستفيد منها، وطلاب ضعاف في دروسهم يحتاجون إلى من يقويهم، ولدينا ولدينا.....

شباب عاجز عن كسب لقمة عيشه، وعن إتقان مهنته، وعن القيام بأية مخاطرة، ثم يحدثونك عن فتح روما وإنشاء حضارة إسلامية على أنقاض حضارة الغرب!!.

إن وعد الله ـ تعالى ـ بالتمكين لا يتخلف، لكنه لن يتحقق أبداً على أيدي أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سننه، ولا يضحون من أجله!

٩ ـ المنهج الإصلاحي مجموعة متكاملة من الأنظمة:

الإنسان كل معقد، وحين نقسم شخصيته إلى جوانب متعددة فإننا لا نعني أن كل جانب يستقل في فاعليته وصحته ومرضه عن الجانب الآخر، وإنما ذلك من أجل تسهيل الدراسة والفهم؛ والملفت للنظر أن المنهج الرباني في إصلاح حياة البشر هو كذلك مجموعة من النظم التي يكمل بعضها بعضاً، ولا يعمل أي منها بكفاءة إلا من خلال علاقته التكاملية مع غيره، بحيث يتأثر كل نظام بالقصور الذي يعتري تطبيق باقي الأنظمة. وهذا ليس خاصاً بالمنهج الرباني بل إنه عام في كل الأنظمة التي تحكم حياة البشر، و(الديموقراطية) الموجودة في الغرب ليست وليدة تطور ثقافي وتداع تاريخي

فحسب، وإنما هي نتاج وجود عتبة معينة من الرخاء الاقتصادي؛ والدول التي أخذت بالديموقراطية في ظل فقر شديد أصيبت بخيبة أمل؛ لأن أصوات الناخبين كانت تباع لمن يدفع أكثر؛ أي أن أرباب الثروات الطائلة هم الذين ينجحون، وذلك من أجل تعزيز نفوذهم الاقتصادي وكسب مزيد من الثروات. وقد كان أحد الخبراء الأسبان يقول: إن أسبانيا ستكون مهيأة للديموقراطية حين يصل متوسط دخل الفرد إلى ألفي دولار؛ وقد كان هذا، فعند عشية وفاة فرانكو عام ١٩٧٤ كان متوسط دخل الفرد ٢٤٢٦ دولاراً[١].

أما على صعيد المنهج الرباني فيمكن أن نذكر مثالاً واحداً لتوضيح ما نقول: الزكاة جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي، وعدم القيام بهذه الشعيرة يؤدي إلى ضعف كفاءة النظام الاقتصادي الإسلامي كله، كما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالنظام الأخلاقي والاجتماعي أيضاً. فالمقدار المفروض من الزكاة في الأموال وعروض التجارة هو ٢,٥٪، وهذا القدر كاف لسد العديد من حاجات المجتمع الإسلامي على مقتضى الحكمة الإلّهية البالغة، لكن ذلك سيكون في الأحوال العادية والطبيعية، وفي غير الأحوال الطارئة، كما في حالات الزلازل والفيضانات، وذلك أيضاً فيما إذا التزم أغنياء المسلمين بإخراجها، وإذا استمر ذلك الالتزام حقبة مناسبة من الزمن. فلو قدرنا أن ١٠٪ من الأغنياء أخرجوا الزكاة، وأن التزامهم بأدائها ـ في مجتمع ما ـ لم يمض عليه سوى سنتين، فإن الزكاة آنذاك لا تقوم بمهامها على الوجه المطلوب، حيث إن الحالتين اللتين ذكرناهما تجعلان الفقر يتراكم، ويتفاقم إلى الحد الذي لا تفي أموال الزكاة بالتخلص منه.

ثم إن نظام الزكاة يؤدي مهامه في ظل فعالية الأنظمة الأخرى، فإذا كانت موارد القطر شحيحة جداً، أو كان النظام السياسي فيه مختلاً، وأدى ذلك إلى انتشار البطالة والعطالة عن العمل، فإن نظام الزكاة بالتالي لا يوصلنا إلى الأهداف المنشودة منه.

---

(١) نهاية التاريخ: ١٠٨.

وباعتبار الزكاة جزءاً من النظام الاقتصادي الإسلامي فإنها أيضاً لا تؤدي وظائفها إلا بفاعلية النظام الذي تنتمي إليه، فمثلاً (القرض الحسن) جزء من ذلك النظام، وإعراض الدولة أو الشعب عنه يؤدي إلى نوع من تعطيل حركة المال وتداوله، وبالتالي إلى ضعف حركة التنمية والاستثمار؛ مما يفضي أيضاً إلى قلة فرص العمل وكثرة الفقراء والمعوزين.

ومرة أخرى فإن فاعلية نظام الزكاة ترتبط جزئياً بقيام الدولة بواجباتها في ضمان الحد الأدنى من المعيشة للفقير بالقدر الذي يحفظ عليه كرامته؛ ويجعله في وضع منتج مثمر، فإذا عجزت الدولة عن ذلك، أو قصّرت فيه فإن آلية (نظام السوق) ستوجد شريحة واسعة من المحتاجين الذين لا يمكن أن تقوم بهم أموال الزكوات والنذور والكفارات. . . . وينفعل كل ذلك ويتأثر بقوة النظام القيمي وفاعليته، فإذا كان نشطاً اندفع الناس إلى التطوع بالكثير من الأعمال الخدمية، واندفع كثير من الفقراء إلى العمل والحركة مع حسن التدبير والتعفف عن أموال الآخرين؛ مما يخفف من غلواء الحاجة.

هذا كله يدل على شيء واحد، هو أنه لا مناص للمصلح من الرؤية الشاملة وإدراك العلاقات التبادلية بين جوانب الحياة كافة، إنه بعبارة أخرى الأخذ بالكتاب كله على نحو ما قاله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[1].

١٠ ـ لا يمكن تحقيق المصالح الجزئية إلا في إطار المصالح الكلية:

من أهم مظاهر الفساد والانحلال شعور الأفراد أن مصالحهم لا تتحقق إلا بتدمير مصالح مجتمعهم الذي يعيشون فيه؛ فذلك دليل بيِّن أن البناء الاجتماعي كله مؤسس على زَغَل، وأن تعايش الناس بعضهم مع بعض لم يعد يحقق سوى ما يحتاجه استمرار الوجود من التعاون والتناصر. الإسلام

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٨، وانظر مقالاً لنا حول هذا في مجلة البيان العدد ٧٥ ص: ٨.

في أحكامه وتقريراته يرسي قاعدة: «أنا لمجتمعي، ومجتمعي لي»، وحديث السفينة المشهور دليل واضح على ما نقول: فالمسلم يحقق مصالحه الخاصة، ويتنازل عن بعضها، ويأخذ من مجتمعه بعض حاجاته، لكن ذلك كله يتم في إطار تحقيق مصلحة المجموع. في حالات الانهيار يفقد المجتمع وحدته العضوية، فلا يتألم الكل لألم الجزء، ولا يعمل الجزء لخدمة الكل، لكن فطرة الله ـ تعالى ـ التي فطر عليها الكيانات الاجتماعية تشير إلى أن الفرد لا يستطيع أن ينمو، وأن يجسد إرادته، وأن ينتقل من الغريزة إلى الإلهام إلا من خلال العيش في مجتمع، وفي مجموع الإحالات العقلية والشعورية لكل واحد منا ما يوحي إلينا بضرورة تجاوز خصوصياتنا نحو الشأن الكلي، وأن تلك الخصوصيات لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تحقيق المصالح الكلية.

وبالمقابل فإنه لا معنى للمشاعر والمصالح الجمعية إذا لم تؤمِّن للفرد ما يقنعه ويرضيه.. وهذان الأمران لا يتمان من خلال تراكم الإرادات الذاتية والمصالح الخاصة بطريقة عشوائية ساذجة، وإنما عن طريق القدوة. والدولة والمصلحون الأخيار يعلمون الناس فنون التوفيق بين الخاص والعام، وكيفية خدمة الجزئي للكلي، والكلي للجزئي، وذلك من خلال سيرتهم وسلوكهم وتضحياتهم وإرشاداتهم.

والدولة ذات أهمية قصوى في هذا فهي مركز التوازن الذي تتلاقى فيه كل المعادلات الاجتماعية، وهي من خلال تنظيماتها وتشريعاتها تعظِّم الحسَّ الجمعي، وتبني المصالح المشتركة، وتشذب الزوائد المصلحية، وتسد الفجوات، وتبلور الأهداف المستقبلية المشتركة للمجتمع...

إن الذي يريد أن ينمو على حساب اضمحلال مجتمعه أشبه ما يكون بـ(السرطان) الذي ينمو على حساب تدمير الجسم الذي يعيش فيه، وهو حين يدمر ذلك الجسم يدمر نفسه في النهاية!

وإن أفراد المجتمع الذي يشيعون في مجتمعهم الظلم وأكل الحقوق وإدمان المخدرات والبطالة... ـ إن هؤلاء إن لم يدمروا أنفسهم دمروا أبناءهم وأحفادهم، وإن انتعاشهم الظاهري أشبه بانتعاش (خضراء الدمن)،

فهي مهما بدت زاهية إلا أنها تحمل في النهاية كل خصائص (الروث) الذي تترعرع فيه!!.

وقيمة الدولة وعزتها وتقدمها، هي في البداية والنهاية من قيمة شعوبها، ونجاحها وأمنها لا ينفكان أبداً عن نجاح شعوبها وأمنهم، بل إن العالم اليوم أشبه ما يكون ببحيرة صغيرة، لا بد لتحريك الماء في أحد جوانبها من أن يحدث اضطراباً في باقي الجوانب، وإن على الدول الكبرى التي تتبع سياسات إفقار الشعوب المستضعفة أن تعلم أنها ليست بعيدة عن خضراء الدمن، وأنه قد أتى اليوم الذي لن تجد فيه ما تنهبه، ولا ما تصدره؛ لأن الشعوب الفقيرة ما عاد لديها ما تشتري به!!.

١١ ـ الزحام يبعث على العدوانية:

ليست مهمة الدعاة والمصلحين أن يرشدوا الناس إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوه فحسب، بل إن عليهم أن يساعدوا الناس من خلال الطرح الفكري، ومن خلال الحركة الاجتماعية على أن يعيشوا في ظروف تؤمن لهم الراحة النفسية ووضعاً أمثل للإنتاج والعطاء. ومن البدهي أن كل واحد منا يرسم مجاله الخاص به سواء في السكن أو المكتب أو المدرسة، وحتى الشارع، وإن أي عدوان على ذلك المجال يثير مشاعر الضيق، وأحياناً العدوان، وهي مشاعر خاصة لا توجد إلا مع الاعتداء على الموطن[١].

الكثافة السكانية الهائلة في المدن ـ ولا سيما في الأحياء الفقيرة ـ والزحام في صفوف الانتظار أمام دائرة حكومية أو على مخبز أو وسيلة نقل ـ

---

(١) ظاهرة التضايق من العدوان على الموطن موجودة لدى كثير من أنواع الحيوان؛ فأسماك المرجان ـ مثلاً ـ تثبت قوة ارتباطها بموطنها من خلال التلون بلون صارخ على غرار ما يفعله الإنسان عندما يرفع راية للدلالة على حدود أرضه. ويزداد هذا الارتباط حدة في موسم الإخصاب لأنه وقت تأسيس العش، فظهور فرد من الجنس نفسه للنزاع على هذا المكان كفيل بأن يثير على الفور أزمة عدوان عنيفة. انظر عودة الوفاق: ١٠٦ وما بعدها.

كل ذلك وأشباهه يثير لدى الناس مشاعر البَرمَ والتأفف، ويؤدي إلى ما لا يحصى من الصدامات والنزاعات.. ويؤدي علاوة على ذلك إلى سوء الأخلاق واللجوء إلى (الوساطة) والرشوة بغية الحصول على شيء أو خدمة نادرة من غير وجه مشروع.

والأمر يتجاوز ذلك في الحقيقة إلى عملية التربية نفسها، إذ إن اكتظاظ الأبناء في حجرة واحدة[1] يؤدي إلى صعوبة دراستهم ومذاكرتهم وصعوبة الفصل بين الذكور والإناث، وإلى شعور كل واحد منهم بأنه متضرر بسبب وجود الآخر، وينتج عن ذلك من الطباع والعادات والأخلاق ما لا يمكن وصف أي شيء منه بأنه حميد.

أحد الحلول الرئيسية للزحام (الهجرة) في الأرض وتتبع مواطن الرزق ـ وإن كان لكل شيء ثمن ـ وما أجمل قول الله ـ سبحانه ـ في هذا السياق: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2] وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[3] وقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[4].

إن أكبر مشكلة تواجه الشباب اليوم عند انتهاء دراسته هي (السكن)، وفي أكثر بلدان العالم الإسلامي لا يفي الدخل الشهري للشاب بأجرة السكن الذي يسكنه، فهل آن لنا أن نعيد النظر في أساليب إعدادنا أبناءنا للحياة وأساليب تعليمهم وتدريبهم، وكيفيات حصولهم على عمل، ومعالجة المشكلات الضخمة التي تطحن الجيل الجديد؟!

---

(١) في بلدان عديدة من عالمنا الإسلامي أسر كثيرة تعيش في حجرة واحدة، والمرافق مشتركة بين أهل العمارة كلها! وفي الهند تغلق بعض الشوارع في (دلهي) لتتحول إلى فنادق حيث تعيش أسر كثيرة فيها!!.

(٢) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٤) سورة النساء: الآية ١٠٠.

١٢ ـ حياة الحاضرة هوَّنت من شأن المحرَّمات:

تشهد أكثر بلدان العالم الإسلامي هجرة واسعة من القرى إلى المدن، حيث فرص العمل، والخدمات أحسن حالاً، وحيث الانعتاق من كثير من صور الرقابة الاجتماعية[١]. ويعتمد الإسلام في استقامة السلوك ونظافة الشارع على ما يتواطأ عليه الناس من أعراف حميدة، وفي المدن الصغيرة والقرى تتكثف الرقابة الاجتماعية، ويحسب الناس حساب النقد الذي يمكن أن يوجَّه إليهم؛ مما يعني نوعاً من الالتزام بالسلوك الإسلامي. ويلاحظ أن مبدأ «كل ما هو كبير جميل»، قد فعل فعله في مدننا الإسلامية، فصار كثير منها يتجاوز سكانها المليون نسمة، وهذا أدى إلى نوع من التهجين للأعراف والثقافات، وأشاع نوعاً من التهاون تجاه المحرمات الثقافية والأخلاقية، وصار كل واحد يقول: أنا حر فيما آتي وأذر، وأنا آخذ ما يناسبني، وأترك ما عداه[٢]..

ونظراً لما تفرضه حياة المدن من نفقات باهظة صار الواحد يعمل الساعات الطويلة دون أن يجد وقتاً لأي شيء آخر، كما أن البيوت الفخمة الموجودة في كثير من الأحياء أوجدت نوعاً من العزلة الاجتماعية، بل إن سكان المدينة الواحدة صاروا ذوي ثقافتين متباينتين: ثقافة الأحياء الشعبية وثقافة الأحياء الراقية، وينظر كل منهما إلى الآخر نظرة عدم ارتياح!!.

الخلاصة التي أفرزتها حياة الحاضرة هي (القصور الاجتماعي) وضعف التبادل أو انعدامه، وهذا وذاك يؤديان إلى توسيع نفوذ الأقوياء وزيادة تهميش الضعفاء والفقراء، وهذا من أكبر المعوقات التي تقف في طريق التغيير والإصلاح، وهل هناك أشد ضرراً من أن يفقد مجتمع ما اللغة المشتركة التي يتحدث بها؛ ليتصرف كل حسب هواه ومصالحه الضيقة؟!!.

---

(١) تشهد (ماليزيا) حركة تصنيع واسعة، وقد أدى هذا إلى تحول البلد من زراعي إلى صناعي؛ مما أدى إلى هجرة الشباب إلى المدينة، وقد أدى ذلك إلى حالة من التفلت والتسيب لدى كثير منهم بسبب انعدام رقابة الأهل والحي.

(٢) السابق: ١٠٥.

١٣ ـ لا بد لكل قطر إسلامي من بلورة مشروعه الوطني:

متطلبات الحياة كثيرة، وتفاصيل الإسلام والمنهج الرباني أيضاً كثيرة، وعلى الرغم من أن الدول الإسلامية مصنَّفة مع ما كان يسمى بالعالم الثالث، ولا توجد فيها أية دولة صناعية أو متقدمة علمياً إلا أن لكل بلد ظرفه الخاص وأولوياته الخاصة وتجربته التنموية الخاصة، ومن ثم فإن على المصلحين في كل بلد أن يبلوروا ملامح (المشروع الوطني) الذي يمكن لهم أن يتخذوا منه إطاراً لجهودهم الإصلاحية والحضارية. ويمكن تعريف المشروع الوطني بأنه: «الخطوط العامة لما يتراضى على إنجازه أهل قطر في مرحلة تاريخية معينة». ونرى أن من الخطوط العريضة لأي مشروع وطني ما يلي:

أ ـ استقلال الذات الحضارية بما هو مكوِّن عقدي ونفسي وفكري وثقافي وتاريخي، وبلورة قسماتها وخصوصياتها، وتدعيمها من خلال سلسلة من الرموز التاريخية ـ والتي هي إسلامية صرفة بطبيعة الحال ـ ومن خلال سلسلة من المعارك التعليمية والتنموية الناجحة. ولا بد من القول: إن شروط وسمات الاستقلال الذاتي تختلف من عصر إلى آخر، ففي بعض العصور يكون محور الاستقلال هو التماسك الاجتماعي، وفي بعضها القدرة العسكرية، أما في زماننا فإننا أكبر ضمان للاستقلال هو القدرة الاقتصادية المتميزة، فالاقتصاد الجيد هو الأداة الفعالة التي يمكن استخدامها في التقدم العلمي وفي بناء القوة العسكرية، وفي حل المشكلات الخانقة التي تفتت المجتمع، وتعود على النظام الثقافي فيه بأفدح الأخطار. ولك أن تقارن وضع اليابان وألمانيا بوضع روسيا حيث الأخيرة قوة عسكرية كبرى، لكنها مفلسة اقتصادياً على حين تحتل الأوليان الوضعية المعاكسة، فقد أصبح اليوم بالإمكان تجاوز أهمية السلاح من خلال الوضع الاقتصادي المتميز. وشعار العصر الذي نعيش فيه هو (السياسة في خدمة الاقتصاد) ويمكن أن يقال: كل شيء اليوم في خدمة التجارة والاقتصاد!.

لا يمكن اليوم لأمة مفلسة مدينة تجتاحها المجاعة أن تحافظ على استقلالها السياسي أو الوطني أو الثقافي؛ فالذي يمد يده للاستجداء يظل

مستعداً لتقبل كل الشروط التي تُفرَض عليه من المانحين وأشياعهم.

ب ـ تعزيز التلاحم الاجتماعي، وذلك من خلال جعل عقيدة التوحيد المحور الذي تدور في فلكه كل الرؤى والتصورات والتوجهات والتفريعات الفكرية، وإشاعة الالتزام والخلق القويم والمعروف والإحسان وصلة الأرحام. . .، وامتصاص التوترات المذهبية والعرقية واللغوية التي قد يأتي بها التنوع الثقافي، وذلك من خلال إشاعة العدل، وتجاوز هذه الخصوصيات بأخذ الدولة مسافة عنها جميعاً.

ولا بد حتى يحدث التناغم الاجتماعي من دعم الطبقة الوسطى ومساعدة الفقير والضعيف ومحاصرة ذوي الدخل غير المشروع الذين يعدون المسؤول الأول عن تهميش الطبقة الوسطى.

جـ ـ تأمين السلام الداخلي من خلال التعاون بين الدولة والشعب في تحقيق الأهداف العليا، وإشادة المرافق العامة، وتحقيق تحالف خفي في وجه العدو الخارجي الطامع في خيرات البلاد؛ ولن يتم ذلك إلا من خلال نشاط التبادل الاجتماعي وشفافية الدولة وإيصال الحقوق إلى أصحابها وإيجاد تكافؤ الفرص بين الناس، وإصغاء كل الأطراف لملاحظات بعضها بعضاً، ومحاسبة المفرطين ومحاربة الفساد والمحافظة على مقدرات الوطن، وبر الناس بأوطانهم ومكافئة المحسن وتشجيع المبادرات الفردية. . .

د ـ الاستغلال الأمثل للموقع الجغرافي والإمكانات البشرية والمادية على الوجه الأكمل، فبعض البلدان الإسلامية تحتل موقعاً جغرافياً هاماً يؤهلها لأن تكون مركزاً تجارياً ضخماً، وبعضها يملك أراضي خصبة شاسعة، تؤهلها إلى أن تكون رقماً صعباً في الغذاء العالمي، وبعضها وبعضها. . . .

والدولة التي ليس لها موارد جيدة بإمكانها أن تقوم بتوظيف الطاقة البشرية لديها في صناعات لا تتطلب أموالاً ضخمة مثل (صناعة المعلومات) مثلاً.

هـ ـ تعظيم الانتماء لأمة الإسلام؛ فهذا الزمان زمان الكبار، وزمان

الكتل السياسية والاقتصادية، ومهما بلغت قدرات أي بلد إسلامي فإنه سيظل صغيراً جداً، وسيظل بحاجة ماسّة إلى التعاون والتكامل مع البلدان الإسلامية الأخرى.

إن خدمة الأوطان وتنمية المعطيات المحلية لا يسوِّغ في حال من الأحوال إيجاد انتماء ضيق بديل عن الانتماء الإسلامي أو مضادٍ له؛ فالأعداء يعاملوننا على أننا شيء واحد، وينبغي أن نكون كذلك.

و ـ المبادرة إلى تطوير النظم التربوية والتعليمية، وتدعيم مجالات البحث العلمي، وتعزيز التدريب الفني وتأهيل الكفاءات العلمية والمهنية وتغيير العادات والتقاليد التي تحول دون التوجه التخصصي المناسب في بعض الحرف والمهن، وتوفير الإمكانات اللازمة لإشاعة الثقافة الراقية ومحو أمية الأميين والمثقفين.

ز ـ كل مشروع وطني إسلامي بحاجة إلى الامتداد نحو الآفاق الخارجية، ورسم المجالات الحيوية التي تمثل نوعاً من النفوذ الأدبي والمادي في أرض الآخرين، والإمكانية الأهم التي يمتلكها المسلمون في هذا المجال هي رسالة الإسلام بما تحويه من مبادئ وقيم ونظم ربانية هادية، فينبغي أن يكون من الاهتمامات الأصيلة لكل مشروع وطني نشر رسالة الإسلام في الدول غير الإسلامية المجاورة والبعيدة؛ فذاك لا يخدم مصالحنا فحسب، لكنه قبل ذلك جزء من مسوِّغات وجودنا على هذه الأرض؛ وإننا لنشعر أن أمة الإسلام فقدت هيبتها في العالم لما تخلت عن مهمتها في البلاغ المبين وحمل أعلام الهداية للعالمين!.

١٤ ـ المسافة بين المبادئ والعقيدة الاجتماعية هي المسافة بين الصحة والمرض:

المبادئ النظرية هي مجموعة القيم والمثل التي يؤمن بها شعب من الشعوب، مثل الصدق والأمانة ومساعدة الفقير وإحقاق الحق والإحسان إلى الجار. . . وهذه المبادئ وغيرها من القيم الفاضلة موضع إجماع بين أكثر أمم

الأرض. وهذه المبادئ النظرية تدخل محنة حقيقية حين تدخل معترك الحياة العملية، ويسعى الناس إلى تجسيدها في واقعهم المعيش؛ فالناس دائماً يحاولون التوفيق بين مبادئهم ومصالحهم، وهم يجدون أنفسهم في أحيان كثيرة مضطرين إلى التضحية بشيء من هذه أو تلك، وذاك من جوهر الابتلاء لنا. ومن ثم فإن (العقيدة الاجتماعية) تفرز نوعاً من السلوك تتجسد فيه المبادئ والمصالح معاً؛ لأن (العقيدة الاجتماعية) هي جماع المبدأ والمصلحة معاً. والمجتمع الصحيح الملتزم الذي نجح في التوفيق ـ إلى حد مقبول ـ بين قيمه ومصالحه تكون المسافة بين قيمه ومصالحه محدودة جداً وعند بعض أفراده معدومة، فأكثر الناس لا يجدون من أجل الوصول إلى حقوقهم وأخذ فرصهم واحتلال كينونتهم لكل الأبعاد الطبيعية التي تحتاجها حاجةً إلى القفز على مبادئهم وتجاوزها. أما المجتمع (المريض) فإنه ينشأ بين مصالحه ومبادئه نوع من التضاد والتنافي؛ فالصدق يفوِّت مصلحة، وتحقيق مصلحة يقتضي الكذب. والالتزام بأكل لقمة الحلال يؤدي إلى الفقر وشظف العيش، والعيشُ المريح لا يأتي إلا من وراء الرتوع في الحرام... وذلك لأن الصدق في مجتمع يسوده الكذب يصبح عقوبة لصاحبه الذي يظهر بمظهر (المجرم الوحيد) وهكذا....

ولذا يمكن القول إن المجتمع المتوحش أو المتخلف لا يخلو من قيم ومثل عليا، لكن المسافة التي تفصل بين مثله وواقعه مسافة شاسعة واسعة حتى كأن كلاً منهما ينتمي إلى عالم مختلف...

ويستطيع المصلحون من وراء تفحص (العقيدة الاجتماعية) وفك رموزها والوقوف على جذورها وامتداداتها أن يتعرفوا على مدى صحة مجتمعهم وعلى مدى التداخل الجراحي الذي يحتاجه حتى يتمتع بالعافية.

١٥ ـ لا بد من فلسفة جديدة للإنتاج والاستهلاك:

ثمة دواع كثيرة تحتم علينا أن نعيد النظر في أساليب عيشنا جميعاً على مستوى طرق الإنتاج، وعادات الاستهلاك؛ فالمسلم مأمور بالمحافظة على

الأرض التي يعيش عليها والانتفاع بها بقدر حاجته وتركها غنية صالحة لانتفاع الجيل الذي بعده[1]، كما أن ابتكار أساليب جديدة في الاستثمار البنّاء للطاقات المتوفرة وأساليب جديدة للمحافظة على الموارد المتاحة، كل ذلك مطلوب من أجل تلبية حاجات الإنسان المسلم الضرورية التي تجعله في وسط مريح ومنتج، يساعده على القيام بواجبات (الاستخلاف) بكفاءة وفاعلية.

لن يتحقق شيء مما نطمح إليه ما لم يعلم الفقير فينا أن البؤس والحرمان الذي يعيش فيه يأتي بفيض من الأدواء والعلل الخلقية والنفسية، وأن كثيراً من مشكلاته سوف يحل إذا استطاع أن يغير من أسلوب تفكيره وأسلوب عيشه. كما أن على الثري أن يعلم أن الثراء لا يدوم، وأن فكرة (البقرات العجاف) بعد (البقرات السمان) شيء ثابت في التراث الثقافي للبشرية.. هناك قضايا معقدة وملحّة، على عالمنا الإسلامي أن يواجهها بجرأة واتخاذ قرارات جذرية وشجاعة، ومن تلك القضايا الغذاء والماء والطاقة، وهذا الثالوث يشكل أكثر من ٨٠٪ من مشكلات المسلمين المادية، وهو مصدر لأكثر من ٦٠٪ من مشكلاتهم التربوية والثقافية والأخلاقية!.

في مجال الغذاء لا بد من إقامة مراكز أبحاث متطورة تتعاون في إقامتها مجموعة من الدول الإسلامية، وتنفق عليها بسخاء من أجل إجراء الدراسات حول (الهندسة الجينية) في مجال الحيوان والنبات ومجال استنبات أنواع جديدة من المحاصيل والحراجيات التي ترتوي من المياه المالحة، حيث إنها متوفرة في العالم الإسلامي بكثرة كاثرة. كما أنه لا بد من تعليم الناس كيفية استغلال أسطح المنازل وأفنيتها في إنتاج الأسماك والخضروات والفاكهة وحفز وتشجيع كل الأفكار الجديدة في هذا المجال، كما أن من الواجب ترشيد استهلاك الأطعمة، وتعليم الناس طبخها بطريقة اقتصادية، حتى لا يلقى منها شيء...

---

(١) شبه بعضهم الأرض بمكتبة نعتني بها، ونغنيها بالجديد، ونتركها للأبناء والأحفاد ليفعلوا مثلنا!.

في مجال المياه فإن على العالم الإسلامي أن يتوسع في دراسات تحلية مياه البحار واستنباط طرق جديدة في المحافظة على المياه العذبة؛ فالكثير الكثير منها يهدر بطريقة مزعجة على حين أن بعض الدول اخترعت طرقاً حديثة للري، مثل الري بالرش والتنقيط، ومثل صبّ طبقة من (البلاستيك) تحت التربة حتى لا تصل مياه السقي في الحقول إلى الأرض السابعة دون فائدة كما هو حاصل اليوم!!.

وأما مجال الطاقة فإنه قد يكون أكثر المجالات الثلاثة أهمية؛ لأن توفرها سيحل مشكلات كثيرة على جميع الأصعدة الإنتاجية. وفي هذا المقام نجد أن العالم الإسلامي بطوله وعرضه لم يبذل أية جهود متميزة ومثمرة في استنباط واستخدام مصادر الطاقة المتجددة مثل مساقط المياه وهبوب الرياح والطاقة الشمسية والاستفادة من حرارة باطن الأرض والاستفادة من الطاقة الشمسية عن طريق الإنتاج النباتي والتمثل الضوئي وكذلك تحويل المواد الأولية النباتية إلى وقود غازي بالتخمير البكتيري.... كل هذه المجالات وأخرى غيرها لم يحدث لدينا في استثمارها أي تقدم يُذكر.

أما على صعيد الاستهلاك للطاقة فإن (العزل الحراري) ما زال معدوم الاستخدام في كثير من بلدان العالم الإسلامي! وماذا علينا لو حددنا سرعة السيارات والطائرات في سبيل الاقتصاد في استهلاك الوقود، وماذا علينا لو وضعنا من الإجراءات ونشرنا من الثقافات التي تحبذ استخدام السيارات الصغيرة أو وسائل النقل العامة أو الاعتماد على الدراجات العادية أو المشي أو... إن هناك إمكانات كثيرة لم تستخدم بعد لا في مجال الطاقة ولا في غيره!.

إن تجاوز المشكلات الحرجة التي يعاني منها العالم الإسلامي يحتاج - فيما يحتاج إليه - إلى سياستين متوازيتين:

الأولى: أن تتيح الدولة للناس كل فرص الرقي والتعليم والتدريب؛ لينهض أهل الطموحات والنفوس الكبيرة، وليدفع الكسالى والفوضويون ثمن قصورهم وتفريطهم.

وتقوم **الثانية**: على أنه لكل واحد أن يأكل ما يشاء، ويركب ما يشاء، ويسكن من المباني الفخمة ما يشاء، لكن عليه أن يدفع ثمناً لكل ذلك لتعود به الدولة على بناء المرافق العامة، وعلى المعوزين الذين لا يجدون الضروريات: (مارس حريتك وادفع الثمن).

هذه القضايا هي من الأهمية بمكان يجعلها تستحق تصدُّر اهتمامات السياسيين والمربين والمصلحين، وإهمالها إهمال لقطاع واسع وهام، ضرب فيه القصور كل أطنابه وأوتاده!.

١٦ ـ فقدان تقرير المصير قاعدة الانهيار[١]:

في خضم التغيرات الضخمة التي يشهدها العالم يتحتم علينا ـ معاشر المسلمين ـ أن ننظر بعين مفتوحة إلى النتائج الكبرى التي تتمخض عنها التطورات الراهنة المتسارعة؛ فالناس في الأحوال العادية يقومون بأعمال يعتقدون أنها تساعدهم على الوصول إلى أهداف معينة، وكل الأهداف التي تتحقق تنطق بلغة واحدة، هي أن من يحقق أهدافه يكون أقدر على تقرير مصيره، وأقرب إلى البقاء في الاتجاه الصحيح..

يمكن أن نشبه الحركة الاجتماعية الموجهة والمنضبطة بسيارة يقودها سائق رشيد، يعرف أين يتوقف، وأين يسرع.... أما فقدان تقرير المصير فهو لا يبتعد في نتائجه عن حالة أقوام ركبوا سيارة، وجهوها نحو منحدر، ثم تركوا لها حرية الحركة!! لا ريب أن النتيجة ستكون مأساوية!.

لا يوجد مجتمع يتمنى التمزق، لكن كثيراً من المجتمعات يقدم في النهاية الذرائع التي تقوده إلى مصيره المحتوم!.

والسؤال الآن ما العوامل التي تساعد على انفلات الحركة الاجتماعية، وضعف التوجه نحو المصير المرغوب؟

في تصوري أن (الشقاق الاجتماعي) هو أكبر العوامل المؤثرة في هذه

---

(١) انظر في هذا: مختصر دراسة التاريخ ٢: ٨.

المسألة، فحين تفقد قيادات المجتمع الجاذبية فإن العامة تكف عن التقليد، فتكون النتيجة نوعاً من الانفصام بين الصفوة والقوى الشعبية التي تقوم عادة بدور التنفيذ، وكثيراً ما تلجأ القوى المتنفذة إلى فرض هيبتها بالقوة؛ مما يؤدي إلى نوع من التناحر الداخلي، وآنذاك فإن من العسير جداً للمجتمع أن يسيطر على مصيره؛ بل إن القوى الخارجية تتدخل لاستثمار ذلك الشقاق في تسريع المجتمع نحو نهايته المؤكدة!.

وآنذاك فلا يوجد رابح، حيث يغرق ركاب الدرجة الممتازة مع ركاب الدرجة الثالثة؛ لأنهم جميعاً عجزوا عن توجيه سفينتهم إلى بر الأمان! ولا ينبغي لنا أن نهون من شأن التخلف والشعور بالدونية والفقر والجهل وما إلى هنالك من ألفاظ يفيض بها معجم الانحطاط ـ في الخضوع لإرادات الأعداء ومخططاتهم؛ فأول شرط من شروط تقرير المصير امتلاك الإرادة الحرة، والحرية ليست شعاراً، وإنما هي القدرة على الاختيار، والاختيارُ لا يكون إلا عند وجود بدائل، ولا بدائل أمام المعوز؛ فهو لا يجد الضروري فضلاً عن أن يجد بديلاً له!.

إن علينا أن نتذكر أن (تقرير المصير) ليس أمنية تخفق بها الأفئدة، ولا هي كلمات ترددها الشفاه، وإنما هي في النهاية الثمار اليانعة التي تقطفها أمة ما مكافأة لها على مجموع المعارك الحضارية الظافرة التي تخوضها على صعيدها الوطني!.

١٧ ـ النقلة الصناعية خطوة مهمة على طريق الإصلاح:

حين ينظر مسلم إلى كثير مما يلبسه وإلى أكثر ما يستخدمه من آلات ومصنوعات دقيقة... ثم يجد أنها صنعت بأيد غير إسلامية يترسخ في حسّه وأعماق كيانه أننا أمة دون الأمم الأخرى، وأن هناك ـ ولا بد ـ أموراً ثقافية وحضارية معينة أدت بنا إلى عدم القدرة على تصنيع ما لدينا من مواد خام، وإلى العيش تحت وطأة شروط قاسية يضعها عدو لا يرحم!.

لا يستطيع المرء أن يشعر بالتأنق والرفاه والكرامة إذا لم يجد نفسه

مكافئاً للآخرين فيما ينتجونه، ويقدمونه للبشرية؛ ولا ريب أن مدى التقدم الصناعي (خاصة) هو المعيار الدقيق لقدرة شعب من الشعوب على استثمار موارده، وتدريب أبنائه، بل إنه معيار للتقدم العلمي والمعرفي وسنظل نُستغل أسوأ استغلال ما لم نتمكن من إحداث نقلة صناعية نوعية، نوفر من خلالها فرص العمل لملايين الأفواه الجائعة، ونفرض من خلالها احترامنا على الصعيد الدولي، ونداوي قبل ذلك بها جرحاً غائراً في كبرياء مسلم اليوم. إن طناً من الحديد الخام قد يباع بألف دولار، فإذا حولناه إلى ساعات يدوية أمكن بيعه بمليون دولار. وإن (برميلًا) من النفط إذا أمكن استخدامه في صناعة ثياب فاخرة كان عائده مئة ضعف وهكذا. . .

إن عمليات الإصلاح لا يجوز أن تقتصر على معالجة بعض القيم والمثل، وإنما يجب أن تشمل جوانب الحياة كافة.

١٨ ـ الإرادة الحرة تكشف الإمكان الحضاري وتصْنعه:

حين نتأمل في الفوارق بين قدرات الناس العقلية والجسمية نجد أنها ضئيلة في أكثر الأمر، لكن الفارق الضخم بين الناس يكمن في إرادتهم، فكل واحد منا يستطيع أن يجلس ساعتين متواصلتين منكباً على كتاب، يتشرب ما فيه من معرفة منظمة؛ لكن الذين يملكون الإرادة اللازمة لفعل ذلك قلة؛ فالله ـ جل جلاله ـ منح القدرة، وابتلانا بمجاهدة نفوسنا لنحصل نحن على الإرادة التي هي أول شروط الإنجاز. وبالإمكان القول: إن الإمكانات الحضارية المتاحة أمامنا هائلة، والشرط الوحيد لاكتشافها هو أن نعيد اكتشاف أنفسنا، ومن ثم فإن الشعوب المتخلفة هي شعوب لم تكتشف أنفسها! كان الطب في كوريا يدرس باللغة الإنجليزية، ثم أصدر رئيس الدولة قراراً بتدريسه باللغة الكورية، فهاج الأساتذة، وماجوا محتجين بأن أضراراً بالغة سوف تلحق بالطلاب إذا تم ذلك، فالكورية ليست لغة حية، والمراجع الطبية المكتوبة بها عدم. . . وكان موقف رئيس الدولة هو أنه بعد عام سوف يكون التدريس بالكورية وإلا فإن الدولة سوف تغلق الكلية إلى أن يجد الأساتذة في أنفسهم الكفاءة لذلك! وخلال عام تهيأ الأساتذة لذلك وفتحت الكلية أبوابها، وسار

كل شيء على ما يرام، وانتهى تدريس الطب هناك بالإنجليزية إلى غير رجعة. . . فهل إمكانات الكورية في استيعاب العلوم أكبر من إمكانات العربية؟ الجواب: لا أحد يقول بذلك. إذن كيف حصل ذلك عندهم ولم يحصل في السواد الأعظم من جامعاتنا؟ الجواب: أن الإرادة الحرة هناك اكتشفت الإمكان الحضاري، ووظّفته ونمّته، أما نحن فسوف يحصل ذلك عندنا حين نشعر بضرورة احترامنا لأنفسنا!!.

فهل نقول بعد هذا إن الأمة بحاجة إلى معاهد ودورات وبرامج تتعلم فيها كيف تكتشف نفسها، وكيف تُصلّب إراداتها على طريق استغلالها للإمكانات الهائلة الموضوعة بين يديها؟ ذاك بالطبع ضروري إذا اقتنعنا!.

١٩ ـ كلما تعقّدت مصالح الإنسان شعر أن ما هو فطري لديه لم يعد كافياً:

زوّد الله ـ تعالى ـ الإنسان والحيوان بمجموعة من الغرائز التي تدفعه إلى المحافظة على وجوده، وقنع الحيوان بتلك الغرائز، وظل يعيش في ظلال الأمن النسبي الذي توفره له، لكن الإنسان ـ الخليفة والقائد والمفكر ـ لم يرض أن يظل عبداً لغرائزه، فأخذ يتجاوزها نحو تنمية الإمكانات والقابليات المزود بها، واستطاع من خلال ذلك السيطرة على الحيوان، وكثير من جوانب الطبيعة، وذاك أدى إلى رقي حاجاته ومرفِّهاته، إلى أن أصبحت الآلات تخدمه بمجرد لمسة أو همسة أو نظرة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. إن الإنسان يستطيع أن يجري بدافع غريزته، لكنه لا يستطيع أن يقود طائرة؛ لأن أفق الغريزة لا يلامس تلك المهارة الراقية والمعقدة، ومن ثم فإن عليه حتى يستطيع أن يعيش عصره أن يتجاوز حدود غرائزه نحو تنمية استعداداته من خلال المعرفة والخبرة والتدريب والمران والنقد والتطوير. . . وإن تحرر الإنسان من الخوف، كما أن إيغاله في الإنسانية متوقفان على ما يمكن أن يصقل به ذاته ومعارفه وتجاربه. وهذا الصقل أو التدريب مكلف جداً إذا ما قورن بالتعليم النظري، ومن ثم فإن الدول الفقيرة لم تحقق نجاحات تذكر في التعليم الفني مقارنة بنجاحاتها في التعليم النظري؛ وترتب على ذلك وجود كم هائل من المعرفة التي لا نعرف كيف نستخدمها، ولا نعرف ماذا نصنع بها!.

وظل الإنسان لدينا مثل مواردنا الاقتصادية (خاماً)، أي إنساناً بالقوة لا بالفعل، ـ كما يقول المناطقة ـ، وسيظل الواحد منا فاغراً فاه أمام ما تعرضه وسائل الإعلام من مهارات نادرة أبرزها التدريب والمران. فهل تساعد الشركات والمؤسسات والأثرياء لدينا على فتح مراكز ومعاهد لتدريب الشباب الذين لا يحسن الواحد منهم شيئاً؟!.

٢٠ ـ النقد البنّاء أهم وسائل الإصلاح:

يمكن القول إن النقد أسهل أنواع الإنجاز الفكري، وهو في جوهره ناتج عن مطابقة يسيرة بين ما هو كائن، وبين ما ينبغي أن يكون؛ ونحن حين نحبذ النقد فإنما نحبذ النقد البناء الموضوعي الذي لا يعتمد على الشائعات، ولا يستهدف الإساءة للأشخاص، ولا التشهير بهم، ولا نشر الفضائح، وإنما النقد الذي يساعد الأمة على البقاء في المسار الصحيح مشدودة نحو أهدافها الكبرى.

إن النقد يبلور معرفتنا بذواتنا وأصولنا، وإن كثيراً من الأفكار تظل غائمة ومعتمة ما لم تتعرض للنقد والحوار، وتلكها ألسنة المناظرة. ثم إن النقد يوفر لنا بيانات كثيرة، نحن بأمسّ الحاجة إليها، إذ إن الإنسان يحب الوضوح، ويحب العمل في أجوائه، والنقد من المصادر المهمة لذلك. والنقد يؤسس نوعاً من السلطة الأدبية التي يحتاج الإنسان إلى من يمارسها عليه ليعوض بذلك ما لديه من ضعف في الحوافز على العمل، أو ليحجزه عن الكسل، وسوء استغلال الوظيفة.

وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن النقد دليل على يقظة الوعي وانتباه المجتمع لواجباته ومسؤولياته، كما أن وجوده يقاوم القصور الاجتماعي الذي يصيب الأمم في أيام التدهور والانحطاط.

نحن نضيق بالنقد؛ لأنه يتطلب منا أن نرفع وتيرة جهدنا، أو تغيير عادات ألفناها، وأحياناً لأنه يقطع علينا طرق المنافع غير المشروعة...

لكننا نقول بأمانة إن هامش المناورة أمامنا محدود فإما أن نقبل بالنقد ـ

المشروع ـ وإما أن نصير إلى التأسن والركود أو الانهيار من الداخل، وليس القبول بالنقد أسوأها قطعاً على كل حال.

٢١ ـ إثراء البعد الروحي أولوية إصلاحية:

الأولويات الإصلاحية تختلف بين الحضارات والشعوب، لكن التمكين للروح والمعنى والمضمون والتفتح والتحرر الداخلي. . . كل ذلك ليس موضع جدال بين الحضارات، وإن كان هناك بعض الخلط بين ما هو روحي، وما هو ليس روحياً. . .

الذي ينظر في أحوال العالم النامي ـ ومنه عالمنا الإسلامي ـ يجد أن هناك نوعاً من الشكوى الدائمة من سوء الأحوال، ويجد إلى جانب ذلك فيضاً هائلاً من الحلول والتنظيرات والمواعظ التي لا تلقى أذناً صاغية، ولا تجد من يمتثل لها! والسبب في ظاهرة العجز عن التغيير والتخلي عن الأشياء الضارة هو الإفلاس الروحي والخراب الداخلي الذي يعاني منه إنسان العصر الحديث. ومن الأسباب الجوهرية لهذا الخواء أن فكرة الروح اختفت منذ مئة سنة، وغادرت مركزها المحوري الذي احتلته على مدار آلاف السنين، وصار ينظر إليها اليوم على أنها وهم وخرافة من خرافات الماضي، وصار يعبر عن الحديث عنها بأنه رجعي ولا علمي وما ورائي، وصار الإنسان في القرن العشرين يقبل دون جدل بأنه لا شيء في هذا الكون إلا الطاقة والمادة المعروفتان، وصار يعبر عن الروح في كثير من الكتب بمعنى: الوعي أو الصورة الذهنية للمدركات، أو المعنى أو المعنويات[١]. . .

صحيح أن المسلم لم يصل إلى هذه الحافة، لكن الخطط التنموية لدينا لا تختلف في موقفها من هذه القضية عن خطط الشعوب التي تنكر الروح وكل ما يتعلق بها. وقد قدمت الحضارة المادية الحديثة للإنتاج الصناعي والرقي المادي كل رهاناتها، وحين تتناقص إمكانات النمو المادي ـ وهذا

---

(١) نظرية الروح: ٢٢.

شيء قادم لا محالة ـ فإن الإنسان سوف يلجأ إلى الروح مرة أخرى، ليستمد منها طاقة الإبداع والتكيف مع الظروف الجديدة، لكنه سوف يجد أنه قد ردم كل المنابع الثرية التي يمكن أن يرتوي منها؛ فيجد نفسه مفلساً من الروح والمادة معاً!

إن صناعة المعلومات التي ستغدو عام (٢٠٠٠) أضخم صناعة في التاريخ تقوم في جوهرها على المنطق الصوري، والمنطق الصوري يدفع دائماً نحو (الشكلية)، وهي حين تنمو لا تكون إلا على حساب الاهتمام بالتحقق الروحي. صحيح أن (صناعة المعلومات) أعادت للعنصر البشري دوره من جديد لكنها أعادت دور (المخ) لا الروح. وحين يبدأ شيء ما بالتراجع والانحسار، فإن آخر ما يبقى منه هو الشكل؛ لأنه ملموس، ولأن الرقابة الاجتماعية والبشرية تحرسه، وتصونه، أما أول ما ينسحب فهو الروح والمضمون والمعنى! في كل مرة تنسحب فيها الروح كنا نصير إلى تعزيز الأنظمة والقوانين والتأكيد على إتقان الشكليات، لكن التجربة الثرية أظهرت للبشر عقم النظم في إنقاذ النفوس المتمردة من زج نفسها ـ وبعضها بعضاً ـ في غمار الأسى، لأن كل أسباب الانهيار الظاهرة ما كانت في الحقيقة سوى أعراض للسقم الروحي الذي يعاني منه مجتمع منهار! إن إنقاذ مستقبل البشرية سوف يتوقف ـ كما يقول توينبي ـ بدرجة أساسية على علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وقبل ذلك على علاقته بربه، جل وعلا[١].

لا بد لمصلحينا من التأكيد على أمور مهمة في هذا الصدد، منها:

- تعزيز علاقة المسلم بربه ـ سبحانه وتعالى ـ، وإعطاء ذلك أولوية في برامج التثقيف.

- تعزيز الشعور بالكرامة وإعطاؤه الأولوية على الرغبة في الحصول على المركز الأقوى أو الرغبة في تكديس الأشياء.

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ٤:١٢٧.

- تنمية روح الإبداع والوصول إلى أشياء جديدة؛ ذلك لأن مما يجهض الروح التطابق مع النماذج الموضوعة والمستقرة.
- إيثار الدائم على الزائل والقادم على الآني والشخصي على المتاعي.
- نشر الروح الإيجابية والتعاون مع الآخرين وتحجيم الروح الأنانية.
- تشجيع المبادرة الفردية لدى المسلم ومكافأة الذين يطلقون أكبر عدد ممكن من المبادرات الجديدة.
- الانحياز التام للمعنى والمضمون والفحوى والطلاقة والتدفق الداخلي واحترام المشاعر والأحاسيس واللمسات الشخصية.
- أن نمرن أنفسنا على الاستسلام والتسليم لله ـ جل وعلا ـ في قضائه وقدره بعد الأخذ بالأسباب واستنفاد الوسائل، وتربية الإرادة على الخضوع للحكمة الإلّهية المطلقة؛ فنحن نحرر إرادتنا من سلطان البشر لا لتتوجه إلى حيث تشاء، ولكن إلى حيث يشاء.

٢٢ ـ الإنسان الحر المندمج بغيتنا:

لا بد لأعمال الإصلاح أن تستهدف تحسين وضع الإنسان لدينا هذا الإنسان الذي استهدفته الشريعة الغراء، وسخر الله ـ تعالى ـ له كل ما حوله، وأوجد له الإسلام من ضمانات العزة والكرامة ما لا يوجد له مثيل في أي دستور من الدساتير، لكن ضرورة الاجتماع الإنساني تحتم نوعاً من التنظيم لسلوك الناس وعلاقاتهم بعضهم مع بعض، وحين كان المسلمون يعيشون في مجتمعات بسيطة كان كل واحد منهم يمارس حريته على نحو ممتاز، لكن حين دخلت الأمة في متاهات الجمود والانحطاط صارت تميل إلى القيود والانغلاق وتخشى من الانفتاح والتجديد والطلاقة، وكان ذلك في الحقيقة من النتائج السيئة لارتباك وعي المسلم تجاه التوفيق بين مجموعات

المتقابلات، ذلك التوفيق الذي لا يمكن أن نحوزه أبداً من خلال التنظير والتأمل، وإنما من خلال وهج الانطلاق الحضاري؛ والحركة الثقافية الموارة المتجددة. لا يخفى أن ضرورات العيش وتداعيات الفاقة قد جعلت من المسلم إنساناً ذليلاً يحتمل الآلام والعذابات إلى ما لا نهاية، وصار السكوت عن الحقوق المغتصبة شيئاً شائعاً لدى السواد الأعظم منا! الخوف من العدوان الخارجي، والحرص على تماسك الجبهة الداخلية كان عاملاً حافزاً على كبت حق التعبير الذي لم يبحه الإسلام للمسلم، ولكن أمره به. هاجس الخوف من الفتنة والوقوع في الفوضى والتوحش ظل يسيطر على أهل السنة والجماعة على مدار التاريخ، وقد أسهم كذلك في خنق عدد من الحريات العامة التي يتيح الإسلام للمسلم ممارستها، ولهذا الهاجس وجاهته، لكن الشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده، ومن ثم فإن الأمة وقعت في فتن ليس منها الفوضى والفراغ السياسي أو الإداري، وإنما وقعت في فتن الجمود وتراكم الأخطاء والانحباس الاجتماعي وانغلاق باب الاجتهاد والتدهور الثقافي...

ولا ريب أن التركيز الزائد على حرية الفرد قد يؤدي إلى نتائج مدمرة، ولا سيما في حالات الجمود واختلال التوازن وانقسام الوعي، ومن ثم فإن هناك سياستين لا بد من اتباعهما على هذا الصعيد:

أ - سياسة البناء النفسي للفرد ببث الشجاعة الأدبية فيه، وتسهيل نيل الوصول إلى حقوقه، ودفعه إلى ممارسة حرياته المشروعة.

ب - سياسيات تسعى إلى دمج الفرد في مجتمعه، وتعظيم الشعور بالمسؤولية لديه، وتنمية روح التعاونية الإيجابية...

وفي ظني أن الإنسان الذي يحمل نفسية (العبد) لا يمكن له أبداً أن يندمج اندماجاً إيجابياً في الجماعة التي يعيش فيها، حتى لو كانت جماعة عبيد، لكنه يختلط بها، ويعايشها؛ لأن الرق الشعوري والفكري لا يسمح لشيء من الطلاقة والتدفق الداخلي بالتفتح والاندفاع، وهما شرطان أساسيان للاندماج المجتمعي السوي.

إن كثيراً من الإسلاميين يخافون من كلمة (حرية)، وذلك خوف لا مبرر له؛ فالحرية تعطي فكر الأمة ومبادئها مناعة وبلورة وفرصاً للتحقق لا يمكن أن توجد في أجواء الانغلاق والقهر... وإذا قارنا وضع الإسلام والمسلمين في الغرب مع الأوضاع التي كانت سائدة في المعسكر الشيوعي، لوجدنا صدق ما نقول.

٢٣ ـ فريضة التمييز بين الحضارة والمدنية:

لا يستطيع أحد اليوم أن يتجاهل فتنة (الحداثة) وجاذبية المنتجات المادية الحديثة، ومن ذا الذي يبحث اليوم عن وسيلة نقل أو ري أو تصنيع قديمة إعراضاً عن الجديدة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يفطم أهل بيته عن التمتع بالآلات والأجهزة الحديثة التي سهلت كثيراً من الأعمال المنزلية....

بل إن السؤال يتمحور: هل الإعراض عن ذلك يحقق للمسلم أية مصلحة، أو يدفع عنه أية مضرة؟.

لكن من الضروري على كل حال أن نفرّق اليوم بين الحضارة وبين المدنية حتى نستطيع أن نرسي قواعد الاستيعاب السوي والصحيح لمنجزات العصر وعطاءاته الوفيرة. وحتى تحدث النقلة الحضارية المطلوبة فإن من الواجب على الشعوب الإسلامية أن تقوم بجهود متضافرة في توظيف كل ما لديها ولدى الإنسانية من رأسمال حي ورمزي ومادي، لكن هذا يحتاج إلى أدق المعايير التي يمكن أن توجه مسيرتنا. ويمكن أن نقول: إن الحضارة ـ في هذا المقام ـ هي كل ما يمكن أن يعتبر من المكتسب الإنساني الشامل الذي يمكن تعميمه على جميع الثقافات والأمم، والذي لا يشكل أية خصوصية لأمة بعينها.

أما المدنية فهي الطريق التي تسلكها الجماعات التاريخية الحية للوصول إلى تلك المكتسبات الكونية الحضارية.

وهذه الطريق لا يمكن تعميمها؛ لأنها مستمدة من خصائص الجماعة وعبقريتها الخاصة وظروفها المحلية وتاريخيتها المتميزة وثقافتها وحساسيتها الحميمة.

إن رمزية العدل والحرية والمساواة أمام القانون لا يمكن أن يأخذها العربي من تاريخ فرنسا أو أمريكا أو اليابان، وإنما يأخذها من رموزه ومعاركه وإنجازاته التاريخية، فهي وحدها التي تتيح له التجديد دون الوقوع في أزمة التبعية.

وفي غياب التمييز بين الحضارة والمدنية يصبح الفارق بين التغريب والتجديد الحضاري معدوماً. إن التغريب نمط من أنماط التحديث الذي يتميز بالتقليد الأعمى للنموذج الغربي، والذي يهتم بالشكل والقشور، أكثر مما يقوم بنقل الوظائف الجوهرية في عملية التحديث. أو أنه لا يميز بين الخصوصية الغربية والمكتسب العالمي في نمط الحضارة المعاصرة؛ مما يحرمه من التمييز بين الجوهري والعرضي في هذه الحضارة، أو بالأحرى بين السيرورات التاريخية التي لا تعاد وبين المكتسبات النهائية التي يمكن أن تُستملك. وليست المعاصرة نقلاً لتجربة، وإنما هي إيجاد لـ(دينامية) إبداع وتجديد ذاتيين، إنها ليست مراكمة لتقنيات، كما هو الحال اليوم، وإنما هي تركيب لمنهج إيجاد التقنيات وتصميمها[1].

ولا نماري أن اكتشاف الخاص من العام يحتاج إلى نوع من التنظير والتأصيل، لكن الذي سوف يساعدنا على إنشاء الحساسية الكافية للتفريق بينهما، ليس الفكر، وإنما الممارسة والتجربة الحية والانغماس في الجهد الواعي الذي يستهدف تحقيق كينونتنا الذاتية وأهدافنا الخاصة.

وبالإضافة إلى هذا فإن مما سوف يساعدنا على ذلك التمييز المنشود قدرتنا على توظيف تراثنا الحضاري والاجتماعي في حياتنا المعاصرة، وهذا التوظيف هو الذي سيمزج بين القديم والجديد في كل متناغم، كما أنه سيجعل صلتنا بأصولنا النفسية والتاريخية أكثر تألقاً ومتانة. والأمم التي دخلت في أطوار الانهيار والتراجع عجزت عن توظيف تراثها، فنسيته، وحاولت استملاك تراث الآخرين لتوظفه، فكان الإخفاق أشد!.

---

(١) نقد السياسة: ٤٧٦ وما بعدها.

٢٤ ـ لا بد من إحداث انتفاضة نفسية:

المعالجة العقلية والفكرية لقضايانا شيء لا بد منه، ولا يغني عنه أي شيء آخر، لكن علينا أن نعترف أن مشكلاتنا ليست فكرية وحضارية فحسب، وإنما هي نفسية أيضاً، بل إننا نقول إن كل أشكال الهزائم التي يمكن أن تصيب أمة ما تظل محدودة التأثير ما لم يتولد عنها هزائم نفسية تزعزع ثقتها بنفسها ومبادئها، وتسد آفاق النصر والتقدم في وجهها.

ولا يدعي أحد أن روحنا لم تحتل، وأن نفوسنا لم تنكسر، وكيف لا يكون الأمر كذلك، ونحن نتلقى أصداء الهزائم في كل يوم، وعلى كل صعيد، بل إننا نقول إن الذي لا يرتاع للحالة المأساوية التي صارت لها الأمة يكون قد اكتسب مناعة ضد آلام النكبات والنكسات، وفَقَد الإحساس بالزمان والمكان والأحداث، وهو كمن يترنم في المقابر!!.

في مواجهة الهزيمة النفسية سيكون إحداث انتفاضة نفسية جزءاً مهماً من الحل؛ فالتنظير العقلاني منفرداً قد يؤدي إلى الإحباط، ومن ثم فإن بث روح (الاستعلاء) بالإيمان والخصوصية الرسالية والمنجزات التاريخية ـ يظل مهماً لتجديد الروح ونفض اليأس والقنوط عن نفوس المسلمين، هذه الانتفاضة المطلوبة تحتاج إلى تعزيز الانتماء من خلال التضحية والقدوة الحسنة، وتحتاج كذلك إلى نوع من إبراز الإيجابيات التاريخية والحاضرة، كما تحتاج كذلك إلى التأكيد على إمكانية تحسن الأحوال؛ فإن خسارة جولة أو جولات لا تعني خسارة المعركة، ما دام الإصرار على كسب الفوز موجوداً..

إننا نعتقد أننا نتمتع بخاصية حضارية فريدة، هي أننا نصدر في رؤيتنا للحياة عن منهجية مطلقة ومعصومة ولا بشرية، ومن ثم فإننا قادرون على محاكمة التاريخ والواقع ومنجزات الآخرين، ونحن ـ بحول الله ـ قادرون على الإفاقة بعد الكبوة من خلال رجوعنا إليها واسترشادنا بها. أما الحضارة الغربية فإنها تفتقر إلى ذلك، فمرجعيتها معطيات تبلورت بفعل حركة التاريخ؛ فهي بشرية محضة، ولذا فإن الانهيار إذا وقع فإن القيام بعده سيحتاج إلى

بلورة مرجعية جديدة، وهذه قد تحدث، وقد لا تحدث، ولذا فإنه سيكون من الخطل تصور وضعيتهم الحالية شيئاً نهائياً ممكن الاستمرار..

لا نعني بهذا أننا ننتظر انهيار الآخرين لنشيد على أنقاضهم كياننا الجديد، وإنما المراد هو إدراك إمكانات التبدل التي يمكن أن تقع لدينا ولدى غيرنا.

إن الصلة بالله ـ تعالى ـ ستظل شيئاً أساسياً في ترميم بنائنا النفسي حيث يتصل المسلم بمصدر للطاقة والصبر والكفاح لا ينضب أبداً، بل لا يزداد على الإلحاح إلا كرماً!!.

٢٥ ـ القيم المسيطرة في المجتمع هي مقياس رقيه:

ليس هناك مجتمع بلا مقاييس، كما أنه لا يوجد مجتمع من غير قيم، ومبادئ تحكم حركته حتى المجتمعات المنهارة تؤمن بمجموعة من القيم، لكن المسافات بين قيمها وواقعها شاسعة. كل مجتمع ـ كما الفرد ـ يضع قيمه المختلفة ضمن سلّم متدرج، أي يرمّز قيمه، ويرقمها بحسب أهميتها في نظره.

ومن خلال سُلَّم القيم ذاك تظهر القيم المركزية من القيم الهامشية، والقيم المسيطرة من القيم التزينيّة...

في زمان النبي ﷺ كانت القيم المسيطرة قيماً روحية، يتربع على رأسها الحرص على (رضوان الله) ـ تعالى ـ والاستشهاد في سبيل ذلك، كما كانت قيمة (الأخوة الإسلامية) وما تمليه من تعاون وإيثار متوهجة في القلوب والسلوك.

ونستطيع أن نتعرف على سلم القيم المسيطر من خلال أحاديث الناس، ومن خلال سلوكهم؛ فإذا كانت المجالس تعج بذكر العقار والبناء والأسهم وأرباح التجارة وخسائرها على حين لا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولا يمتد البصر فيها إلى ما وراء الدنيويات علمنا أن القيم المسيطرة هي قيم مادية.

وإذا رأينا الموظف لا يتأخر عن دائرته أبداً، على حين أنه لا يزور

المسجد إلا لماماً، أو لا يأتي إلا متأخراً علمنا أن قيمة العمل للدنيا هي المسيطرة، أما قيمة العمل للآخرة فهي هامشية وهكذا...

هذا المعيار مهم في الكشف عن بعض الأدواء والعلل التي تعاني منها مجتمعاتنا، كما أنه مهم في قياس درجة التزام المجتمع بقيم الإسلام، ومهم كذلك في تحديد أولويات العلاج.

جهاد المصلحين إذن سوف يتركز في جعل قيم الإسلام الكبرى من أداء الفرائض والبعد عن الكبائر وقيم التعاون والتآخي والتضحية والعمل... تتبوأ أعلى السلم القيمي، وهذا لا يتم إلا من خلال التثقيف النشط والقدوة الحسنة، وإلا من خلال إيجاد الظروف التي تساعد على ذلك؛ فالبعد عن (الزنا) قيمة كبرى في الإسلام لكن حتى تأخذ هذه القيمة مكانها الصحيح على صعيد الممارسة العملية فإنه ينبغي أن يكون أمر الزواج ميسراً من اعتدال المهور والنفقات ووجود المساكن المناسبة.. إلخ...

وهذا الكلام يقودنا إلى معيار آخر، هو أن مثالية كل مجتمع تقاس بما يمكن أن يحققه من شروط نفسية وزمنية لرقي كل فرد من أفراده، فعمل المصلحين إذن لا ينصبُّ على تبديل سلم القيم ولا على توفير شروط الرقي، وإنما على بعث روح الإصلاح الاجتماعي؛ ليقوم المجتمع بنفسه وبطريقته الخاصة بفروضه ونوافله...

وهذا الكلام كله يعيدنا إلى تصوير شمولية الإصلاح وعدم تجزئته، حيث إن كل تقدم إيجابي على أي صعيد سوف يعود بالنفع على باقي الأصعدة، فترابط العلل والمشكلات سيقضي حتماً بترابط الأدوية والحلول.

٢٦ ـ من المحال أن نصلح بالقوانين ما ينبغي أن نصلحه بالآداب[١]:

من مقاييس وعي المجتمع بذاته خبرته بأدوات علاجه؛ فيستخدم لكل مشكلة علاجها المناسب، وهو يدرك إلى جانب ذلك الحدود القصوى

---

(١) تاريخ الفكر السياسي: ٣١٣.

لاستخدام كل وسيلة من الوسائل الإصلاحية. إن أسهل شيء يمكن أن يلجأ إليه المجتمع في إيقاف تدهوره وتفسخه شيئان: القوة والقوانين. ويبدو أن هذا ما تم استخدامه في تاريخنا الإسلامي في أكثر الأمر ـ فقد كان التوسع في القمع والتشريعات المحددة والضابطة هو أقرب الحلول تناولاً، على حين أن اللجوء إلى الإصلاح عن طريق الدعوة والتربية وترسيخ الفضائل كان يتم بطريقة فردية وعشوائية، وقد كان قول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ دقيقاً حين صوّر طبيعة المواجهة بقوله: «يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور». فالانحلال كان يقابل دائماً بالتوسع في القوانين والتشريعات.

ونحن نقول إن شيئاً من التوسع في التشريعات الرادعة لا بد أن يحدث في كل زمان ومكان، لكن الجزاءات والعقوبات هي أشبه بالتداخل الجراحي في العلاج الطبي، فهو آخر الحلول، وكذلك العقوبات، هي الحلول الرادعة لمن فاتتهم التنشئة الاجتماعية الجيدة؛ فالعقوبات دائماً وأبداً لا تنشئ مجتمعاً، لكنها تحميه؛ وهذه رؤية إسلامية جلية، فآيات الحدود والعقوبات، بل والأحكام جميعاً لا تشكل أكثر من عُشر آيات القرآن الكريم، أما الباقي فكان يستهدف بناء الإنسان من الداخل؛ ليقوم هو بنفسه بمراقبة ذاته وتقويم سلوكه.

يمكن أن يقال بعد هذا: إن من أعظم فضائل الدول والمجتمعات اقتصادها في سنّ الأنظمة والتشريعات إلى أبعد حد ممكن، واللجوء إلى التثقيف والتربية وجذب الناس نحو الصلاح والاستقامة عن طريق القدوة والمثل الطيب.

وإنما نقول كل هذا لأننا نعتقد أن المجتمع الفاضل المعافى هو المجتمع الذي يستغني عن تدخل الدولة في شئونه بما يحويه من وعي وقيم ومؤسسات وسيطة، ويترك للدولة الفرصة للقيام بواجباتها الخارجية والداخلية الخدمية، وفي هذا السياق يقول أحد المفكرين: «إن المجتمع وليد فضائلنا وإن الدولة وليدة عيوبنا»، فالدولة تتضخم على مقدار فساد المجتمع. فهل آن الأوان لإعطاء الجاذبية الأخلاقية والقيمية مكانتها الصحيحة ودورها الأصيل

في خططنا التنموية ومشاريعنا الإصلاحية، أم نريد أن نظل تبعاً للغرب نقطن حيث قطن، ونظعن متى ظعن!.

٢٧ ـ على الداعية أن يصوغ خطابه الإصلاحي على مستويين متنوعين:

أمام المصلح والداعية ساحتان: ساحة ترفرف عليها أعلام الهداية، ويؤمن أصحابها بالإسلام عقيدة وشريعة، ويلتزمون به سلوكاً؛ وساحة بعيدة عن الإسلام كل البعد، فهي لم تسمع به أبداً ـ كما هو الحال خارج المجتمعات الإسلامية ـ أو سمعت به، ولكنه انطبع في أذهانها صورة مشوّهة عنه. وربما كان هناك من سمع عن الإسلام الصواب والخطأ، لكن انطباعاتهم عن الإسلاميين والدعاة وأهل الخير سلبية، فهو يعرفهم من خلال أعدائهم ليس أكثر.

ويمكن القول: إن كلتا الصورتين أو الصور موجودة في كل ساحة من ساحات العمل الإصلاحي، وهذا في الحقيقة يفرض على المصلح أن يتمرس بصوغ خطابين متنوعين، خطاب يتوجه إلى الساحة الإسلامية، وخطاب يتوجه إلى الساحة غير المسلمة أو المشوشة. ولا يجوز أن يكون بين الخطابين أي نوع من التناقض، وإنما هما أشبه بدائرتين متداخلتين تتطابقان في أمور، وتتنوعان في أمور أخرى.

في خطاب الساحة الإسلامية يجب أن يُركز على ضرورة الالتزام والتمسك بتعاليم الإسلام والسمو في آفاقه الرحبة، وعلى ضرورة المبادرة إلى الإحسان ونفع الناس والانفتاح على الخصوم والحوار معهم، والتحلي بالإيجابية والتفتح، والقدرة على مراجعة الأخطاء وتصحيح المسيرة الدعوية وإتقان وتجويد التخصصات والأعمال الدعوية كافة...

ويركز في الخطاب الثاني على بيان محاسن الإسلام، ورد الشبه التي تثار حوله إلى جانب بيان عالمية الإسلام، وتشجيعه على الاجتهاد وضمان حقوق الإنسان ومساعدة الضعيف، وعلى ضرورة التعاون الإنساني في سبيل تكوين إطار عام يحاصر الشر والفساد، مما اتفقت الشرائع السماوية على

تجريمه، ويؤدي في الوقت نفسه إلى تعاون أممي في بناء قيم مشتركة تكون الأساس لتحقيق الحد الأدنى من التفاهم العالمي. . .

وينبغي أن تكون العناصر العقلانية في الخطاب الثاني أقوى، أما الخطاب الأول فيشتمل على كل العناصر، لكن يكون العنصر العاطفي فيه ظاهراً.

هذه المهارة في صوغ نوعين من الخطاب لا يمكن للمصلح أن يكتسبها إلا من خلال ثقافة عالمية تؤهله لفهم ما يجري خارج ديار الإسلام، وتساعده على فتح مغاليق اللغة العالمية التي يفهمها الناس في المحيط الخارجي.

كما أنه بحاجة إلى فهم دقيق لواقع المجتمع المحلي وهمومه وتطلعاته ورموز استجاباته. . .

٢٨ ـ تعزيز التقويمات المشتركة:

حتى يستطيع مجتمع ما السير نحو أهدافه فإن عليه أن يحاول توحيد رؤيته لماضيه وحاضره ومستقبله، وذلك من خلال حركة ثقافية.نشطة يسودها الحوار والنقاش والإصغاء المتبادل، ومحاولة الوصول إلى مرتكزات فكرية ومنهجية وثقافية تشكل العمود الفقري لرؤية شاملة لما حدث، ولما يحدث، ولما ينبغي أن يحدث. والمشكل أن كثيراً قد كوَّن في ذهنه صوراً جامدة عن كل ذلك؛ فهو لذلك يعرف الأشياء قبل أن يراها، أو يسمع عنها، مع أن أصل المحاكمة العقلية الراشدة أن تستند إلى الرؤية أولاً، ثم تكون المحاكمة ثم المعرفة.

وقد رأينا وسمعنا من يضفي على الماضي نوعاً من القداسة؛ فهو يقبل من حوادثه كل ما كان فيه تزكية له، ويزيف كل ما فيه دلالةٌ على السقوط أو الخطأ الفادح! ورأينا من عَمَد إلى نفايات التاريخ؛ ليستخرج منها حوادث وحكايات، ثم يجعلها نماذج للتاريخ كله!.

ورأينا من يبسِّط أمر الواقع إلى أبعد الحدود، ومن ينظر إليه نظرة كلها تفاؤل، ومن يصور واقع المسلمين على أنه الأسوأ على وجه هذه الأرض!

إذا كنا سنظل في تقويمنا للأمور على هذه الصورة، فإن هذا يعني أننا لن نستطيع التخطيط لأي شيء في المستقبل؛ لأن المرتكزات الأساسية للجهد الجماعي مفقودة؛ وفي ظني أن أول شروط تعزيز وتوحيد تقويماتنا المشتركة يكمن في امتلاك فضيلة (المرونة الذهنية)، وعلينا في سبيل امتلاكها أن نلقي على أنفسنا عدداً كبيراً من الأسئلة حول الأسباب والجذور التي أدت إلى هبوط أمتنا من القمة إلى القاع، أو ما يقرب منه، ثم نحاول الإجابة على تلك الأسئلة، ثم نجري حوارات متواصلة حول تلك الأجوبة لنزيِّف الزائف، ونزكي المنطقي والوجيه.

وثاني تلك الشروط توسيع أطر معرفتنا بأحوال العالم؛ فإن لله ـ تعالى ـ سنناً عامة تنطبق على المسلم وغير المسلم، ومن خلال الثقافة العالية والرؤية العالمية للأشياء يمكن أن ننظر إلى واقعنا وماضينا ومستقبلنا على أنها جزء من نظام أشمل على مستوى الإدراك وعلى مستوى النواميس والسنن وعلى مستوى الحركة والتأثير والتأثر، وبهذا سنكتشف خصوصياتنا من خلال النسق العام الذي ننتظم فيه.

وثالث تلك الشروط أن نعلم أن ما توصلنا إليه من رؤى وتحليلات ومقولات يظل، قابلاً للخطأ والصواب، وبالتالي فإنه يظل قابلاً للتعديل والتبديل؛ وذلك لأن التعامل مع الأشياء شديدة التعقيد والأشياء غير المحسوسة ـ لا يتم إلا عن طريق تشكيل صورة ذهنية عنها، وهذه الصورة لا يشترط أن تكون دائماً صادقة ودقيقة فتكوُّنها من عناصر عقدية ومعرفية مختلفة سيؤدي قطعاً إلى تفاوتها، وإن ما يثبت بالاجتهاد يمكن أن يُنقض باجتهاد مماثل.

٢٩ ـ لا صلاح للفرد إذا لم نُصلح الوسط الذي يعيش فيه:

إن الإنسان يولد مزوداً باستعدادات كثيرة، لكن هذه الاستعدادات

ستظل عبارة عن إمكانات غير مرئية، والمجتمع الذي يعيش فيه هو الذي سيخرج تلك الإمكانات إلى حيز الوجود والتحقيق، وسوف يمنح المجتمع لأعضائه الجدد أكثر خصائصه، وسوف يجعلهم يعانون ـ بمقدارٍ ما ـ من كل أشكال المعاناة التي يلاقيها؛ ودرجة الفاعلية والرقي التي يتمتع بها المجتمع هي التي ستحدد ما سيتفتح من تلك الملكات، وما سيظل حبيساً. . . .

ولعلنا نستجلي في هذه المسألة الهامة الأفكار التالية:

أ ـ نستطيع القول: إن ما نتمتع به من خصائص وإمكانات يتوقف في أدائه على الوسط الذي تعمل فيه؛ فهذا الوسط هو الذي سيُعلي من أهميتها وقيمتها، أو سيحكم عليها بالضآلة وعدم الكفاية، تماماً كما يحدث لمن معه نقود، ويريد التسوّق، فإن أسعار السوق هي التي ستحكم على قيمة ما معه، فرب مبلغ ضئيل تشتري به في بلد فقير أشياء كثيرة، فإذا ذهبت به إلى بلد آخر لم يكفك لتناول وجبة طعام!.

والوسط الصالح لفاعلية المرء وحركته هو ذلك الوسط المثالي الذي لا يُعدُّ العيش فيه سهلاً، ولا عسيراً إلى درجة شل إمكانات الإنسان وإعاقة حركته. حين يكون الوسط سهلاً فإن الإنسان يترهل، ويفقد حوافز الارتقاء، وقد يكون من أسباب تخلف السواد الأعظم من دول أفريقية أن مقومات البقاء ظلت ـ إلى زمن قريب ـ متوفرة فيها بأدنى جهد ممكن؛ مما شكل داعياً إلى الكسل والتراخي.

ويذكر في مقابل هذا المناخ والوسط الذي يعيش فيه (الأسكيمو)، فإن الصعوبة البالغة التي يواجهها من يعيش في المناطق الجليدية قد استهلكت كل طاقاتهم في سبيل المحافظة على البقاء، وحالت دون تمكُّنهم من تطوير أي نظام ثقافي أو اجتماعي أو سياسي، فالضروريات تحول دون الوصول إلى الكماليات ما لم يتم إشباعها وتلبيتها.

ب ـ إذا كان المناخ العام على هذه الدرجة من الأهمية وجب علينا أن نوقن أن مجرد دعوة الناس للاستقامة والعمل والتمسك بأهداب الفضيلة

سيكون محدود الفائدة ما لم تتجه الجهود لتهيئة الظروف المحيطة بالفرد المسلم. لقد طرحت أفكار إصلاحية كثيرة خلال القرنين الماضيين، وألقيت مواعظ أيضاً كثيرة، لكن الأفكار الإصلاحية كانت تفتقر دائماً إلى السياسات والآليات والبرامج التي تحيلها إلى واقع معاش، ومن ثم فإننا ما زلنا نشعر أننا ما فتئنا نردد ما قيل قبل قرنين عن الداء والدواء والمشكلات والحلول. . .

والوسط المثالي أو الذهبي ـ كما يقول توينبي ـ لا يشهد تحسناً في أكثر بلدان العالم الإسلامي، بل يشهد في بعضها نوعاً من التراجع؛ فتكاليف التعليم والتدريب والمعيشة والصحة في ازدياد مستمر، وبنسب عالية لا تتواءم مع ارتفاع الأجور، كما أن فرص العمل تتراجع، وأجور المساكن وأثمانها في ارتفاع مستمر؛ مما أوجد حالة من الإحباط الشديد في نفوس الأجيال الجديدة.

التعاطف والتبادل والشفافية الاجتماعية والسياسية، لا تشهد التحسن المأمول، وهذا عمَّق الشعور بالاغتراب والتأزم.

في هذه الأجواء ينتشر الجهل والفساد والعنف والشعور باليأس، وتصبح الأرض التي تُبذر فيها بذور الخير غير صالحة للإنبات؛ ومن ثم فإنه لا مناص من الرؤية الشاملة، والعمل على الأصعدة كافة من أجل تحسين المُناخ العام إذا ما أريد للجهود الدعوية أن تؤتي ثمارها.

جـ ـ حين تبذل جهود مباركة في تحسين الوسط المعيشي والاجتماعي؛ وتُصيب تلك الجهود شيئاً من النجاح، فإن الجماعات الدعوية سوف تستفيد من ذلك في الرقي بأعضائها وأحوالها المختلفة؛ فقد أثبتت التجربة أن أية جماعة لا تستطيع أن تتجاوز كثيراً السقف الحضاري الذي يحدده المجتمع الذي تعيش فيه، ومن ثم فإننا نرى كثيراً من الأمراض الاجتماعية موجوداً لدى الجماعات الإسلامية، وهذا أمر طبيعي ومفهوم. إن الذين يستطيعون تجاوز وضعية مجتمعاتهم إلى الحد الأقصى أندر من النادر، وهم بمثابة الشذوذ الذي يؤكد القاعدة. وإذا استطاع أولئك النوابغ توليد بعض الأفكار

الفذة فإن مجتمعهم يظل عاجزاً عن الاستفادة منها؛ لأن المجتمع يحتاج إلى نوع من الأهلية والاستعداد لفهم الفكر الجديد وتمثله؛ وقد لاحظ الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ أن أفكار ابن خلدون لم تؤد إلى أي تقدم اجتماعي في عصره؛ لأن صلتها بالوسط الاجتماعي معدومة[1]. فتحسين المناخ العام، هو تحسين مباشر لأحوال الجماعات الدعوية، وتدهوره لا بد أن ينعكس عليها بصورة من الصور.

د ـ إن هناك ميادين كثيرة ما زالت بكراً، ولم تبذل فيها جهود إصلاحية ذات قيمة، مثل مجالات البحث العلمي والاجتماعي والتدريب الفني والدراسات التي تتعلق بالبيئة والتلوث والمرافق العامة والموارد الأولية والاقتصاد في الاستهلاك والبطالة وضمان حقوق المواطن والدفاع عن الضعيف والمسكين. . .

هذه القضايا وأخرى غيرها تشكل ركائز هامة في تشكيل المُناخ الحضاري؛ ونحن ما زلنا نشاهد نوعاً من العزوف عن خوض غمارها، فهل نحن لا نعرف ماذا نريد؟!.

وأكبر دليل على صدق ما نقول أن المجتمعات الإسلامية من أفقر مجتمعات الأرض بالهيئات والمنظمات والمؤسسات التي تُعنى بهذه القضايا، مع أن بعضها لا يحتاج إلى أية إمكانات، إنما يحتاج إلى معرفة الأهمية ثم المبادرة. . .

٣٠ ـ توسيع الشريحة الوسطى مهمة إصلاحية كبرى:

الترابط الاجتماعي، هو الذي يميز المجتمع عن حشد الأجساد، وحشد الأجساد عبارة عن ركم غير ذي معنى ولا هدف يؤطر عدداً كبيراً من الأفراد. أما المجتمع فهو عبارة عن مجموعة العقائد والعلاقات والتوجهات والأفكار والأعراف والمصالح والأهداف التي تربط بين أقوام يعيشون في ظل دولة واحدة.

---

(١) مشكلة الثقافة: ٦٣.

إن الفارق بين الحجر وقبضة الرمل هو في العلاقة الصلبة الموجودة بين ذرات الحجر، والفارق بين مجتمع متحلل، ومجتمع متماسك ليس في المكوِّنات، وإنما في نوعية الروابط والعلاقات السائدة في كل منهما.

هذه العلاقات لا يمكن أن توجد بطريقة عفويَّة؛ لأن التفاوت في المصالح، والتنافس على الأشياء النادرة بالإضافة إلى الخصوصيات الفكرية والنفسية، كل ذلك يجعل من العدوان والطغيان شيئاً كامناً خلف الباب بمجرد حصول قصور أو انحباس اجتماعي؛ لذا فإن الترابط الاجتماعي ليس هو الأصل، ولا هو الأمر الذي يحدث نتيجة التقاء الناس، وإنما التفكك هو ذاك الذي يحدث تلقائياً دون أي جهد، ولذا فإن تعاليم الإسلام في مجال العلاقات بين الأهل والأصدقاء والجوار والشركاء، والحكام والمحكومين والمتعاملين مع بعضهم عامة... إن تلك التعاليم تسعى إلى شيء واحد، هو الشد من أزر الأواصر الاجتماعية، وإيجاد المناخ الصالح الودود الذي يمارس فيه الفرد أنشطته المختلفة...

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فإنه بالإمكان القول: إن التناغم الاجتماعي لا يتم إلا من خلال علاقات التكافؤ والتشابه، على الصعيد المعنوي، وعلى الصعيد المادي. والله ـ جل وعلا ـ جعل ظروف الناس وإمكاناتهم واستعداداتهم والمشكلات التي تعترضهم ـ مختلفة، ومن ثم فإنه لا بد من اختلاف نتائج كسبهم وتحصيلهم ونشاطهم... وقد صورت الحكمة من ذلك الآية الكريمة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].

لكن يقال إلى جانب هذا: إذا كان كل واحد منا سيواجه مصيره الاجتماعي دون مساعدة من أحد، مهما كان سيئاً ومفجعاً، وإذا كان الأقوياء في المجتمع سوف يتمتعون بالخيرات التي جلبتها القوة، فما معنى العيش في مجتمع واحد، وما معنى الدفاع عنه، وما معنى العمل المشترك...؟!.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

ولذا فإن كل مجتمعات الأرض قد أقامت نظماً تفصّل حقوق المواطن وواجباته، وتشرف الدولة عادة ـ باعتبارها مركز التوازن الاجتماعي ـ على تنفيذ تلك النظم، كما أن الرقابة الاجتماعية تقوم بدور مهم في ذلك. والفارق بين مجتمع وآخر، ليس في وجود التشريعات، ولكن في تجسيدها على أرض الواقع.

وتقوم الدولة والأنظمة المختلفة فيها على إحداث أكبر قدر ممكن من التوازن الاجتماعي من خلال مساعدة الفقير والضعيف، وضمان الحد الأدنى من العيش الكريم لهما، إلى جانب ضمان حقوق التعليم والصحة، وبناء المرافق الأساسية التي يرتفق بها مجموع السكان.

وقد أعطى الإسلام للحاكم المسلم الحق في تدبير الأموال والنفقات التي يحتاجها ذلك التوازن بوسائل مختلفة. . .

ومهما بذلت الجهود لإحداث التوازن المنشود فإنه سيظل هناك فئة من الناس لا تجد بعض الضروريات، كما أنه ستظل هناك فئة تحصل على كل الكماليات والمرفِّهات التي تتشوف إليها. أما الفئة الثالثة، وهي ما اصطلح عليها بالطبقة أو الشريحة الوسطى فهي تلك الجماعات من الناس التي تقف على الحد الأوسط، فهي تجد كل الضروريات، وبعض الكماليات والتحسينيات.

ونقول بحق: إن حجم هذه الشريحة في أي مجتمع من المجتمعات يقرر صحة ذلك المجتمع من مرضه، ورقيه من انحطاطه، فعلى مقدار اتساعها يكون رقيُّ المجتمع، وعلى قدر تضاؤلها يكون تخلفه، والسبب في ذلك أن الطبقة الوسطى ظلت على مدار التاريخ مركز الإبداع في الأمة، كما أن الدراسات أثبتت أن أبناء الطبقة الوسطى هم ـ في الغالب ـ أحسن أبناء المجتمع أخلاقاً وسلوكاً، وأكثرهم دأباً وجدية. فاتساع مساحتها دليل على كثرة المبدعين وكثرة ذوي السلوك القويم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المجتمع الذي تسوده الشريحة الوسطى مجتمع ناجح منضبط مسيطر على النزعات المدمرة لأعضائه، فالشريحة الوسطى لا تتسع إلا في ظل سيادة

النظام والقانون، وفي ظل الظروف الصحية المواتية للإبداع والإنتاج.

لا معنى للرخاء الاجتماعي إذا لم ينعم به أكثر الناس، ولا معنى لوجود الثقافة الجيدة في مجتمع إذا لم يتثقف بها أكثر الناس...

وقد حدث في تاريخنا وتاريخ غيرنا ـ كما في الواقع ـ أن همّشت بعض الشرائح الاجتماعية، فتوجهت جهودها إلى هدم الدولة وهدم المجتمع، وصارت عامل قلاقل واضطراب..

إذا كان الأمر على هذه الصورة فإن من واجب الدول والمفكرين والمصلحين، وكل من يهتم بالشأن العام أن يسلكوا كل السبل، وأن يسنوا كل التشريعات، ويبذلوا كل الجهود التي من شأنها توسيع الشريحة الوسطى وتدعيمها؛ لأنها تشكل (متن) المجتمع وصلبه، ولا بد للصلب أن يكون أقوى شيء فيما حوله.

إن كثيراً من تخاذل الناس في الدفاع عن مجتمعاتهم ـ يعود إلى أن شعورهم أن مجتمعاتهم لم تقدم لهم شيئاً، وقد قال أحدهم: لماذا أدافع عن مجتمع لم يطعمني من جوع، ولم يؤمّني من خوف؟!!.

وإن اقتصاد السوق (الاقتصاد الحر) يحتاج إلى تدابير اجتماعية وقانونية كثيرة حتى لا يمزق أوصال المجتمع؛ حيث إنه ـ بطبيعته ـ يزيد القويَّ قوة والضعيف ضعفاً، ويزيد في التباعد بين الناس...

ونحن نعتقد أن الجهود الإصلاحية ما لم تفلح في تقوية الترابط الإنساني، وإحداث التناغم الاجتماعي، فإن الأحوال سوف تزداد سوءاً، على الرغم مما يُتوهم من وجود تقدم وتحسن في حياة المسلمين!.

٣١ ـ التعانف مدمّر، والعنف لا يصلح وسيلة للإصلاح:

الحياة الاجتماعية قائمة على قاعدة معقدة من التوازنات، وكل واحد منا يرغب في أن يندمج في مجتمعه، لكنه يخشى في الوقت نفسه من ذوبان شخصيته فيه، وهذا هو أول المؤشرات على أن التصافي الاجتماعي لا يمكن

أبداً أن يكون كاملاً؛ ونخطو خطوة إلى الأمام حين نقول: إن التباين في الأفكار والمعتقدات، والتنافس على الأشياء النادرة، وسوء التصرف من بعض الأعضاء إلى جانب العدوان على المجال الخاص والمجال الحيوي الذي يرسمه كل منا، إن كل ذلك سيؤدي إلى التوتر الاجتماعي الذي قد يتطور إلى حرب أهلية!.

كل المجتمعات تبذل جهوداً مضنية؛ حتى لا تصل إلى الطريق المسدود، فلا أحد يرضى بأن يرى مجتمعه يذوب بين يديه، لكن الموازنة الخاطئة هي التي تدفع إلى الكوارث.

إن التعانف والاحتراب أسوأ ما يمكن أن يلجأ إليه مجتمع ما في تسوية مشكلاته، وإصلاح أوضاعه، وقد دلت التجارب التاريخية والمعاصرة على فداحة المصائب التي يحصدها الناس من وراء اللجوء إلى القوة لتقويم ما بهم من اعوجاج، وكيف سيربحون معركة هم جنودها وضحاياها في آن واحد؟!.

ويمكن أن نعدد مساوئ كثيرة جداً لاستخدام السلاح وسيلة للإصلاح، لكننا هنا سوف نقتصر على أهمها، ومنه:

أ ـ إذا كان المقصود من (العنف) حمل الدول والشعوب على تطبيق الشريعة الغراء فإن ذلك وهم من الأوهام؛ لأن طبيعة (الدين) تأبى ذلك، وتجافيه، فالدين الحنيف مجموعة من القيم والمبادئ السامية، ومن طبيعة القيم أنها ترفض الإملاء والإجبار؛ فاعتناقها دائماً يتم عن طريق الجاذبية من خلال القدوة الحسنة والمَثَل الطيب. وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾[1]. وحين كان المسلمون يفتحون بلداً من البلدان لم يكونوا يلزمون أحداً باعتناق الإسلام، صحيح أن السيادة تكون فيه للنظام الإسلامي، لكن كل شخص حر في اختيار المعتقد الذي يناسبه ما دام في سلوكه العام لا يعكر صفو الحياة العامة. . . .

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

ونحن نعلم أن استخدام القوة والسلاح داخل المجتمع الإسلامي يظل مثقلاً بالقيود والشروط التي قد لا تكون موجودة مع استخدامها في جهاد الأعداء؛ وذلك لتجنب تمزيق المجتمع الإسلامي وتدميره من الداخل.

ب ـ الجماعات التي جعلت بنيتها العقلية والثقافية والتنظيمية تتمحور حول العنف تواجه مشكلة كبرى عند انعدام من توجه العنف إليه؛ فهي إن لم تجد من تقاتله ـ لسبب من الأسباب ـ وتفرغ طاقتها فيه وجهت تلك الطاقة إلى داخلها؛ لتهضم نفسها بنفسها، والذي يستسهل تكفير الآخرين يستسهل تكفير بعض جماعته إذا خالفه، وخرج عن وجهة نظره، وهكذا فقد صار مألوفاً أن الثورات تأكل أبناءها!.

ولا يخفى على أحد الوضع المحزن الذي صار إليه إخواننا (الأفغان) بعد خروج روسيا وسقوط كابل؛ حيث تحولت كل الطاقات القتالية إلى الداخل؛ لتحدث كوارث وفواجع داخلية كبرى... إن الحطيئة الشاعر الذي تعود هجاء الناس ـ امتد هجاؤه إلى نفسه حين لم يجد من يهجوه!.

جـ ـ إن من مساوئ العنف أنه يخنق كل الأنشطة الدعوية الأخرى إذ إن استخدام القوة بشكل واسع سيفرز روح التوجس والتخوف، كما أن الأعصاب ستكون مشدودة إلى أبعد حد، وتكون الاستعدادات لقبول التغيير الثقافي شبه معدومة، كما أن الفريق المعادي يجد من العار أن يتقبل أفكار الذين يقاتلونه، وربما كان هذا المعنى وراء قبول النبي ﷺ لشروط صلح الحديبية، كما أنه ربما كان وراء المعاملة السمحة الكريمة التي عامل بها منافقي المدينة. ولذا فإن الإصلاح القائم في جوهره على التسوية والتراضي والتنازل المتبادل لا يمكن أبداً أن يحدث من وراء استخدام القوة الغاشمة.

د ـ قد ينجح الذين يستخدمون العنف في إسقاط حكومة متحللة مدبرة، لكن عليهم أن يعلموا أن آليات إسقاط دولة غير آليات إقامة دولة، فإسقاط الدول لا يحتاج لأكثر من القوة ـ كالهدم تماماً ـ لكن إقامة نظام إسلامي صالح يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً، لا يملكها غالباً الذين تسيطر عليهم روح الثورة والانقلاب؛ وهذا أحد أهم عوامل (سرقة الثورات) التي

يشكو منها بعض الإسلاميين. وقد يقول بعضهم إننا نستخدم القوة بمقدار، وإن لنا قوانا السياسية ورجالاتنا المحنكين؛ لكن التجربة تدلنا على أنه حين يحين قطف الثمار فإن الانشقاق يحدث بين الساسة والعسكريين، ويؤول الأمر إلى أهل القوة؛ ليديروا البلاد بدون أدنى خبرة أو أهلية.

هـ ـ يظن الذين يستخدمون العنف وسيلة للتغيير أن في الحكم شفاءً لكل عللهم وأدوائهم، وأن كل ما ينبغي إنجازه سوف يتحقق بمجرد (الوصول إلى السلطة)، وهذا وهم كبير؛ فالحكم السيئ يعكس سيئات المجتمع الذي يقوم فيه، وحين يصلون إلى الحكم فسيجدون من يثور عليهم ـ ما داموا أشاعوا في مجتمعهم روح الثورة ـ مهما كان عدلهم وإنصافهم ونشاطهم[1].. ثم إن التدمير الذي يحدثه استخدام العنف سيتحول إلى أعباء ثقيلة عليهم حين يريدون النهوض بمجتمعهم، وسوف يجدون أن الناس لن يمنحوهم الفرصة، ولا الوقت الكافي لحل المشكلات المتأسنة، بل سيطالبونهم بتحقيق الشعارات التي أزهقوا الأرواح من أجلها.

و ـ دلت التجربة على أن الذين يستخدمون القوة وسيلة للإصلاح لا يستطيعون الحفاظ على أهدافهم، ولا ضبط وتيرة تحركهم، فمن خلال المحاصرة والمطاردة لهم، يسرِّعون حركة المقاومة؛ لتخرج عن الخطة السياسية، كما أنهم يقومون بأعمال يائسة لا تدل إلا على الإفلاس، وبالإضافة إلى ذلك فإن أعمالهم القتالية تتحول من استهداف إقامة الدين ومحاربة الفساد إلى المحافظة على وجودها واستمرارها ليس أكثر، أي تصبح بلا هدف، ومن ثم فإن دائرة القتل تتوسع؛ لتشمل بعض الأبرياء، كما أن أعمالاً من قبيل السلب والنهب قد تقع في سبيل تمويل الجهد العسكري، ويحدث نوع من التوسع في الفتوى لإضفاء الشرعية على كل ذلك! وهذا كله يفرغ الحركة القتالية من مضامينها بالتدريج، ويزرع في داخلها أزمة الشرعية والافتقار إلى الرؤية الراشدة.

---

(١) في النقد الذاتي: ١٧٦.

ثم إنك حين تستخدم السلاح ضد غيرك، فإنك تكون قد أسست سابقة خطيرة، وأبحت لغيرك استخدامه ضدك متى ما أراد ذلك، وهكذا تدخل الأمة في (دورة رديئة)، وينحدر المجتمع برمته إلى الهمجية، وقد كان القصد إصلاحه ورقيه!.

إن الخطط الإصلاحية المتصلِّبة تفضي دائماً إلى كوارث، والذين يسعون إلى الصدام دائماً يخسرون؛ والعاقل من اعتبر بغيره.

أسباب انتشار العنف:

مع أن العنف شيء مبرمج في التراث الجيني والثقافي للبشرية، إلا أن كل من يمارسه، يُدخل نفسه في موازنة حرجة، هي الوصول إلى الهدف مع المحافظة على نفسه ومكاسبه، ولذا فإن الناس ـ في الغالب ـ لا يستخدمونه إلا إذا حصل نوع من اليأس من الوسائل الأخرى، حتى اللصوص وقطاع الطرق فإنهم لا يقومون بالقتل إذا حصلوا على ما يريدون دون اللجوء إليه. وإذا نظرنا في أحوال من يستخدم السلاح وسيلة للإصلاح في عالمنا الإسلامي اليوم وجدنا أن أكثرهم من الشباب، وهؤلاء يكونون أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن المطامع السياسية؛ وما هو المنصب الذي يتسلمه ابن السابعة عشرة إذا استطاعت جماعته الوصول إلى الحكم؟!.

إن السواد الأعظم منهم من المثقفين والطلاب الناجحين في دراستهم، وهذا يدل على أنهم لم يحترفوا الإرهاب. ثم إن السواد الأعظم منهم من ذوي السيرة الحميدة، وعلاقاته مع أهله طيبة وحميمة، وهذا يدل على أنهم لا يحملون نفسية المجرم والمنحرف.

إذن ما هي الأسباب التي دفعت هذا الصنف من الناس إلى القيام بما يقومون به؟

في تصوري أن بالإمكان أن نضع أيدينا على الأسباب التالية:

أ ـ حين دخلت القوانين الوضعية، وجَرَت محاولات تطبيقها في

مجتمعات، تعتقد أن الحكم والعبودية لله وحده ـ حصل نوع من الانقسام في الوعي لدى الشعوب الإسلامية، ووقع أكثرهم في حيرة من أمره، كيف يحترم قوانين بعيدة عن هدي القرآن الذي يتلوه صباح مساء، ويجد فيه من نحو قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1] و﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ و﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. لكن حقبة الاستعمار البغيض لم تسمح للوعي الإسلامي بالتبلور، كما أن الناس كانوا مشغولين بإخراج المستعمر من بلادهم.

لكن حين خرج المستعمر أوكل قيادة الشعوب التي كان يستعمرها إلى صفوة رباها على عينه، وتركها لتنفيذ قوانينه ورعاية مصالحه، وتلك الصفوة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنها تفتقر إلى الكفاءة والنزاهة معاً، علاوة على أن القوانين التي حاولت تطبيقها ثم تشويهها بصورة رهيبة، لم يجد فيها الناس أدنى شروط القبول؛ لأنها لم تحقق العدل ولا الأمن ولا العزة والكرامة ولا شيئاً من الاستقلال الوطني أو التنمية الجيدة.

ولم تقف تلك الصفوة يوماً ما موقف مراجعة ومحاسبة لنفسها؛ مما جعل الناس تحاول إيقافهم عند حدود معينة ومحاسبتهم.

ب ـ التوتر أصل في مجتمعاتنا ـ مع الأسف الشديد ـ فالمناظرات والحوارات لدينا شبه معدومة، ونستعيض عنها بالدسائس والتآمر الخفي، وإذا وجد شيء من ذلك فإنه لا يكون حواراً ولكن مباريات حامية يتخللها الشتم والكذب والاتهام والمحاسبة على النيات، وتقويل المحاور ما لم يقله. . .

وفي بعض مجتمعاتنا ضربت الحزبية السياسية أطنابها، فصار أعضاء الحزب الواحد أعداء للآخرين أحسنوا أم أساءوا. . . ونحن نؤثر دائماً التستر على العيوب، ونخاف من الفضائح، لكن مجالسنا تظل مشغولة بها، وهكذا فلكل واحد سلوكان ورأيان وموقفان. . .

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٤ و٤٥، و٤٧.

هذه الحالة منبع كبير للعنف؛ والتعبيرات الجارحة هي المرحلة الأولى نحو استخدام القوة؛ فكثير من أدب الخطاب مفقود، والحرص على مشاعر بعضنا بعضاً ضعيف جداً.

لم نتعود بعدُ الابتعاد بأفكارنا عن عواطفنا وذواتنا؛ فمن خالف فكرتي فقد أساء إلى شخصي، وربما تآمر عليّ!.

جـ ـ فقر الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية سبب كبير من أسباب العنف؛ إذ إن الحياة حين تكون موّارة بالحركة والنشاط والإنتاج والتبادل تتيح لكل الطاقات أن توظَّف، ولكل الملكات أن تتفتح، ويوجد ذلك عدداً ضخماً من الفرص التي يحقق الناس من خلالها وجودهم، على حين أن الفقر في الجوانب المختلفة يجعل الطلب يشتد على جانب واحد، هو المال وحيازة المتاع، ولا يمكن للمال مهما كثر أن يحل إشكال التنافس عليه ـ لأن ابن آدم لا يشبع منه ـ، وهذا يؤدي إلى إشعال ما لا يحصى من العداوات والخصومات، كما أنه يساعد على نمو الفساد الذي يؤدي من جهة إلى ازدياد موجات العنف حيث إن التسلق الاجتماعي وحب التقليد والاتجاه نحو العناية بالمظهر، كل ذلك يحتاج إلى المال الموجود أصلاً لدى فئة قليلة[١].

د ـ إن العقيدة لا تكفي ـ في العادة ـ لتأسيس حركات استخدام القوة أو الاحتجاج الاجتماعي، وإن كانت تقدم السند الروحي والشرعي لها، لكن الذي يؤسس ذلك هو الخلل في علاقات المجتمع وبنياته الأساسية؛ فالظلم وعدم تكافؤ الفرص والكبت والفقر والخذلان أمام الأعداء كل ذلك يساعد على فوران المجتمع وهياجه[٢]. ولذا فإن المجتمعات الإسلامية التي توفر فيها الحد الأدنى من الصحة الاجتماعية لم يحدث فيها قتل ولا تدمير، وتمضي فيها الأعمال الدعوية والإصلاحية بشكل سلمي ومنتج. فإذا أردنا تحجيم العنف والخلاص من مصائبه وعقابيله فإن علينا أن نصلح أحوال

(١) آفاق المستقبل: ٦٥.

(٢) نقد السياسة: ٢٨٦.

مجتمعاتنا بما يوفر لها الصحة، وبما يوفر للمواطن الحد الأدنى من العيش الكريم.

هـ ـ كانت مواجهة أحداث العنف ـ في كثير من الأحيان ـ بعنف مماثل، وحين يخرج أفراد على القانون؛ فإن ذلك يفسر بأنهم مرضى أو منحرفون، وأنهم يحتاجون إلى علاج وتأديب. لكن ما الحيلة حين تخرج الدولة التي ترعى القانون، وتحميه من التجاوز على دستورها وقانونها وتعليماتها....

إن ذلك يجعل الدولة تفقد مصداقيتها، ويضعف شعور الناس بأنها ترعى المجتمع بأكمله، وإنما تصبح طرفاً وخصماً مباشراً.

الخلاصة:

إن استخدام العنف وسيلة للإصلاح خطأ فادح، وضرره أضعاف نفعه، لكن هذه الموعظة لن تجعله يختفي من شوارعنا وحياتنا العامة، ما لم نقم ببحث أسبابه وجذوره وتحسين مستوى جوانب حياتنا كافة. وإن فقر الخيال لدى بعض الشباب هو السبب في جهل كل البدائل الإصلاحية المتاحة التي استخدمتها شعوب الأرض بشكل مثمر وناجح. ومع هذا فإن من واجبنا أن نحافظ على ترابطنا الاجتماعي، مهما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، وإن ذلك الترابط مرهف الحساسية، ومن ثم فإنه إذا أمكن أن نحل مشكلة بالنظر لم نلجأ إلى الكلام، وإذا استطعنا حلها بالكلام لم نرفع الصوت، وإذا أمكن حلها بالصياح والصراخ لم نلجأ إلى الاشتباك بالأيدي؛ ويجب أن نضع دون حمل السلاح داخل المجتمع الإسلامي خطوطاً حمراً لا يصح تجاوزها إلا في ظروف استثنائية، ووفق شروط شرعية وفنية وموضوعية، لا أرى أكثرها متوفراً في أي مجتمع إسلامي اليوم.



الخاتمة

إن النقد الذي وجهناه في هذا الكتاب إلى بعض الجماعات أو الأنشطة الدعوية، ليس له من دافع سوى الحرص على السمو بالأعمال الدعوية، ودفعها نحو الفاعلية والنمو ومزيد من العطاء. وإنني لأنظر نظرة إكبار لكل أولئك الذين يكفون أذاهم عن المجتمع الإسلامي، فكيف تكون نظرتي إذن إلى أولئك الشيوخ والكهول والشباب الذين يبذلون أعمارهم وأموالهم وجهودهم في سبيل الله والتمكين لدينه ورفعة أمة الإسلام والرقي بمجتمعاتهم ومساعدة الفقير والضعيف والمحروم؟

إنني أعتقد أنه مهما ذكرتُ من الثناء عليهم فلن أوفيهم شيئاً من حقوقهم علينا؛ فهم عطر المجتمع وماؤه ورواؤه، وبهم فخره واعتزازه، وعلى مقدار وفرتهم وسموهم يكون عزه وفخاره وصلاحه، ومن ثم فإني أدعو الله ـ جل وعلا ـ أن يبارك على كل شفة تهمس باسم الله، وعلى كل خطوة تُرسم في سبيل الله، وعلى كل يد تمر على الورق لتطبع اسم الله على هذا الوجود.

والحمد لله أولاً وآخراً؛ وصلى الله على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



الفهارس

١ ـ فهرس المراجع.

٢ ـ فهرس الأفكار والمقولات العامة.

٣ ـ فهرس الموضوعات.

(أ) فهرس المراجع

١ ـ آفاق المستقبل: تأليف جاك أتالي، ترجمة د.محمد زكريا إسماعيل، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٢م.

٢ ـ الاتصال والسلوك الإنساني: تأليف برنت روبن، ترجمة عدد من الأساتذة، نشر معهد الإدارة العامة بالرياض، عام ١٤١٢هـ.

٣ ـ إحياء علوم الدين: للإمام الغزالي، بيروت، دار الندوة الجديدة.

٤ ـ الأخلاق النظرية: د.عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط٢، ١٩٧٦م.

٥ ـ الأزمة الفكرية المعاصرة: د.طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام ١٤١٤هـ.

٦ ـ الإسلام كبديل: تأليف د.مراد هوفمان، نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا، ١٩٩٣م.

٧ ـ أصول الدعوة: تأليف د.عبد الكريم زيدان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٣م.

٨ ـ الإعلام في العصر الحديث ودوره في تبليغ الدعوة الإسلامية: تأليف د.محمد متولي، الكويت، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

٩ ـ الإعلام والاتصال بالجماهير: تأليف د.سمير حسين، القاهرة، عالم الكتب، عام ١٩٨٤م.

١٠ ـ اغتيال العقل: تأليف د.برهان غليون، بيروت، دار التنوير، ط٢، ١٩٨٧م.

١١ ـ الإنسان والتفكير الإيجابي: تأليف د.عيسى الملا، ط١، ١٤١٤هـ.

١٢ ـ البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق د.أحمد أبو ملحم وزملائه، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٣ ـ تاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، دار سويدان، ط٢، ١٣٨٧هـ.

١٤ ـ تاريخ الفكر السياسي الغربي: بقلم عدد من كتّاب الغرب، ترجمة علي مقلد، بيروت، الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧م.
١٥ ـ التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام: تأليف د.الحبيب الجنحاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٥م.
١٦ ـ تعليم التفكير: تأليف إدوارد دي بونو، ترجمة د.عادل ياسين وزميليه، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط أولى، عام ١٩٨٩م.
١٧ ـ الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي: تأليف د.صلاح الصاوي، المنتدى الإسلامي، ط١، ١٤١٤هـ.
١٨ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٥، ١٤٠٧هـ.
١٩ ـ الخلافة أو الملك: تأليف الشيخ أبي الأعلى المودودي، تعريب أحمد إدريس، الكويت، دار القلم، ط١، ١٣٩٨هـ.
٢٠ ـ ديناميات الجماعات: تأليف جان ميز ونوف، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت، دار عويدات، ط٣، ١٩٨٣م.
٢١ ـ سيكولوجية الرأي العام: تأليف د.رؤوف شلبي، الكويت، دار القلم، ط٣، عام ١٤٠٢هـ.
٢٢ ـ الصورة الذهنية: تأليف فهد العسكر، الرياض، دار طويق، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٣ ـ علم اجتماع السياسة: تأليف موريس دوفرجيه، ترجمة د.سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١١هـ.
٢٤ ـ علم النفس الاجتماعي: تأليف د.حامد زهران، القاهرة، عالم الكتب، ط٥، ١٩٨٤م.
٢٥ ـ عندما تغير العالم: تأليف جيمس بيرك، ترجمة ليلى الجبالي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٤١٤هـ.
٢٦ ـ عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة: تأليف جان ماري بلت، ترجمة السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة، عام ١٩٩٤م.
٢٧ ـ فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: الرباط، مكتبة المعارف.
٢٨ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، بيروت، دار الفكر.
٢٩ ـ في النقد الذاتي: تأليف د.خالص جلبي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ.
٣٠ ـ قواعد الدعوة إلى الله: تأليف د.همام سعيد، المنصورة، دار الوفاء، ط١، ١٤١٠هـ.
٣١ ـ قيمة الكلمة ومسؤوليتها: د.عبد الله الطريقي، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة، قدم إلى الملتقى الأول للخطباء في الرياض.

٣٢ ـ مختصر دراسة التاريخ: تأليف أرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، جامعة الدول العربية، ط١، عام ١٩٦٠م.

٣٣ ـ المدخل إلى علم الدعوة: تأليف د.محمد أبو الفتح البيانوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٤ ـ المسار: تأليف محمد أحمد الراشد، دبي، دار المنطلق، ط٣، ١٤١٢هـ.

٣٥ ـ مشكلة الثقافة: تأليف مالك بن نبي، ترجمة د.عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر.

٣٦ ـ المعجم الوسيط: القاهرة، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية.

٣٧ ـ مفاهيم علم الاجتماع الثقافي: تأليف د.محمد السويدي، تونس، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٤١١هـ.

٣٨ ـ مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي: بقلم نخبة من الكتاب، قطر، سلسلة كتاب الأمة عام ١٤١١هـ.

٣٩ ـ مقدمة في التاريخ للتربية: تأليف د.سعيد إسماعيل، القاهرة، عالم الكتب عام ١٩٩٥م.

٤٠ ـ مقدمة في علم الاستغراب: تأليف د. حسن حنفي، القاهرة، الدار الفنية، عام ١٤١١هـ.

٤١ ـ مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي: د.حسن وجيه، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عام ١٩٩٤م.

٤٢ ـ مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي، تحقيق د.عبد الله التركي ود.علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٩٩هـ.

٤٣ ـ مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تأليف فاروق السامرائي، جدة، مكتبة الوفاء.

٤٤ ـ المنهج الرباني في الدعوة: تأليف وحيد الدين خان، تونس، مكتبة الجديد.

٤٥ ـ الموسوعة الفلسفية: تأليف د.عبد المنعم الحفني، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١.

٤٦ ـ النظرية الروحية: تأليف د.راتب السمان، الرياض، ط١.

٤٧ ـ نقد السياسة، الدين والدولة: تأليف د.برهان غليون، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩٣م.

٤٨ ـ نهاية التاريخ وخاتم البشر: تأليف فرانسيس فوكو ياما، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، نشر مركز الأهرام، ط١، ١٤١٣هـ.

٤٩ ـ الوعي الذاتي: تأليف د.برهان غليون، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٩٢م.

٥٠ ـ مجلة البيان الصادرة في لندن: العدد ٧٥، عام ١٤١٤هـ.

(٢) فهرس الأفكار والمقولات العامة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- إن الاستجابة للتحدي تحددها طبيعة الظروف المحيطة بمن يوجَّه إليهم التحدي . .	٧١
- إن مشكلة النسبية أنها تؤدي إلى ترهل القيم والمعايير، والجوع إلى شيء من صلابة اليقين.	٧٤
- يصعب على العقل البشري أن يعمل بدون وجود إطار مرجعي يمنحه شيئاً من الثوابت والأسس الصارمة.	
- نظرية دارون كانت عبارة عن محرِّض لعملية (إعادة حيونة) الإنسان.	٧٥
- إذا لم يكن للمرء روح عصر كان له أسباب شقائه.	٧٦
- حين انهار الإطار المرجعي (الدين) لدى الغرب صار الوعي الأوربي يشعر باليتم.	٧٦
- قانون التعددية لم يخرج إلى قيد الحياة إلا على أنقاض قانون الهُوية؛ لكن ذلك لا يظهر إلا بعد زمن.	٧٧
- التعددية خير من علمانية تفرض فرضاً على الشعوب المسلمة.	٧٨
- على مدار التاريخ كان الإنتاج من أجل الاستهلاك، لكن الرأسمالية الغربية جعلت المعادلة اليوم: الاستهلاك من أجل الإنتاج.	٧٩
- المبادئ لا تعمل في فراغ، وعلينا أن نوفر الشروط لجعلها فاعلة.	٨٠
- يعتمد الغرب اليوم مع الشعوب الضعيفة سياسة الفتح السلمي.	٨٥
- من خلال سياسة (التذرع) يحاول الغرب استغلال الآخرين دون أن يخدش قيمه الأساسية التي ينال على أساسها أصوات الناخبين.	٨٥
- مما أدى إلى انفصال العلوم عن الواقع المعاش التعلق بأذيال منطق أرسطو الذي يسعى إلى (الصدق الشكلي) دون اعتبار للمضمون.	٨٦
- حين تلتقي ثقافتان متباينتان تكون كل واحدة منهما محنة للأخرى.	٨٧
- خير رد على الغزو الثقافي هو العمل المتواصل لإيجاد نوع من التكافؤ مع الآخر.	٨٧
- القصور البشري لا يمكِّن أبداً من رؤية الحقائق دفعة واحدة.	٨٨
- في ظل التواصل الكوني ما عاد ممكناً لكل أمة أن تضع معايير تقدمها.	٩٠
- صار النظر إلى التحديات على أنها نعم ربما أدى فقدها إلى الترهل.	٩١
- العلاقات الجدلية تقتضي دائماً التنافس ثم التعاون.	٩٢
- كل تحد من التحديات يسبب مشكلة، لكنه في الوقت نفسه يمنح فرصة للتغيير بشرط أن تكون في الموقع الصحيح.	٩٤
- مهما كان القدر الذي كشفه العلم من الحقيقة ضخماً، فإنه لا يقدم منهجاً أو تفسيراً شاملاً لحقيقة تناسب كل الأزمان.	٩٥
- إن عملية الاكتشاف هي في الوقت ذاته عملية اختراع، والمعرفة هي صناعة الإنسان.	٩٥
- حين يفقد مجتمع ما الحسَّ الجماعي يكون تكوين رأي عام عسيراً فيه.	٩٩
- هيمنة العقيدة على الوعي والرأي لا تتم بصورة آلية، وإنما من خلال الفاعلية الشعورية. .	١٠١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٣) فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة